وزارة الثقافة

أحمد بن أبي الضياف

إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان

تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية

تنفيذ:
الدار العربية للكتاب

إتحاف أهل الزمان

بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان

المجلّد الثاني

الجزء الثالث

التصميم والتنفيذ:
الدار العربية للكتاب

© جميع الحقوق محفوظة
1999

- حمودة باشا الحسيني
- عثمان بـاي
- محمـود باشا باي
- حسين باشا باي
- مصطفى باشا باي

الباب الأول

في اخبار

الباي أبي محمد حمودة باشا

ابن الباشا علي باي ابن الباي حسين بن علي

مولده ليلة السبت ثامن عشر (1) ربيع الثاني من سنة 1173 ، ثلاث وسبعين ومائة وألف (8 ديسمبر 1759) ، وأمه جارية من أعلاج القرج اسمها محبوبة ، تزوج بها أبوه في الجزائر . ولما قدم مع أخيه لتونس واطمأنّت به الدار ، بعث الثقة الامين الشريف الماجد أبا عبد الله محمد القسطلّي الى الجزائر في البحر ، وأتى له بها وببقية حرمه .

واعتنى أبوه بتربيته ، فقرأ ما تيسّر من القرآن ، وضمّ اليه إمامه الفقيه العالم أبا محمد حمّودة باكير ، فأخذ عنه ما يلزم من الفقه الحنفي وعلم الكلام ، وأخذ عن العلاّمة الكاتب أبي محمد حمّودة بن عبد العزيز ، كاتب أبيه ومؤرخ دولته ، ما يلزم من النحو والحساب والتاريخ ، وتعلم اللغة التركية نُطقا وكتابة ؛ وبالجملة له مشاركة اكتسبها بالتعلّم والمخالطة .

بويع في حياة والده غرة محرم سنة 1191 ، احدى وتسعين ومائة وألف (الاحد 9 فيفري 1777) ، كما تقدم في أخبار أبيه .

ولما توفي أبوه في الثامن عشر من جمادى الثانية 1196 ، ست وتسعين ومائة وألف (يوم الجمعة 31 ماي 1782) ، تجددت له البيعة من وزراء أبيه في الحين ، وأول من بايعه ابن عمّه أبو الثناء محمود باي ؛ ومن الغد حضر العلماء وأهل المجلس الشرعي وأكابر الجند وأعيان الحاضرة ، وجددوا له البيعة العامة . وخرجت جنازة أبيه الى تربته .

وكاتب بلدان المملكة وعربانها بنعيي أبيه ، وتوالت الوفود على بيعته .

وأقرّ وزراء أبيه ورجال دولته على مراتبهم وقال لهم : « اني لم أجلس في هذا الموضع بتَغَلُّب حَربي حتى اُحسِنَ لمن أعانني واَتَشَفّى ممن حارَبني ، وقد طلبتموني في حياة أبي ، فأطلبُ منكم أن تكونوا لي كما كنتم لابي ، والله تعالى وليُّ اعانة الجميع » .

---

(1) هو 17 حسب التقويم .

وبعد بيعته بيومين أو ثلاثة ، قدم صهره ومربّيه ووزير أبيه أبو النخبة مصطفى خوجة من سفر حجّه ، وسمع بوفاة مخدومه في حلق الوادي فقال : « لو بلغني خبر موته قبل أن أركب البحر ما قدمت حتى أنظر » ، لان تبديل الدول من معاطب الوزراء للملوك الاطلاق . وتيمّن بقدوم مربّيه وشدّ به أزره ، وانتفع بمؤازرته .

وحال هذا الامير : هو عماد البيت ، وبيت القصيد ، وفريدة السّلك ، المعدودُ من مفاخر هذا القطر ، ثاقبُ الفكر ، قويُّ الحزم ، صادق العزم ، ثابت الجنان ، أبي الضّيم ، [وكان] غيورا على الوطن ، محبًّا لاهله ، عارفا بمنازلهم ، متألفا لهم ، يغلب عقله هواه ، لا يأنف من المراجعة ، يُقيل العثرةَ ويعفو عن الزلّة ، جمّاعا للمال ، متلافا له في أوقات الحاجة ، بعيدا عن السّرف متجافيا عن دواعيه ، مُولَعا باستكثار الجند من الترك والالتحام بهم والتودُّد اليهم ، عظيمَ المَهابة في قلوب الناس ، ومع ذلك يتواضع لهم حتى أشرِبوا حبّه ، واستماتوا في المدافعة عنه ، طامحَ النفس الى قُنَن المعالي من أخلاق الرئاسة ، من غير اعجاب ولا جهل بمقدار نفسه ، وَلُوعا بالنظر في مقدّمة كتاب ابن خلدون ، رأيت نسخةً عليها توقيفات كثيرةٌ بخطّه ، كما ترى بسط ذلك في بقية أخباره ان شاء الله تعالى .

وافتتح أمره بالنظر في شأن المال ، اذ لا سلطان الا بمال ، فجمع رجال دولته وأطلعهم على مخلّف أبيه من المال الناضّ ، وكان نزرا لا يَفِي بمرتّب الجند ، لان أباه شديدُ الشفقة على الرعية ، غيرُ مجحف بهم في أموالهم ، واذا دعته الحاجة يأخذُ من العُمّال ، على حسب ثروتهم واتساع أعمالهم ، على صورة هدية ، ومن قَصّر منهم يقع الغضُّ من جنابه ، وربّما يُومِىءُ الوزير ، بطرَف خفيٍّ ، الى بعض أهل عمله ، فتقعُ الشكاية بتعدّيه في الجِباية ، ويناقَشُ في حسابها ، فاذا أنكرهم أثبتوا ذلك عليه باستفاضة منهم ، وربما حلفوا على صدق دعواهم ؛ يباشر ذلك الكاتب المعيَّن للمحاسبة ، فيؤخذ منه ذلك الزائدُ للدولة لا لاربابه . وبذلك جرى عملهم ، وربّما يعاقب بالمال والسجن زيادة عن العزل . فلأجل ذلك تراهم اذا رأوا موضع مَصْرَف باشرته الدولة يتسارعون بالهدايا ويتنافسون فيها . وهذا الحال ربما يُتَمَحَّلُ له وجهٌ ، وذلك أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه شاطر بعض عمّاله في أموالهم ، وهُمْ مَنْ هُمْ رضي الله عنهم . وشهادة المأخوذ منهم ربّما تكون كشهادة المسلوبين على المحاربين ، مع شاهد

الحال واليمين والاستفاضة ، فقال لوزرائه : « هذه طريقة سلكها أبي ، والرأي أن ننظر أصلحَ منها ، مع مراعاة أسباب النموّ في الجباية . وأمهلهم للنظر في ذلك .

ولولا ملك الاطلاق لكان الجواب من الكتاب والسنة وأقوال الحكماء ، قال الله تعالى : « لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً الاّ وُسْعَهَا (1) » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انْظُرْ الى من دونَك ولا تَنظُرْ الى من فوقَك » ، وقالت الحكماء : « امْدُدْ رِجْلَك على قدر كسائك ، ولا تطمَعْ في كل ما تسمع ، والتقدُّمُ للغاية تأخرٌ عنها ، والزيادةُ على الكفاية نقصانٌ منها ، ومن اشترى ما لا يحتاج اليه باع ما يحتاج اليه ، ومن سعادة جِدِّك وقوفُك عند حدِّك » ، الى غير ذلك مما لا يأخذه الحصر .

ونُمُوُّ الجباية لا سبب له الا نموُّ العمران ، ولا ينمو الا بالعدل ، ومع ذلك فقد كان هذا الامير يوازن خَرْجَه بدَخْله :

وأتعب خلق الله من زاد هَمُّه   وقصَّر عمّا تشتهي [illegible] وَجْدُه

وبعد استقرار هذا الامير ، سافر بالمحلَّة المعروفة بمحلة [illegible] بَيَّات) عند أهل المملكة . وذلك أنه سافر بأخويه أبي عمرو عثمان باي ، وأبي عبد الله محمد المأمون باي ، وابني عمه أبي الثناء محمود باي ، وأبي الفداء اسماعيل باي ، وسافرت معه والدته . واستخلف على الحاضرة الوزير أبا النخبة مصطفى خوجة ، فباشر الامور في مغيبه بسياسة ولين ، يجلس كل يوم أمام باب المحكمة لتلقّي ما يعرض من الامور ، فيوقف أشياء لقدوم مخدومه ، ويكاتبه في أخرى مستشيرا ، ويفصل الخفيف وما ينشأ عن توقفه ضرر ، مع ما عنده من التفويض .

ومهّد الباي بهذه المحلة الوطنَ ، وأمّن السُّبُلَ ، وغلّ أيديَ المعتدين ، وأرهب العُمّال ، واستوفى الجبايةَ وقفل راجعا لقصر ملكه . وبعث لوزيره الذي أنابه أن لا يخرج لتلقّيه ، وبقي بمكانه أمام باب المحكمة حتى وصل مخدومُه ، فتلقّاه في آخر الدروج(2) ، ودخل الباي المحكمةَ من بابها المعدّ لدخول العامة ، وجلس على كرسيّه ، ووقف الوزير بين يديه في موقف وزارته ، وأتته وفود التهنئة على اختلاف أصنافهم ومراتبهم .

---

(1) س 2/ آ 286 - (2) هي الدرج باللهجة المحلية .

وقد كان الوزير اسماعيل كاهية يخشى بادرة هذا الباي ، زيادةً على ما تتوقعه الوزراء من ملوك الاطلاق ، لوحشة بينهما من الصغر توغّر بها صدر كل واحد منهما ، من أيام الباشا علي باي ، ولم يزل خائفا يترقب ، مستوفِزا للفرار ، فلاقاه يوما أحمد الكافي ، أحد الاعيان المقرّبين من أولاد جُوَيْن ، فأشار له بالنجاة ، فرماه بسبحة كانت في يده محلاّةٍ بالجوهر ، فتناولها أحمد الكافي وعلم أنه فهم الاشارة ، وبادر بالفرار ، ولما بلغ ذلك للباي قال : « ان اسماعيل كاهية أساء بي الظنّ ، والعذر له ، والملام عليّ ، حيث لم نُؤَمّن خوفَه بالعهود التي يثق بها » . وبقيت زوجته ، وهي أخت الباي ، في دارها حاضنة لبنتها منه تحت كفالة أخيها ، وبقي أخوه علي بوزغاية في الخدمة ، منكرا هروبَ أخيه ، فاستدناه الباي ورفع منزلته .

وتقلب الوزير اسماعيل كاهية في الخُطط بمصر والشام ، وله عقب باسلامبول ، ولم يصدر منه بعد هروبه الا ما يزين العِرض ، ويدلُّ على عزة النفس وفضيلة الوفاء ، كما ترى في ترجمته .

وفي سنة 1198 ، ثمان وتسعين ومائة والف (1783 م) ، وقع بالمملكة طاعون جارف ، وهو المعروف عند أهل الحاضرة بالوباء الكبير ، مات بسببه أعيان من الحاضرة، وأثّر في عمران البلاد نقصا فادحا . وفي أول ظهوره صدر أمر من الباي بحرق ثياب الموتى وكسوة بيوتهم وغلْقِها ، وغَسْلِ الغرباء بالمقابر ، وسَجْن مرضاهم بمخازن القلاّلين . وصدرت في ذلك مقالات في أراجيز لبعض الادباء أحسنها :

وقال أهل الفضل والعرفان نفوّض الامر الى الرحمان
الخالق المصور القدير ليس لفعل غيره تأثير
أمرنا بالذكر والدعاء وهو الذي ينجي من الوباء

وبقية المقالات بطالات وأضحوكات .

وضجّ الناس من حرق ثيابهم ، والباي مجتهد في ذلك ، فكلّمه الشيخ المفتي العالم ، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم ، أبو العباس احمد البرانسي ، والعلماء ، بأن لا يجمع على الناس مصيبتي النفس والمال ، والواجب الاستسلام لقضاء الله وقدره ، ومن ورثة هؤلاء الاموات أيتامٌ وأراملُ ، وإن رأيت ذلك من الطبّ فَلِورثةِ الموتى أن يطلبوا

ثمن ما حرق لهم . واشتدَّ النكير عليه في ذلك ، وكرروا مراسلته مع شيخ المدينة المأمور بحرق الثياب ، ولما اتسع الخرق رجع عن أمره ، ومن المقدور لا يغني المحذور .

وفي محرم سنة 1199 ، تسع وتسعين ومائة وألف (نوفمبر 1784 م) ، توفي أبو عبد الله محمد المأمون باي ، شقيقُ حمّودة باشا ، بمرض أصابه ، وكان شابا حسن الاخلاق بادِيَ العفّة . ودفن بتربة أبيه .

وفي أوائل دولة هذا الامير وقعت ولاية العُمّال بمشارطة مالية ، وكانت العادة السابقة أن الملك ، برأيه أو باشارة بعض وزرائه ، يقدّم من يستكفي به من العمّال لقَوْدِ طاعة الرعية ، وخلاصِ أموال الجباية ، من غير أداء شيء ظاهر ولا خفي للدولة ، ويتوجه العامل لعمله بهدايا لمشايخه (1) وعرفائه وهم الهواديك (2) ، ويستخلص بذلك من أهل العمل مقدارا من المال يسمّى « الضيفة » ، مأخوذ في مفهومها الرضى ، يكثر ويقلّ بحسب العمل ، توزعه المشايخ على اخوتهم بحسب تفاوتهم في الثروة ، ويكون لهم وللعرفاء سهم من تلك الضيفة ، يختلف باختلاف حالات العمّال .

وكانوا يعاقبون على الذنوب الخفيفة بالمال ، لكن على قدر الكسب لا على قدر الذنب . واذا عاقبت الدولة بمال ، فالعامل هو الذي يباشر الخلاص ويزيد عليه العشُرَ وهو المسمى بالخَلاَص . وجميع ذلك موكول لامانة العامل ، وأين الامين ؟

وكان قُوّاد العرب يركب الواحد منهم مرةً في السنة ، ويتخلّل خيام الاعيان من حيّه ، فينزل في البيت تارةً ، وأخرى يقف أمامها مسلّما ، ولما يرجع لمخيّمه يأتيه كل من نزل بيتَه أو وقف بفنائها بشيء من مال أو حيوان أو طعام ، يسمّون ذلك « وَهْبَة » ويقولون : « خرج القايد يستوهب » ، ويعطي من ذلك للمشايخ ، لانهم جوارح صيده، وتارة تخرج معه أعيان منهم حين يستوهب ؛ الى غير ذلك من وجوه الدخل الذي آلَتْهُ الرّهبة ، ويسمون هذا الدخل في اصطلاحهم « بالهوى » ، والملوك يغضّون الطرف عن

(1) ج شيخ وهو فى العرف الادارى نائب السلطة فى القرى والارياف .

(2) ج هيدوك وهى كلمة مجرية (Hayduk) وصارت بالتركية (Haydut) استعملت فى المجر والنمسا وبعض بلاد البلقان في اوقات مختلفة ، بمعنى اللص والصعلوك والراعى والخادم والشاوش ورسول المحكمة والجندى ، ثم اطلقت على بعض متطوعة البلقان الذين قاوموا الحكم التركى ، فكانها دخلت تونس مع الاتراك فشاع استعمالها بمعنى عريف .

ذلك ، لا سيما اذا لم ترفع لهم الشكاية ، لما يأخذونه من العمّال عند الحاجة ، كما تقدم ، ولا شك أن ما يؤخذ منهم نزر يسير بالنسبة لما يتأثّلونه من أموال الرعايا ، فتجدهم لاجل ذلك يتقربون لرجال الدولة ، ويستميلونهم بالهدايا ، فيذكر كلٌّ واحد صاحبَه بالنجابة والامانة .

واتفق أن عامل الوطن القبلي ، رجب بن عياد ، باع غلّة زيتون الدولة على العادة ، وكان من أصحاب الوزير مصطفى خوجه ، وهو أكثر الجماعة أصحابا وقتئذ ، فأتى بزمام البيع وطفق يثني على العامل بالنجابة والامانة ، ويَلْمزُ من كان قبله ، والوزير الكاتب أبو محمد حمّودة بن عبد العزيز ساكت سكوتَ إنكار ، فقال له مصطفى خوجة : « لم لا تتكلّم ؟ » فقال له : « لعلمي بخلاف ذلك » ، فأجابه بأن « الامر محسوس ، وذلك أن هذا الزيتون نفسه باعه المتولي قبل هذا في عام خصب ، كادت أعواده أن تنكسر بكثرة الغلة ، وهو في هذا العام دون ذلك ، وثمن الغلة في العامين واحد ، » فقال له الوزير الكاتب : « ثمن الغلة تابع لثمن الزيت بالسوق ، فاذا كانت الغلة كثيرة يكون الزيت كثيرا فينقص ثمنه ، واذا كانت الغلة قليلة يقلّ الزيت فيزداد ثمنه ، فمشتري الغلة يعتبر ثمن الزيت ، وان أردت تحقيق ذلك فانظر الى أزِمّة (1) سوق الزيت في ذلك العام وفي هذا العام » ، فوجم الوزير .

وقال الباي لوزرائه : « قد طلبت منكم تدبيرا في شأن الجباية يناسب الوقت والحال ، وأنا أنتظره منكم » ، فقال له الوزير الكاتب : « هذه المملكة كالبقرة ، والناس تتوارد على حَلْبِها على اختلاف أنواعهم ، وأنت آخِذٌ بِقَرْنِها ، ولا يشك مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر في خيانة سائر العمّال ، فيما يرجع الى المال ، وانما تتفاوت بالكثرة والقلة ، بحسب حال العامل في الخوف وعدمه ، باعتبار من ينتسب اليه ، وجميعنا يأخذ الهدايا من العمال ، فواحد يأخذها ذهبا وفضة ، وآخر يأخذها حيوانا وثيابا وطعاما ، وجميع ذلك في التحقيق لاربابه أو لبيت مال المسلمين ، فالرأي أن تعتبر دخلَ عُمّالك ، وتوليهم على مشارَطَة مالية ، ووراءهم نظرُك » ، فقال الوزير منكرا عليه — وهو بشهادة الله موضع انكار — : « يكون ذلك على يدك أيها الشيخ ؟ » فقال له : « لا يكون على يدي لمنافاته خُطّتي ، ولا على يدك ، وانما يكون سرًّا على يد من يثق به سيّدنا في

(1) ج زمام : سجل ، دفتر .

ذلك ، ليتدرب على سياسة الاعمال والعمّال ، ولا يتولىّ عامل الا على يده » ، وأشار بالوزير أبي المحاسن يوسف خوجة صاحب الطابع ، فصادف الاذن الواعية ، لشدة ميل الباي الى اظهار ترقّيه ، فاتفق الرأي على تقديمه .

وبعد ذلك أذن له الباي في الركوب الى حلق الوادي أو غيره من بساتينه ليجتمع بالناس ، ويبلّغ للباي ما يتلقّاه منهم . ونبّهه الشيخ بن عبد العزيز الى رجال يطلبون الولايات ويبذلون الاموال ، وآزره في ذلك أياما ودرّبه على هذه السمسرة . ويسمى هذا الدخل « بالاتفاق » ، للفرق بينه وبين الالتزام في الصورة الظاهرية ، لان الالتزام يكون بالمزايدة على عيون الاشهاد بالمحكمة ، وهذا يقع سرا بين الوزير والطالب . وحدث بعد ذلك مال لهذا الوزير المباشر لهذه الخدمة ، يسمّى « اللفظية » يأخذه الوزير لنفسه مثل الخدمة ، ويعلم به الباي . وجمع صاحب الطابع من ذلك أموالا عظيمة للدولة ، يعطي حسابها بزمام مخصوص ، يعرف من ذلك العهد بزمام الصرايا (1) ، ولا يدخل ذلك في أزمّة بيت خزنه دار ، ولا في أزمّة الجباية عند الشيخ باش كاتب . الا أن هذا الاتفاق وان كان جسْرا لظلم الرعية ، الا أنه مشروط عادةً وعرفا بحدٍّ معلوم وهو ضجيج أكثر الرعية ، فيضطر العامل الى مصانعة بعضهم وتلوين ظلمه بما لا يقتضي شكاية ، ومصانعة المشايخ وأهل الإبابة بالهدايا والتشريك معه فيما يأخذه ، ليسدُّوا أفواهَ العامّة ، وهذا هو السبب في أن المشايخ والعرفاء لا يحبّون ما يحبه الله من العدل في عباده ، خشية أن يفوتهم ما اعتادوه من هذا السُّحت الذي لا سبيل اليه الا بجور العامل . وصدق صلى الله عليه وسلم ، على ما رواه الامام السيوطي في جامعه : « لكلّ قوم عرفاء ، والعرفاء في النّار » . وعلى كل حال اذا وقعت شكاية من أكثر أهل العمل ، يسمعها الباي ويعزل العامل ، وتارة يعاقبه مع العزل بالسجن والمال ، تارة بعد محاسبته وأخرى بدونها ، على حسب ما يقتضيه الحال ، واذا شكوه بعد العزل بأنه أخذ منهم مالا ، يقال للمشتكي في المحكمة : « القايد ذهب وذهبت حسائفه » ، كلمة معروفة في مثل هذا . كما أن العامل إذا استظهر بدين لنفسه على أحد أهل عمله ، تُمزّق حجّته ، ولا يجاب لدعواه ، ولو بلغ ما بلغ ، ويقال له : « أنت قايد لا تاجر » ، غير أن هذا الحكم نُسِخ في هذه الازمنة المتأخرة ، اذا شاطر العاملُ الدولةَ في هذا الدَّيْن أو جاعَلَها . وقد مزق

(1) الصرايا : السرايا

الباي أبو النخبة مصطفى باشا في منتصف هذا القرن ، رسومَ دين يُنيف على مائة وخمسين ألف ريال لابي العباس أحمد المنستيري أيام ولايته الاعراض ، مزّقتها بين يديه وهو ينظر ، لمّا أتى ورثته يطلبون ذلك . وسيأتي لمثل هذا مزيد بيان في موضعه .

*

ولما باشر صاحب الطابع هذا الامر وهرعت الناس اليه ، تجنّف عنه أصحاب الوزير مصطفى خوجة ، فقيّض لهم من زاد عليهم في الاتفاق ، فاشتدّ حَنَقُ الوزير وصار ينكر ذلك ، وهو بديهيٌّ الانكار ، ويوسف صاحب الطابع يتحمّل ويتجاوز له لشيخوخته ومكانته في الدولة ، وكان الحاج فرج الجوز عاملا بباجة ، وله استناد قوي للوزير مصطفى خوجة ، فامتدت اليه يد يوسف صاحب الطابع ، فأتى الوزيرَ يستشيط غضبا ، فقال له : « ان أردت الولاية فهذا سبيلها ، وان أردت التخليّ فأنت في سعة ، هكذا دبّر الحاج حمّودة بن عبد العزيز » ، فعظم على الحاج فرج ذلك ، وكان له ابن أخ فاتكٌ داعر ترصّد للحاج حمّودة ، وضربه بالرصاص ، مُنصَرَفَه من باردو ، أمام سيدي عبد الله الشريف ، فحمل الى داره مَغشياً عليه ، الا أن الضربةَ لم تصب مقتلا ، ولا هشمت عظما ، ويقال إن الضارب أغراه عمّه الحاج فرج باشارة من الوزير مصطفى خوجة ، والله أعلم بالواقع ، وعظم موقع ذلك عند الباي ، ولما قُبِض على الضارب ، وحضر بين يديه ، أمر به أن يُوثَقَ كِتافا ، ويُحْمَلَ الى الوزير الكاتب الشيخ حمودة بن عبد العزيز ليحكم فيه بما يراه من العقوبة ، فصادف أن كان الشيخ في معاناةِ ألمِ الجرح ، فحكم بتكسير يديه ورجليه ، وإلقائه ببطحاء القصبة حتى يموت ، فَفُعِل به ذلك بمطارق الحدّادين ، وألقي بالبطحاء ، فرقّ له تركي من الجند فأجهز عليه ، وكانت هَنَةً على هذا العالم ، وقُبْحَ أحدوثة في دار الدنيا ، ولما بلغ هذا الامرُ الفظيعُ الى الباي ، غضب وندم ، ولات حينَ ندم ، وهي هنة محسوبة عليه أيضا . ولما برئ الشيخ ، وأتى باردو على عادته ، غضّ الباي من جانبه ، وتنكّر له ولم يجد ما كان يعهده ، وأدبر إقبالُه ، ورمقته أعينُ الانتقاد ، وسلقَتْه الالسنُ الحدادُ ، الى أن أزعجته يد المنية الى اللّحاق بطالبه إثر ذلك ، سنة 1202 ، اثنتين ومائتين وألف (1787 م) ، كما يأتي في خبره .

وكان قلم الترسيل مقصورا على هذا الشيخ ، فزُوحِم فيه بالعلاّمة شيخ الشيوخ أبي محمد حسن بن عبد الكبير الشريف ، وسَلَّمَ (1) فيه ، فأبدل الله درهمه دينارا .

وهذه الحكاية عن هذا الشيخ سمعتها من شيخ شيوخنا ، علامة العصر ، أبي الفداء اسماعيل التميمي .

⁂

وشأن هذا الاتفاق معروف عند شيوخ الدولة ، ومرسوم في دفاتر الصرايا ، وقد كتب فيها والدي مدة وزارة أبي المحاسن يوسف صاحب الطابع ، وكتب ابنه العبد الحقير مدة وزارة أبي محمد شاكير صاحب الطابع ، ولم يزل العمل بذلك مستمرًّا الى سنة 1272 ، اثنتين وسبعين ومائتين وألف (1855 م) ، تاريخ منشور الاعانة .

⁂

ولما تمهدت المملكة وانسدل بُرْدُ العافية ، رأى الباي حمّودة باشا أن مباشرة السفر بالمحالّ لا داعي لها ، وربما تضيع بسببها مصالح أهمّ منها في الحاضرة ، فجعل السفر بمحلتي الصيف والشتاء للكاهية . وأول من سافر بها سليمان كاهية الاول ، خديم أبيه ، ولم يفوّض له أمرَ الولاية والعزل الا في المشايخ للعربان ، اذا اشتكى منهم إخوتُهم فانهم يقدمون من يرتضونه ، بتذكرة منه ، مضمونها : « اننا وافقنا العرش الفلاني على اختيار فلان للمَشْيَخ (2) حتى يُرفع الامر لمن له النظر » ، ولما يرجع بالمحلّة يطلب لهم من الباي أوامر الولاية ويسترجع تذاكره ، وذلك أن المشايخ عرفاءُ اخوتهم ، كالوكلاء عنهم ، لا يتولّى أحد منهم الا عن رضاهم .

وصار المسافر بالمحالّ مأمورا كأعيان الوزراء والامراء ، وحسبه خلاص (3) الجباية على اختلاف أنواعها ، والغصبُ عليها ، وتأمينُ السُّبل ، وردعُ أهل الحِرابة والفساد ، ولذلك رُخص له في قتل المحارِب بمحل جنايته ، ردعا لغيره ، واستمرّ هذا الحال .

(1) سلم فى الشيء : تركه او تنازل عنه (عامية تونسية) .

(2) اى وظيفة الشيخ .

(3) خلاص : استخلاص (عامية تونسية) .

وفي سنة 1204 ، أربع ومائتين وألف (1789 م) ، وقعت الاسباب المفضية لحرب الفَنِسْيَان (1) ، وذلك أن تجارًا من تونس حملوا سِلعَهم في مركب فَنِسْيَان ، من الاسكندرية الى تونس ، فوقع في أهل المركب مرض الوباء ، فدخل الرايس بهم الى مالطة ، وأنزل السلع بها ، فصدر الحكم من نُظّار الكرنتينة بحرقها ، فطلب التجارُ أموالَهم من الرايس لانهم وضعوها في أمان صنجق مركبه ، على أن يبلغها لتونس ، وطال النزاع ، وأفضى الى منابذة وحرب ، وخرجت مراكبُ تونس تأخذ ما تقدر عليه من مراكب الفَنِسْيَان ، على العادة في ذلك العصر ، فَقَدِم اسطولُهم الحربي الى حلق الوادي ، وَرَمَوْه بالمدافع ، ثم توجهوا الى سوسة ورمَوْا سُورَها بالمدافع والبونبَة ، ثم أتوا صفاقس ، وهي بعيدة المرمى ، لما في بحرها من المدّ والجزر كل يوم ، وآل الامر الى الصلح ، وكان في رمضان سنة 1206 ، ست ومائتين وألف (افريل - ماي 1792 م).

وفي السادس عشر من جمادى الثانية سنة 1206 ، ست ومائتين وألف (الجمعة 10 فيفري 1792 م) ، رام بعض غلمان من مماليك هذا الباى الفتكَ به ، لولا لطف الله . وذلك أنه كان مرهَفَ الحدّ ، شديدَ البأس في تربيتهم وتأديبهم من غير رأفة ، يعاقب على سوء الادب بعقاب الجناية ، ويأخذ البريء منهم بالمذنب ، وكان لا يبيح لهم التكلم بالعربية ، خشية أن تكون اللغة ذريعةً للخلطة ، ولا يكلمهم الا باللغة التركية خشية أن ينساها ، الى غير ذلك مما يجرِّىءُ الضعيف ، ولما اشتد الحال على بعضهم (2) مع حداثة السن وجنون الشباب ، تواطأ ثلاثة منهم على قتله ، اسم أحدهم دالي باش . وكان ينام بحجرة ومماليكه في البيت خارجها ، فلما جنّ الليل ، واستغرق في النوم ، عمد اليه ثلاثتهم ، وباشر أحدهم ذبحه ، فاستيقظ ولوى عنقه ، وضغطه بظهره الى الحائط ، فصار يحزُّ في فكّه الاسفل ، ظانًا أنه رقبته ، فهجم الآخر ، فدافعه بالقبض على يده ، وصاح بوزيره يوسف صاحب الطابع فلبّاه ، وكان من النائمين في البيت ، فأخذ الذي جرحه ، وأخرجه ورمى به ، ودخل سليمان كاهية الثاني ، ويوسف باش مملوك الذي صار كاهية بدار الباشا ، فأخرجا البقية ، فضربوا يوسف صاحب الطابع بالرصاص ، وجرح كتفه ، وضربوا يوسف باش مملوك بالرصاص في لحم فخذه ، وسجنوا

---

(1) هم اهم فينيزيا (Venise)

(2) بهامش ق ص 67 : ويقال ان الباى اكرههم على ما لا يناسب المروءة فلم يتحملوا ذلك .

في بيت ، فتواطأ اثنان منهم على قتل أنفسهما ، فجعل كل منهما مكحلته (1) في صدر الآخر ، وصرخا ، فخرّا ميتين ، وقتل الآخر في الحين . وأصبح الباي جالسا ببيته ، بعد أن عاني الطبيب التامَ جرحه ، وأذن للناس في الدخول عليه حتى تحققوا سلامته ، وأن الجرح غيرُ مَخُوف ، ولما برىء بقي أثره باديا بوجهه .

وفرح أهل المملكة بعافيته ، وأظهرت الحاضرة سرورها بزينة حافلة ، وهنّأته الشعراء.

وفي السنة 1206 اجتاز بالحاضرة مولانا اليزيد ابن السلطان مولانا محمد ، ابن السلطان مولانا عبد الله ، ابن السلطان مولانا اسماعيل الشريف العلوي ، قاصدا أداء فريضة الحج ، فاهتز الباي لمقدمه ، وتفنّن في إكرامه ، وأنزله بقصره من بساتين مَنُّوبَةَ ، وأتاه مسلّما عليه ، وطلب منه أن يزورَ محلّه ببَارْدُو فأسعفه ، وبالغ في إكرامه لِمَا بين الدولة الحسينية وهذه السلطنة الشريفة من المحبّة والوُصلة . وبقي أياما يأتي الحاضرةَ ، ويرجع الى منزله بمنّوبة ، الى أن تسنّى له السفر للحج .

وتولى هذا الشريف السلطنة بعد وفاة أبيه ولم تطل مدّته ، ورام استرجاع سَبْتَةَ فمات في حربها جريحا بحَبّ الرصاص .

ولهذا الشريف شجاعة وولوع بالرِّماية ، لا سيما صناعة البونبة ، مرَّ يوما برُمَاتِها ، وهم يتعلّمون أمام باردو على عادتهم ، فوقف راكبا وأمر الرامي بما ظهر له من تحريكها ، وهو يشايع النظر لاصابة المرمى ، ثم أمر بتسريحها ، فصادفت قاعدة الهدف وهو خباء ، ثم سار .

وفي غرة ربيع الثاني من هذه السنة 1206 ، (الاحد 28 نوفمبر 1791 م) ، ولد للباي ابنه محمد من زوجه بنت الشيخ الامام المفتي أبي عبد الله محمد ابن الشيخ الامام المفتي أبي عبد الله الحاج حسين البارودي .

⁂

وفي ذي الحجة من سنة 1207 ، سبع ومائتين وألف (جويلية — أوت 1793 م) ، قدم لتونس أبو الحسن علي باشا بن محمد باشا بن أحمد باشا قرمانلي ، باني بيت ملكهم بطرابلس ، لمّا استولى علي بُرْغُل على مدينة طرابلس .

(1) تجمع على مكاحل . وهى البندقية (لهجة تونسية) .

وذلك أن علي باشا هذا ساءت حاله ، وانحلّت عُرى مملكته ، لحروب بينه وبين ابنه بالمِنْشِيَّة ، انحجر بسببها في المدينة ، وطالت مدة الحصار ، والحربُ قائمةٌ على ساقها ، وجرت عادة الله أن الاختلاف اذا وقع في آل بيت واحد لعدم تسليم الرئاسة لصاحبها ، يؤدي الى خروجها من البيت .

ولما تحقق علي برغل ضعف المملكة باختلاف وُلاَتِها ، وخروج الكثير من أهلها فرارا من الفتن وغوائلها ، توثّب على المملكة ، وكان ذا رتبة بالجزائر ، وخرج منها بذخائره وأمواله في البحر ، فأتى القسطنطينيةَ على عهد السلطان سليم خان ، فوجد أخاه كاهية لقبطان باشا ، فتوسّل به ، وأخبر الدولة بحال طرابلس ، من خروج أهلها واختلاف وُلاَتها ، والفتنِ المُفْضِيةِ الى سفك الدماء وخراب ذلك الصِّقع ، وطلب من السلطان أن يكتب عهدا بولايتها ، ويتوجه لاستنقاذها ، ولا يكلف الدولة مالا ولا عسكرا .

ولما حصل على عهد الولاية ، جمعَ عسكرا من متطوّعةِ الترك ، أكثرهم أرْنَؤُوطْ ، واكترى مراكب لحملهم ، وجهّزهم بما لزِمهم من الاقوات والسلاح ، وأتى بهم مدينة طرابلس على حين غفلة ، فنزل البرّ ، وأخبر الناس ، وهم في خَنْقِ الحصار ، أن بيده فرمانا سلطانيًّا بالولاية ، والمدد العثماني وراءه ، فأفرجوا له ، ورأوه من الفرج بعد الشدة ، فتمكّن من حصون المدينة وقِلاعها ، وأنزل آلته وذخائره ، فخرج علي باشا فارًّا بنفسه ، وبقي ابناه أحمد باي ويوسف باي بالمنشية ، يحاربان علي برغل ، الى أن ضعف أمرهما ، فالتحقا بأبيهما الى تونس .

وقد كان حمّودة باشا لمّا بلغه وصول علي باشا قرمانلي ، أركب أعيانا من رجال دولته لتَلَقّيه ، ولما وصل عظّم مقدمه وأكرم نُزُلَه ، وأسكنه قصرَ العبدلّية الكبرى بالمرسى ، وأجرى له ما يناسب مقامه ، وبالغ في إكرامه وإكرام بنيه وأتباعهم ، بما ينبغي لعزيز قومٍ .

وقد كان الوزير مصطفى خوجة أشار على الباي ، لمّا ظهر دُخَان الفتنة بين آل قرمانلي ، أن يرسل جندا لاطفائها قبل تَطَايُر شررها الى أطراف المملكة التونسية ، فلم يفعل ، لان همّه اذ ذاك الجزائرُ .

ولما استولى علي برغل على طرابلس ، وصفا له جوّها من أولاد قرمانلي ، تحدث مع رجاله في الاستيلاء على مملكة تونس ، ووزّع أعمالها بينهم ، ومنهم قاره محمد التركي، وعده بولاية جربة ، فقال له : « البدارَ البدارَ للفرصة ، هذه جربة قريبة منا وعسكرنا حاضر مستعدٌ للقتال » ، فوجّهه بألف مقاتل من جند الترك في سبعة مراكب ، فوصلها خامس ربيع الاول تسع ومائتين وألف ، سنة 1209 ، (الثلاثاء 30 سبتمبر 1794 م) ، فأرست المراكب بها قرب برج "أغير" من مرسى الرملة ، ونزلوا للبرّ ليلا فتلقّاهم من وَاطأهُم من أهلها ، ومنهم خليفةُ العامل ، وكانت ليلةً مظلمة ، وهجموا على الجزيرة صباحا ، ففرّ عاملها أبو العباس حميدة بن قاسم بن عيّاد ، بعد أن وضع حَرَمَه في زاوية الشيخ أبي زيد ، وأتوا منزل القايد ، فنهبوا سائر ما فيه ، وقتلوا بعض خُدّامه ، وظهرت له الخيانة في وجوه أتباعه الراكبين معه ، فأمرهم بنهب حارة اليهود ليشغلهم بها عن نفسه ، ونجا للبرج وما كاد ينجو ، ونادى قاره محمد في الناس بالامان ، وفتح مكتوبا زعم أنه من السلطان ، والله أعلم بما فيه . ثم ان العامل حميدة بن عيّاد خرج من البرج الى ساحل البحر في حيرة ، فأتاح له القدر شَقْفا من شُقُوفه خرج للغزو ، فنجا اليه في زورق ، وأتى صفاقس ، فتلقاه عاملها أبو الثناء محمود بن بكّار الجلّولي ، وطيّر الخبر للباي ، فأتاه به الوزير مصطفى خوجة وقال له : « كيف ترى إضاعة الحزم ؟ ان جربة أخذها علي برغل ، وعامله قاره محمد فيها الآن ، وعاملك نجا بنفسه الى صفاقس » ، فجمع رجال دولته بمسجد الباشا ، وأخبرهم الخبر ، ولم يقع اتفاق على رأي . ومن الغد جمعهم بالمسجد صباحا ، فقال له الوزير صاحب الطابع : « إنّا أضعنا الحزم في أول الامر فلا نُضَيِّعْه الآن ، وقد كان توقُّفُنا في إنجاد علي باشا قرمانلي ، لمّا أتى لتونس ، إنما هو للأدب مع السلطنة العلية ، على أن ما يدّعيه علي برغل من الفرمان غير محقق عندنا ، لاننا لم نره ، ولا سمعنا بخبره ممن يوثق به ، ويحتمل انه ثائر ، ولمّا تعدّى واستولى على قطعة من بلادنا ، وجبت علينا المبادرة بارسال محلة لطرابلس ، وإرسال عسكر في البحر لافتكاك جربة من يد قاره محمد » . واتفق الرأي على ذلك ، واستشار الباي في هذا الامر شيخَ الاسلام أبا عبد الله محمد بن حسين بيرم ، فأشار عليه بأن « هذا أمر سياسي ، أنفع الاشياء فيه استعانتُك بأهل الرأي ورؤوس الجند وأكابر الدولة ، وأما العلماء فلا تجدُ عندهم فائدةً لك ، ولا تُؤَمِّلْ منهم فتوى تعتمدها في الحرب بين المسلمين ، وبيعةُ السلطان منعقدةٌ بأعناقنا ، واذا توقّفَ العلماءُ في الفتوى وشاع ذلك ،

ربّما يكون سببا في وَهَنٍ » ، فاستحسن رأيه ، ولما خرج قال للوزير : « انه نصحني » ، ولما عزم ، بعد الاستشارة ، أمر باحضار المحلة وتعمير المراكب ، وعزم على السفر بنفسه ، وأسرّه لعَيْبَةِ سرّه يوسف صاحب الطابع ، فعارضه بأن « الجيش معرّضٌ للنصر وضدّه ، فاذا انهزم الجيش وأنت أميرُه ، انهزمت المملكة ، بخلاف ما اذا انهزم أمير من أمرائك وأنت في قاعدة ملكك » ، فقال له : « من يقوم مقامي والحالة هذه ؟ » فقال له : « هذا الاعرج القادم » ، وكان الوزير مصطفى خوجة قادما متوكّئا على عصا لنِقْرِس كان به ، ولما وصل قال له : « يا أبي ، ان يوسف أشار علي بسفرك في المحلّة لطرابلس ، على ما بك من المرض » ، فقال : « اني باعانة الله حاضر لكل ما تريد ولو أكون على مِحَفَّة ، والموت بالاجل ، وان حضر فلا أشرف عندي من الموت في خدمتك » . ثم جمع رجال دولته واستشارهم في سفره بنفسه ، فأجابوه على لسان واحد : « بأن خروجك من الوطن لا سبيل اليه » ، فقال لهم : « من يكفيني هذا المهمّ ؟ » فقالوا له : « الوزير مصطفى خوجة ، وإن عاقَه المرض فكاهية المحالّ »، فقال لهم الوزير : « ان ما هو قائم بي من المرض المعاشر لا يمنعني » ، فوقع الاتفاق على سفره ، وأن يخرج بشارات باي مطلق التصرف ، وهو من الحزم في الحروب ، لان توقّفَه على المشورة ربما تفوت به الفرصة .

وفي الثاني والعشرين من ربيع الاول من السنة 1209 (الجمعة 17 اكتوبر 1794 م) ، خرجت محلة زواوة ومعها بعض عروش ، وأميرها أبو الحسن علي اللوح باش حانبه ، مقدمةً لمحلّة الوزير ، وفيها أبو المحاسن يوسف باي بن علي باشا قرمانلي ، ثم خرجت محلة الوزير مصطفى خوجة يوم الاحد الثامن من ربيع الثاني من السنة 1209 (الاحد 2 نوفمبر) بصناجق الباي والنّوبة وشاوش السلام ، وبها عسكر الترك والمدافع والمخازنية وسائر المزارقية والفرسان من عروش الاعراض ، بعد أن زاد الباي في مرتب الجند ، وأفاض العطاءَ في الناس ، وعيّن عشرة آلاف بعير ، تحمل الاقوات والعلفة والآلات ، غاديةً رائحةً بين تونس وطرابلس ، دون ما بعثه من الذخائر في البحر لصفاقس وقابس .

وسار الوزير بالمحلة ، ومعه أبو العباس أحمد باي بن علي باشا قرمانلي ، وأراح الجند في المنازل الطيبة ، بحيث لم يلحقهم ضجر ولا ملل .

ووصل طرابلس يوم الجمعة الخامس والعشرين (1) من جمادى الثانية (16 جانفي 1795 م) . ولم تزل أعيان القبائل من طرابلس ، يتعرّضون بهداياهم لابناء قرمانلي ، وكلما أتى وفد منهم أكرمه الوزير مصطفى خوجة ، وكساه وشكره على حسن الوفاء ، الا قبيلةً تسمى الجراجرة طلب يوسف باي من الوزير الاغارةَ عليهم لفسادِهم وتَلَكُّئِهم في الطاعة ، فجرد لهم الوزير أربعة آلاف فارس ، أمَّر عليهم الكاهية أحمد بالضياف، فهزمهم واتبع أثرهم وخضد شوكتهم ، وقُتل الكاهية في حربهم .

ولما وصلت المحلّة الى طرابلس يوم الجمعة كما تقدم ، انتظر الوزير قدومَ أهل المنشية ، لظنه أنهم من حزب أحمد باي قرمانلي ، فلم يقدم منهم أحد ، فعبّأ لهم جيشا من جند الترك والمخازنية ، ووجق الكاف وقبيلة المثاليث ، وأصحبهم المدافع ، فهجموا عليها ، وصابروا القتال ، فأخذوها يوم الاحد السابع والعشرين (2) من جمادى الثانية ، (19جانفي) ، وتملكوا حصونَها وأتراسَها ونهبوها ، ووجّه بقية العسكر في اليوم لقتال المدينة ، فدافع أهلُها بما في قِلاعها من المدافع ، ومات كثير من عسكر تونس ، وفي يوم الاثنين عبّأ الجند لقتالها أيضا ، فوجدوا أبوابها مغلقة ، وأهلها على الاسوار مستأمنين ، وأُخبِروا بفرار علي برغل ، وقد بلغ الوزيرَ في الليل خبرُ هروبه في البحر ، وأبَوْا من فتح الابواب الا اذا أتاهم الوزير بنفسه وكلّمُوه ، فأتاهم فطلبوا منه الامانَ فأمّنهم ، وطلبوا منع العسكر من دخول المدينة للنهب ، فأجابهم لذلك ، ووعدهم الجميلَ ووفّى ، ولانَ لهم في الخطاب ، ففتحوا الابواب ، ودخل الوزير بالاخوين أحمد ويوسف ، ونزل بقصر الامارة ، فأتاه النذيرُ بأن علي برغل وضع فتيلا طويلا يتصل بخزنة البارود ، ولم تزل النار سارية فيه ، فأمر بازالته في الحين ، وشكر الله على لطفه بعباده ، ثم أحضر العلماء وأعيانَ الجند ووُجوهَ البلاد فبايعوا الباي أحمد قرمانلي ، وأحضر يوسف وعقد له على العربان ، والخروج بالمحالّ ، وأعلنت المدافع بالسرور ، ورجع الوزير الى محلّته ، وصار العسكر التونسي حارسا للبلاد وأهلها ، لا يدخلها أحد الا للصلاة أو قضاءِ وَطَرٍ بغير سلاح . وطيّر بخبر النصر الى الباي ، فوصله يوم الاربعاء سابع رجب السنة 1209 (28 جانفي1795 م) .

---

(1) هو 24 حسب التقويم — 2) هو 26 حسب التقويم

وأما علي برغـل فانه نجا لارض الحجاز ومات بها .

ولما رأى أهل طرابلس انكـفاف أيدي العسكـر التونسي عن النهب ، أهدَوْا لهـم مائة ألف محبوب من الذهب ، تحمَّلَ بها أغنياؤهم طوعا ، ولما وصلت الوزيرَ وزَّعها في العسكـر على أيدي كـبرائهم ، وأعطاهم الوزيرُ إحسانا أربعين ألف محبوب من عنده ، رأيتها مقيّدةً ومفصّلة في دفتر مصروفه ببيت خزنه دار .

ولما تمهد الوطن لاولاد قرمانلي ، واستقام أهلها على جادّة الطاعة ، وانسدل ستـر العافية والامان ، لَوَى الوزير عنانَ الأَوبة الى تونس ، وشيَّعه يوم رحيله أولادُ قرمانلي وأعيانُ طرابلس ، وكـان وصولـه الى الحضرة يوم الخميس الحـادي والعشـرين (1) من شعبان السنة 1209 (12 مارس) ، في موكـب حافل ويوم مشهود ، وتلقّته الاعيان ورجال الدولة ، وقَبِله الباي في ديوان المحكمة ، ولما قبَّل يدَه وقف في موقف وزارته ، وأقبلـت وفود التهنئة .

وبعد ذلك طلب علي باشا قرمانلي الرجوعَ لوطنه وأولاده ، فجهزه الباي حمودة باشا وهاداه ، وأركبـه البحر في مركب حربـي ببقية بنيه وآلـه ، وأركب الاعيـانَ من رجال الدولة لمشايعته ، ووصل بلاده آمنا مسرورا . هذا خبر محلة طرابلس .

وأمـا خبر جربـة فلمّا تمّ تجهيز الاسطـول التونسي ، خرج من حلـق الوادي بأربعين مركـبا ، ما بين حربية وحمولة للعسكـر والآلات والذخائر ، وأميره الحاج عـلي الجزيري ، في أربعة آلاف مقاتل ، انتخبهم الباي من أبطال الجند ، وكـان سفرهم في الرابـع عشر من ربيـع الثاني من السنة 1209 (السبت 8 نوفمبر 1794 م) ، ووصل جربة في الخامس والعشرين من الشهر .

واتفق أن وصل لجربة مركـبان ، أحدهما بالحجّـاج ، والآخر بالسلـع لتونس ، ولا علم لهما بأن جربة في تصرف قاره محمد ، عامل علي برغل ، فجعل عليهما عسّة لاخذ ما فيهما ، فخلصهما الاسطول التونسي ، وأرسلهما لصفاقس قبل ابتداء الحرب .

ونزل الحاج علي بعسكـره الى البر ، وبنى الاَتراسَ للمدافع والبونبة ، وتَتَرَّسَ قاره محمد أيضا ، ونشبت الحرب بينهما نهارا واحدا ، زال زواله بزوال عسكـر قاره محمد ،

(1) هو 20 حسب التقويم .

فانهزم وفرّ هاربا الى الساحل القبلي ، فوجد بمرساه مراكب مشحونة بالمدد من الميرة والعُدّة ، بعث بها علي برغل من طرابلس ، فركبها فارًّا بنفسه الى طرابلس .

واستولى الحاج علي الجزيري على جربة تاسع جمادى الاولى من السنة 1209 (الثلاثاء 2 ديسمبر 1794 م) ، وأرسل بخبر النصر الى الباي ، وبعث له أربعمائة جندي من عسكر طرابلس أخذهم أسرى واستبقى عليهم ، فقبلهم الباي بجزيل الإنعام ، وأثبتهم في ديوان جنده ، وترقّى بعضهم الى منصب الداي ، وغيره من المناصب .

ولما استقرّ الحاج علي بجربة ، وعلم مواطأةَ بعض أهلها لقاره محمد ، أمر العسكر بنهب سوقها وزواياها ، حتى زاوية الشيخ ابراهيم الجُمنّي رضي الله عنه ، وشدّد وطأته على أهلها .

وبعد أيام أتى العامل حميدة بن عيّاد ، ومعه جموع من فرسان الاعراض ، وعلى مقدمته مولاه أحمد قُرجي ، فوجد البلاد بيد الحاج علي ، فسرّح من معه من الفرسان ، وبقي بجربة ، والتصرف للحاج علي .

ولما وفد أهل جربة على الباي ، عاتبهم على تسليم بلادهم ، فاعتذروا بأن الامر وقع فَجأةً ، ومنازلهم متفرقة ، وشكَوْه جور العامل ، فعزله وأولى عوضه مصطفى بن حسن الكبيّر ، وعسف العمّال انذار بخروج الاعمال ، وعفا عن أهل جربة ، كما هو الواجب بعد القدرة ، وغضّ الطرفَ وتجاهلَ سياسةً ، مع علمه بأعيانٍ من أعان قاره محمد ، ونبذ النازلةَ ظهريًّا ، وتركها نسيا مَنْسيًّا .

ولما استقرّ أولاد قرمانلي بدار ملكهم ، وانتزعت جربة من يد قاره محمد ، كثُرت الاراجيفُ بأخبارٍ عن الدولة العلية ، فجمع الباي وزراءه وأعيان دولته ، وقال لهم : « بلغني أن السلطان سليم خان أنكر عدم الارسال من تونس لتهنئته بالولاية على العادة ، وانتظر ذلك سنينَ ، مع محاربتنا لعلي برغل وإخراجه من طرابلس ، والظنُّ أن فعلَه لا يصدر الا عن إذنٍ من الدولة ، وربما ترى الدولة فعلنا هذا عصيانا وخروجا من الطاعة ، ولا طاقة لنا بعواقب ذلك ، اذ لا حاميَ لنا غيرُ الدولة العثمانية ، فالرأي أن نبعث من يهنّىءُ ويعتذرُ » ، فوافقوه . ثم تكلموا فيمن يُسْتَكْفَى به في هذا الامر المهمّ ، والحالة هذه ، فقال له الوزير مصطفى خوجة : « هذا هو المستَكْفَى به ، ولا تجدُ

غيره » ، وأشار الى الوزير يوسف صاحب الطابع ، ووافقه كل من حضر ، فقال صاحب الطابع : « لم أرَ نفسي أهلاً لذلك ، وحيث ارتضيتموني فأرجو الله أن أكون كما ظننتم ، ولكن نطلب أن نُضايِقَ سيدَنا ليتوسَّع في الهديّة ، ليكونَ عِظَمُ المقدار، معينا على الاعتذار » ، فأجابه البعض وخالفه الجلّ ، ومنهم الوزير ، فانه قال : « نرى الوقوف عند ما اعتدناه » ، وكانت الهديّة المعتادةُ في ذلك العصر ، من نفائس نتائج المملكة ، كالخيل والسروج المحلاّة وسُبَحِ المَرجان والعنبر والطيب والاسلحة المرصعة بالمَرجان ، وثياب جربة والجريد ، والشواشي ، ورقيق السودان ، والطّواشية ، وغرائب وحوش الصحراء ، وأنواع التمر ، وزيتون زغوان ، والسّمن والشّمع ، وأعظمها الصّنجق المحلّى بالفضّة ، المكتوبُ في نسجه آياتٌ من القرآن ، وبعض أسماء الله ورسوله وأبيات من البردة ، ولا يصنع في غير تونس من بلدان الاسلام في ذلك العصر .

وشرع الباي في إحضار الهديّة ، وتوسّع فيها ما شاء ، مِمّا اقتضته مذاهب الحضارة، من أسلحة الذهب والتحف المرصعة بأنواع اليواقيت والجواهر ، وجمعها في بيت ، وأذِنَ لرجال دولته في الاطلاع عليها ، وأطلع عليها أهلَ المجلس الشرعي ، وبعضَ الاعيان من الحاضرة ، كأميني التجار والشوّاشيّة والعشرة (1) الكبار . ويسأل الوزيرُ من يطلع عليها ، فاذا استحسنها واستعظمها يقول له : « هدايا أمثالِنا للدولة العلية انما هو اظهار للطاعة فقط ، وقد ضايَقْنا البلاد وأجحفنا بها ، ولا يعظم أضعاف هذا عند الدولة العثمانية » .

وسافر بها الوزير يوسف صاحب الطابع في ذي القعدة من السنة 1209 (ماي — جوان 1795 م) في سفينة حربية كبيرة بصنجق دولة السويد ، لوقوع حرب بين تونس وبعض الدول ، وشقوفُهم في البحر مترصِّدةٌ لمراكب تونس . وسافر معه كاتبه الحاج بالضياف والد العبد الحقير ، وأبو النخبة مصطفى بن حمزة ، وأعيان من خواصه ، ولما وصل بوغاز القسطنطينية وجد به الاسطول العثماني ، وكان ناشرا صنجقَ تونس بأعلاه ، إشارة لمقام الراكب به ، المعبَّرَ عنه في عرف أهل البحر بالفُرْص (2) ، فأتاه زورق من قبطان باشا يأمره بازالة الصنجق ، وان لا يمُرَّ به على حالته أمام الاسطول العثماني ، فوقف صاحب الطابع وبعث مصطفى بن حمزة الى قبطان باشا يقول له : « ان هذا

---

(1) رئيس مجلس التجارة ومعه عشرة اعضاء يسمون العشرة الكبار ، ولا يجتمعون الا فى مهم (الصفوة 2 : 3)

(2) الفرص : العلم الصغير (دوزى) .

صنجق إسلامي في سفينة أجنبية ، وفي تنزيله هَضيمةٌ ، والله لا أزيلُه الاَّ بازالة رأسي ، أو أرجعُ من حيث جئت ، وأنا رسول » ، فَبَانَ أن رسول قبطان باشا لم يفهم ما أُمِرَ به ، وانما طلب نقله من محل الى آخر في السفينة خشية الالتباس ، ودخل بصنجقه في محلّه الى مرسى حاضرة الاسلام ، وكان قبطان باشا يومئذ كشك حسين باشا ، ولما أرْسَى تَلقَّته الدولة العلية بصنوف إحسانها ، وجزيل اكرامها ، على عادتها مع الوافدين من الاقاصي ، ووقعت الهدية موقعا حسنا من السلطان ورجال دولته ، وإنْ رأى حامِلُوها في خزائن الدولة ما أخجلهم عن استعظام هديتهم .

وحضر صاحب الطابع بين يدي السلطان ، وأنزلته الدولة بدار حسنة قريبة من صرايا برون ، والمباشر له كشك حسين قبطان باشا . وظهر كرم يوسف صاحب الطابع ، وعلَّق أياديَه في أعناق رجال الدولة .

ولما انفتح باب التخاطب ، قال له قبطان باشا : « يقول لكم مولانا السلطان ، اني جلست على سرير السلطنة ، وأتتني وفود التهنئة من أقاصي الاجانب ، وأنتم من المسلمين وجزء من ممالكي ، ولا حاجة لي منكم بالهدية ، وانما الحاجة في وصل حبل الاسلام الذي أمرنا الله بالاعتصام به » ، الى غير ذلك من الملام ، ثم قال : « ألم تعلموا أن أولاد قرمانلي ، أثارت أغراضهم نيران الفتن بايالة طرابلس ، وأهلكوا الحرث والنسل ، حتى فرَّ الكثير من أهلها ، وليتكم اذ أخرجتم علي برغل ، جعلتم فيها أمير جيشكم ، حتى لا تكونوا أزلتم فسادا بفساد » .

فقال له صاحب الطابع : « ملام السلطان مسموع ومقبول ، ونطلب من فضله العفو والصفح والرضى ، لكنّه لو اطلع على كُنْهِ السبب ، نقل الملام لوزرائه ، أما سمعتم حربَنا مع الفَنِسْيان ، وانتقالَ اسطوله من ثغر الى ثغر ؟ أما تعلمون ضعف هذا الثغر الاسلامي عن مقاومة الحروب الاجنبية ؟ هلاَّ وصلتم حبل الاسلام باعانتنا ولو بالاعتذار عنّا لمولانا السلطان ، وبيان سبب التأخر الواضح للعيان ؟ وأما علي برغل فاننا لم نبدأه بحرب حتى فاجأنا بها ، وتعدّى على بلادنا ، واستولى على جزيرة جربة ، ومع ذلك فلنا أن ننجد علي باشا قرمانلي على عادة الاوجاق ، فان الحروب بين تونس والجزائر بمرأى منكم ومسمع » ، الى غير ذلك ... « وأما ولاية أمير الجيش الذي توجّه لطرابلس ، فأراه

لا يرضى بولايتها ، ولو فعلنا ذلك ، ربما يقال ان المراد توسعة مملكة تونس بزيادة وطن ، والباي انما دافع عن ولايته ، وأنجد من استنجده » .

وطلب من قبطان باشا أن يبلغ ألفاظه للحضرة العلية السلطانية ، فقال له : « نبلغ ما يناسب إبلاغُه » ، فألحّ عليه بأن يبلغ مقالته كما سمعها ، فقال له : « سبحان الله ، كيف أبلغ شكايةً من رجالٍ أنا أحدُهم ، بل أنا أولى منهم بالملام ؟ » وكان قبطان باشا اذ ذاك هو الذي يتولّى مباشرةَ رُسُلِ الاوجاق ، فقال له : « أمانتكم تقتضي ذلك » .

وبعد أيام اجتمع به ، وقال له : « بلغت مقالتك لمولانا السلطان ، وهو يقول لكم : « عفا الله عما سلف ، وانما المراد وُصلةُ اللُّحمة الدينية ، وحمّودة باشا لم يكن عندنا بموضع تهمة ، ولو طلبتم الاعانة أعنّاكم » ، فعند ذلك طلب من الدولة الفرمان السلطاني ، ولباس الولاية لاحمد باشا قرمانلي وأخيه يوسف ، فوقعت الاجابة من غير توقف.

ولما حضر ذلك توجه به رسول الدولة الى طرابلس ، ومعه مصطفى بن حمزة والحاج بالضياف الكاتب ، وبعد وصولهم لطرابلس ، أتى الحاج بالضياف لتونس برسالة من صاحب الطابع للباي ، وكان عند سفره من اسلامبول أصحبه سفيرُ الدولة الانكليزية كتابا للقنصل بتونس ، ولما قرر للباي ، بمحضر الوزير مصطفى خوجة ورجال الدولة ، ما وقع لهم من الاكرام والقبول الحسن ، وما وقع بين صاحب الطابع والوزراء من الكلام والجدال ، استراب الوزيرُ الخبرَ ، وحمله على المبالغة في مدح صاحبه ، فقال له : « هل أتت مكاتيب من التجار لتونس ؟ » فقال له : « لا أدري ، غير أن سفير دولة الانقليز أصحبني مكتوبا للقنصل بتونس ، وأعجلني القدومُ الى باردو عن إرساله ، وهذا هو » ، فأخذه الوزير ، وبعث به فورا لدار القنصل ، وكانت بينهما صحبة .

ومن الغد حضر الشيخ بالضياف بين يدي الباي بمحضر رجال الدولة ، فأمره الباي باعادة الخبر ، فأعاده ، ولما استتمّه قال له الوزير : « قد استرَبْتُكَ بالامس ، وفي مكتوب القنصل ما يؤيد خبرك وزيادة » ، وسافر بعد يومين لطرابلس بمكاتيب التهنئة من الباي لاولاد قرمانلي ، وأقام بها يوما وليلة ، وسافر لاسلامبول ، فاجتمع بصاحبه وأخبره بانتظار الباي لقدومه .

ولما تهيأ له القدوم أمر السلطان باحضاره لديه وقال له : « سلّم على الباشا » ، ودعا له وقال له : « قد أمرنا قبطان باشا باعطاء مَدَد من الترسخانة لتونس ، فاقْبَله واحملْه معك » ، فشكر ودعا . وهو كرويطة حربية معمرة بجميع لوازمها ، وسميت « الاسلامبولية » ، دامت مدة وانكسرت مع ما انكسر من السفن سنة 1236 ، ست وثلاثين ومائتين وألف (1820 م) ، واثنا عشر مدفعا من النحاس ، وجانب وافر من الخشب لصنع المراكب ، وألفا قنطار من البارود ، وجانب من الكُور والقَلُوع والحبال ، وغير ذلك من آلات السفن .

ووصل صاحب الطابع للحاضرة أوائل سنة 1210 ، عشر ومائتين وألف (1795 م) ، ناجحَ المسعى ، مشكورَ الوجهة ، ومعه مراكب تحمل المدد الذي أتى به ، وناول سيده دفترَ المدد المذكور ، فكان أضعافَ قيمة الهدية . وسمعت من والدي كاتبِه أنه أنفق في هذه الوجهة سائر كسبه المنقولِ ورجع مدينا ، لما فيه من كرم النفس وعلو الهمة .

⁂

وفي السنة 1210 عصى رجل من سَراة أولاد مساهل من ماجر ، اسمه حامد بن شريفة من أولاد الفرجاني ، واعصَوْصَب بأولاد مساهل ، وكانوا زُهاءَ ألفِ بيت ، ولاذ به من يطلب الرزق بسيفه وسِنَانِه ، وأفسد الزرع ، وأخذ الماشية ، وعطل الطرق ، وعاذ به كل من فيه إباءَة من ضيم الجباية ، فتغافل عنه الباي ، وأعمل الحيلة في القبض عليه بغير حرب ، خشية هروبه ، كما هو الشأن في أمثاله ، فدبّر في ذلك مع الكاهية رجب بو نمرة ، وكان من ثقاته وأعيان رجاله ، وتمت له الحيلة وهو بالمحلّة ، فتقبّض عليه ، وأركبه الادهم ، وطيّر به ليلا الى سجن باردو ، وأوصى الموكّلين به ، اذا لحقهم جمع من قومه ، أن يقتلوه ، وقدم في أثره ، ولما وقف بين يدي الباي قال له : « يا سيدي عريبي من أجلاف البادية جنّ وأتى به سعدك وهو الآن في محبس باردو » ، فقال له : « لعله حامد ؟ » فقال : « نعم » ، وأومأ الى الشفاعة ، فقال له : « لا شفاعة في مثله » ، فقبل رِجْلَه وقال له : « ان الرجل ينسب الى شرف ، وأعيذ سيفك أن يتلوّث بدم شريف » ، فعفا عنه من القتل وسجنه ، وأعمل في غزو قومه ، فجرّد لهم خمسمائة فارس اختارهم ، وخرج بهم سليمان كاهية ، وهو يومئذ آغة باجة ، بعد أن فرّق فيهم البارود والرصاص ،

وملأ مخلاةً كل واحد بالشعير والبشماط ، ولا علم لاحد من الفرسان بالوجهة ، فطوى الارض ، وأحيا الليل ، وصبّح ناجعة أولاد مساهل ، فأخذهم في مضاجع خيامهم ، ومات من مات منهم ، وامتلأت أيدي السّريّة من نهبهم ، واستاق ما لهم من الظهر والانعام ، وأتى باعيانهم فاعتقلهم مع صاحبهم حامد سنين ، ثم سرّحهم على ان ينزلوا ضواحي القيروان والحاضرة ، وانكسرت شوكتهم ، وزالت وطأتهم ، وخاف أمثالهم ، وتمهدت العافية بتلك الجهة .

⁂

وفي السابع عشر من رجب سنة 1213 ، ثلاث عشرة ومائتين وألف (الثلاثاء 25 ديسمبر 1798 م) ، وقع انتقاض الصلح بين الفرنسيس وتونس ، وسببه ان الفرنسيس لما أخذ مصر في محرم السنة 1213 (جويلية 1798) من أيدي المماليك المتغلبين عليها المعروفين بالغُزّ ، وكانت مناخ الحاجّ لقربها من الحرمين الشريفين ، كاتبت الدولة العثمانية سائرَ ممالكها في ذلك ، خوفا على بيت الله وحرم رسوله ، بعد أن نقضت الصلح معه ، ومنهم حمودة باشا ، فأجابت الدولة بما حاصله « ان الخلطة بين أهل تونس والفرنسيس في المتاجر كثيرة جدا ، لا يمكن فصلها الا بعد زمن يطول ، والقادم منهم لبلادنا انما قدم بأمان صلح لا يخفى . وندخل فيما دخل فيه المسلمون من الحرب معهم ، غير أننا لا نأخذ مراكبهم المتجرية في هذا البحر ، لان ما بها من المتاع غالبه لاهل تونس » ، وكانت مُشْرِيّة يومئذ ، فصارت شقوف التوانسة اذا لاقت شقوفَ متجر الفرنسيس ، لا تتعرّض لها بوجه ، حتى صار بعض مراكب المحاربين لتونس ، اذا التقوا بمركب تونسي أظهروا صنجق الفرنسيس .

ولما انتقض الصلح ، بعث الباي لازالة علامته وزيرَه مصطفى خوجة ، فأتى بنفسه لدار الفرنسيس وأزال عود الصنجق ، وقال الباي للقنصل : « ان أردت الاقامة بتونس فأنت على احترامك الانساني ، كآحاد الفرنسيس ، ولا تعتَبِرْ خُطّتَك لارتباطها بالصلح ، وقد ظهر انتقاضه ، وان شئت السفر فلك ذلك ، ورعايا الفرنسيس في أمان الصلح الذي دخلوا به ، وأنا الحامي لإتمام عهدته ، حتى يجمعوا أموالهم ويستوفوا ما لهم وما عليهم من أسباب متاجرهم » . وتوجهت عنايته بهم في سائر أحوالهم ، وقوّى لاجل

ذلك حراسة باب البحر ، خرفا عليهم من عدوان الجاهلين ، حتى قال بعض عقلائهم : « نحن الآن بدون قنصل خير منا بوجود قنصل » . ومن يريد السفر منهم يسافر بأمواله ، في أمانه .

وتحرَّج وزراء الدولة العثمانية من هذه المعاملة ، وصار بعض ألاعيان من مراكبها ، يلمز رؤساء مراكب التوانسة بمواطأة الفرنسيس .

وكان هذا الباي يقول علَنا : « ان القوم دخلوا بلادنا بأمان صلح ، وللصلحيِّ ما شرط ، ولم نر منهم الآن — والحالة هذه — ما يقتضي نقضَه ، وان اقتضت شريعة الاسلام غيرَ هذا فلا نخالفه » .

واستمر الحال هكذا الى أن خرج الفرنسيس من مصر ، بحرب اعتضدت فيها الدولة العلية العثمانية بالدولة الانقليزية ، فوقع الصلح ، ونصبت علامته بدار القنصل ، يوم الخميس التاسع والعشرين من شوال سنة 1216 ، ست عشرة ومائتين وألف (4 مارس 1802 م) ، في يوم حافل حضره أعيان من رجال الدولة التونسية بدار الفرنسيس .

ويقال ان نبليون الاول ، سلطان الفرنسيس ، يذكر هذا ويعدُّه من جميل صنع هذا الباي ، وكانت بينهما مهاداة ووُصلة ، وكان يعرف ما للسلطان نبليون من المآثر والحزم والشجاعة ، ويقول في مجالسه : « ليت للمسلمين سلطانا في شجاعة نبليون وأوصافه » . سمعنا ذلك عن غير واحد من رجال دولته .

***

وفي هذه السنة 1213 جهز القبطان محمد رايس للغزو في ثلاثة مراكب ، فهجم على جزيرة سنبيرة الراجعة يومئذ لسردانيا ، وأنزل عساكره للبر ، وقبض من سكانها على زهاء ألف نسمة ، وأتى بهم أسرى ، ففرَّق منهم الباي جمعا على رجال دولته ، واستعمل القادرَ منهم في أبنية حلق الوادي ، وبناء قصره بمنّوبة . ومن هذا السبي أمُّ المشير أبي العباس أحمد باي ، أتِـيَ بها صغيرةً في حجر أمها .

وفي التاسع عشر من ربيع الثاني سنة 1214 ، أربع عشرة ومائتين وألف (الجمعة 20 سبتمبر 1799 م.) ، أمر بقتل حسن باي ، بن اسماعيل بن يونس باي . وخبره أنه لما

توفي أبوه بالجزائر ، بعد أن شرده الباشا علي باي من جبل وسلات ، كما تقدم ، خشي حمّودة باشا قدومه الى المملكة ، وأن يتخذه أهل الفساد ذريعة لايقاد نار فتنة من رمادها ، فدسّ له من تحيّل على الاتيان به ، وهما محمد النوري البوبكري باش شاوش وجق الصبايحية التوانسة ، وأحمد الوسلاتي السايس ، باعانةٍ ومواطأةٍ من الحاج محمد البرادعي وكيل الجزائر بتونس ، ولما وصل أكرمه وعيّن له علوا يسكنه بالبرج ، وصار يركب معه كأقاربه ، وعيونه مع ذلك ترقبه ، وكانت أمه من بنات أحد الاعيان بالجزائر ، يكاتبها وتكاتبه ، ثم عثر على مكتوب منه لبعض الاعيان بالجزائر ، فأغضى له عنها واحتفظها ، وكان لهذا الشاب إقدامٌ وجُرأةٌ ، فأتاه يوما محمد بن مهنية ، أحد أحفاد بنت علي باشا ، وكان مُسِنًّا وجيها ، يلي المناصبَ النبيهةَ في الدولة كالقمرق ، وكلمه في رَيْع حبسهم بما أغضبه ، فلطمه وشتمه ، فدخل ديوانَ الباي بالمحكمة باكيا شاكيا مكشوفَ الرأس ، فبدرت منه بادرةُ غضب أثارها ما احتفظه عليه من المكاتيب ، وأمر بخنقه في الحين ، فخُنِق بمحله على حين غفلة ، ودفن بتربة جدّه ، فاحترقت أمّه ولاذت بصاحب الجزائر ، وتحقق مُداخلةَ وكيله الحاج محمد البرادعي في التحيّل على قدومه لتونس ، فتنكّر له ، وبعث يأمره بالقدوم اليه بالجزائر ، فارتاع وأيقن بالهلاك ، وامتنع من التوجه للجزائر ، ولاذ بمقام الولي سيدي أبي سعيد الباجي رضي الله عنه ، وألحّ صاحب الجزائر على الباي في إشخاصِه اليه ، فأجابه بتعذُّر اخراجه من حرم الولي ، وتوقّع الحربَ ولم يكن مستعدًّا لها يومئذ ، فبعث له من اغتاله في مهربه ، وهو الحاج أحمد بن عمار باش حانبه ، ومعه الحاج علي الفرجاوي الاُضَه‌ْ بَاشِي ، وباتا عنده ، وقتلاه بكيفية لا يظهر أثرها في البدن كلّ الظهور ، ولم يخف ذلك على الناس ، وأشاعا أنه مات فجأة ، وسمعنا ذلك من الحاج أحمد باش حانبه ، بعد موت هذا الباي بسنين .

وفي شوال من السنة 1214 (مارس 1800 م) أمر بازالة الدكاكين من الاسواق أمام أبواب الحوانيت ، وذلك أن أربابها اتخذوا جانبا من الطريق العامة ، وبنوا به دكاكين أمام حوانيتهم ، للانتفاع بها ، في وضع السلع وجلوس المشتري . وضاقت الاسواق على المارّين ، وهو من الغصب العام ، وثقل ذلك على غير المنصف منهم ، وتعنّتوا بدعوى الحوز ، ولاذوا بالمفتين ، فأجيبوا بأن الضرر لا حوز فيه ، وكلما طالت مدته كثر ذنبه ، وأن فعلهم من التعدي على حق العامّة . وأمَرَ أن كل من يتأخر عن ازالة دكانه يهدم عليه غصبا ، ويلزمه أجر الهادم ، واخراج المهدوم من السوق .

وفي الخامس والعشرين من محرم سنة 1215 ، خمس عشرة ومائتين وألف ، (الاربعاء 18 جوان 1800 م) ، توفي ابن الباي حمودة باشا المتقدم ذكر ولادته ، واسمه محمد ، وهو طفل لم يبلغ الحلم ، وتأسف على فقده ، واشتد حزنه ، وامتنع من الطعام ، وخاف عليه رجال دولته ، وكان محببا لهم ، بل وللرعية ، فبعث وزيرُه أبو المحاسن يوسف صاحب الطابع لعالم العصر وشيخ الشيوخ أبي الفلاح صالح الكوّاش ، وكان بليغ العبارة ، حاضر الجواب ، لا يبالي ، وطلب منه وعظ الباي وتسليتَه ، وأدخله اليه . ولما دخل استرجع وقال له : « سَلِّم لحكم الله ، فما بك ابْتَدَا ، ولا عليك اعتدى ، فان صبرت فحبّذا ، والا فانطح ذا وزِدْ ذا » وأشار الى الحائط ، ثم قال له : « هل أنت على يقين بأن هذا الطفل لو عاش يكون فيه ما تؤمّله ؟ » فقال : « لا » ، فقال : « وما يدريك أن الله أكرمك بموته ؟ وفي الحديث الشريف : ما من مصيبة الا وعند الله أعظم منها » ، فنشط في الحين من عِقال حُزنه ، واسترجع واستغفر الله تعالى وطلب الطعام . سمعت هذه الحكاية من والدي ، وهو الرسول للشيخ .

وفي السنة 1215 ، بعد موت ابنه ، مرض بالحمّى ، وبقي خمسة عشر يوما في بُحرْانها مغمّى عليه ، فجمع الوزيرُ رجالَ الدولة ، وأخذ ختْمَه ، وجعله في صندوقٍ مفتاحُه عنده ، وجعل الصندوقَ في صندوقٍ آخر مفتاحُه عند الوزير أبي عبد الله محمد الاصرم باش كاتب ، وجعلهما في خزانةٍ مفتاحُها بيد الوزير أبي المحاسن يوسف صاحب الطابع ، وصاروا يجتمعون كل يوم لمباشرة ما يرد من الامور ، وما يتّفق عليه رأيهم يكتبونه باسم الباي ويختمونه بختمه ، ويقيّدونه بدفتر بمحضر الحاج أحمد بن عمّار باش حانبه ، وبقية رجال الدولة .

ولما عوفي عرضوا عليه جميع ما وقع في مرضه ، فاستحسنه وشكرهم ، بحيث لم يتعطّل شيء من أمور المملكة .

وفي أيامه انتقض الصلح مع دولة الدانمرك ، وأزيلت علامته من دار القنصل ، خامس صفر السنة 1215 (السبت 28 جوان 1800 م) ، وأخذ في إحضار الشقوف والاستعداد ، ولم تطل مدة ذلك ، وتوسط الوزير يوسف صاحب الطابع في أسباب الصلح لِمَا يعلم من عزم الباي على حرب الجزائر ، وهو الاهمّ وقتئذ ، وانعقد الصلح في جمادى الثانية من سنة 1216 ، ست عشرة ومائتين وألف (اكتوبر — نوفمبر 1801 م) .

وتوفي الوزير مصطفى خوجة عصر يوم الجمعة الثاني والعشرين (1) من جمادى الاولى سنة 1215 ، خمس عشرة ومائتين وألف (10 اكتوبر 1800 م) ، ودفن بتربته في الحاضرة ، وحزن الباي لموته .

وفي سادس صفر من سنة 1216 ، ست عشرة ومائتين وألف (الاحد 29 جوان 1801 م) ، وقع حريق في خزنة السلاح بباردو ، وسرى اللهيب ، وتعسر إطفاؤه بسرعة ، ووقع الخوف من وصوله الى خزائن البارود ، فخرج الباي بحرمه وآله ليلا الى منُّوبة راجلين، ورجع لمعالجة إطفاء النار ، ولم يكن لاهل المغرب استعداد بآلات اطفاء النار ، لندور ذلك فيه ، ودام الحريق نيّفا وعشرين ساعة ، ولطف الله باطفائها ، فرجع آله الى باردو .

وفي سنة 1217 ، سبع عشرة ومائتين وألف (1802 م.) ، أمر بتجديد سور بنزرت ، لما وقع فيه من خراب المدافع والبونبة المتقدم ذكره ، وتم في أقرب زمان .

وفي السنة 1217 أبطل ما كان يُعمَل ليلة عاشوراء المعروف بقعيد (2) العاشوراء ، وهو أن بعض الرَّعاع من العامة يحملون شبه رأس انسان ويدورون به في الازقة والحارات بمشاعل وهم يصرخون (3) المكاحل والمحرقات تكسّبا ، فأفتى بعض العلماء بأن هذا من فعل الشيعة من أهل البدع ، يتذكرون به مصرع سيدنا الحسين رضي الله عنه بكربلاء في عاشوراء ، وقد كان ذلك في دولة بني عبيد من أبناء علي وفاطمة رضي الله عنهما . وليته أفتى بابطال ما هو أقبح من هذه البدعة في بيوت الله تعالى ، ولله درٌّ بعض الادباء في حسن تعليله سُنّة الاكتحال في عاشوراء :

ولائمٍ لام في اكتحال ... لمّا أراقوا دم الحسين
فقلت دعني ، أحقُّ شيءٍ ... فيه بلبس السواد عيني

وفي الثامن والعشرين من ذي القعدة سنة 1219 ، تسع عشرة ومائتين وألف (الخميس 28 فيفري 1805 م) ، ظهر من الداي ابراهيم بوشناق عنف وشدة مع أصحاب المروءات من أهل البلاد ، فضَرب بعضَ أعيان الشوّاشية من أولاد غربال ، وذلك أنه حنق على

I) هو 2I حسب التقويم .

(2) كذا فى خ و ق وفى ع : بعيد العاشوراء .

(3) يطلقون ((انظر Lacoux)

أحدٍ من صنّاعه المأجُورين فشتمه وضربه ، ظنّا منه أنه له أن يفعل ذلك مع صنّاعه ولا حرجَ ، فاشتكى المضروبُ للداي ، فأحضر الضاربَ ورام الصلحَ بينهما ، فقال له الضارب بعنف : « احكم ، احكم » ، يعني في المشتكي ، « والا فالبلاد فيها مولاها »، فقال له الداي : « حيث طلبت الحكم ، فالحكم ان من اعتدى بالضرب يضرب » ، وأمر بضربه بين يديه ، وشدّد عليه ، بحيث كان على قدر الغضب ، لا على قدر الذنب، ولما بلغ الباي َ ذلك ، مع شيء في نفسه عليه ، عزله وأولى عوضه الداي محمد قاره برنلي ، وكان ليّن العريكة عارفا بمنازل الناس .

وتوفي العالم الفقيه أبو محمد حمّودة باكير ، امام هذا الباي وشيخه وامام أبيه ، فوجد عليه كما وجد على والده ، ومشى في جنازته راجلا باكيا ، من داره بتونس الى مدفنه ، وعُدّ له من الوفاء .

الخبر عن الحرب بين الجزائر وتونس واسبابها

قد تقدم التجاء محمد باي وأخيه علي باي الى الجزائر ، بعد مقتل والدهما ، واقامتهم بها المدةَ الطويلة ، واستعانتُهم بملوكها وعساكرها حتى ردّهم الله لوطنهم ، ولذلك صار للجزائر إدْلاء (1) آل الى تغلّب ، لما عندهم من الزّبون (2) على أولاد الباي حسين . وكان الباشا علي باي يعاني من مداراة ولاة الجزائر وقسنطينة ، ويتجرع من مرارة مَنّهم وتغلّبهم وتعلّلهم ، ما يستفزّ غضب الحليم ، ولا تحتمله النفوس الانسانية ، لا سيما وعندهم يونس باي الطالب لثأر أبيه ، وله في هذا الوطن صاغية من آذان أهل الفساد ، كما تقدم من انقسام المملكة يومئذ الى باشية وحسينية .

ولما توفي علي باي واستقلّ ابنه الباي أبو محمد حمودة باشا ، أرادوا ابتداء الامر معه من حيث انتهى أبوه ، ولم يكن من أخلاقه احتمال الضيم . ومن وزراء أبيه من يسلّيه ويهوّن عليه الاحتمالَ في حقير الامور ، وما درى ان الحقير يَعْظُم ، والصغير يكبر .

---

(1) لعله يريد : ادلال .

(2) تكرر ورود هذه اللفظة في ابن خلدون وتاريخ ابن ابى الضياف وغيرهما من تواريخ المغرب ، واللفظة سريانية ، وكأن المراد بها هنا نوع من المساومة ووسائل الضغط ، او نوع من الـ (Chantage)، وانظر دوزى مادة (ز ب ن)

فعزم على حربهم ، وأعمل الحيلة في جلب حسن بن اسماعيل بن يونس باي ، وقتَلَه كما تقدم ، بعد أن التفت الى تحصين البلاد ، بازالة ما يُتَوقّع منه كَمينُ الضرر كالاوساخ المطروحة على شاطىء البحيرة ، حتى صارت ربوةً يتقي بها المحارب ويقاتل عليها ، فأمر بازالتها في محرم من سنة 1216 ، ست عشرة ومائتين وألف (ماي — جوان 1800 م) ، ووزع مصروف ذلك على مالكي أبنية البلاد ، ومنهم أبنيته . ثم شرع في بناء السور يوم الاحد رابع (1) ربيع الاول سنة 1217 ، سبع عشرة ومائتين وألف (4جويلية 1802 م) ، وابتدأه ببرج باب الخضراء والبرج الملاصق به ، ويعرف ببرج صاحب الطابع لانه أشار به ، وعارضه الوزير أبو عبد الله محمد العربي زروق بالاستغناء عنه ، فأمره ببنائه من خاصّ ماله من أوله الى آخره ، وعمّره بالمدافع ، وجميع لوازمه من ماله أيضا . ثم برج سيدي يحيى السليماني لانه قرب زاويته وجامعه . ثم برج باب سيدي عبد السلام ، وبرج باب سعدون ، وبرج باب خالد ، ويعرف ببرج سيدي قاسم الجليزي . ورسم برج السيدة المنوبية ولم يشرع فيه . ومهما تمّ برج عمّره بمدافعه وحماته من العسكر . وكتب على أبواب الابراج تواريخها باللغة التركية ، سياسة مع جند الترك ، وهم الشوكة يومئذ . ومحصّل المكتوب ان الآمر بها هو السلطان سليم ، وان الباني هو حمودة باشا ، كما تراه على غالب أبوابها ، ولفظها شعر باللغة التركية . وكان يأتي غالب أيامه بنفسه ليرى العملة في بناء السور والابراج ، مبالغة في الحث على العمل . واستعان في ذلك بأبي عبد الله محمد العربي زروق ، وشكر مؤازرته في هذه المهمات ، وحصّن حلق الوادي وصرف له العناية بحفر البوغاز ، وبنى جوانبه ، وجعل الجابية داخل السور لحفظ المراكب الحربية ، وبنى الطُبّخانات الارضية وشحنها بمدافعها ، وبنى الترسخانه وخزائن مهمّاتها الموجودة الآن ، ولم يجد مَن بعدَه ما يزيد في حلق الوادي ، باعتبار حالة البلاد ، الا أبنية للسكنى . وأمر ببناء القشل الخمس لسكنى عسكر الترك ، وهي قشلة البشامقية ، وقشلة العطارين ، وقشلة الزنايدية ، وقشلة سوق الوزر . ووكّل على بناء كل قشلة واحدا من أعيان البلاد ، وهم الحاج محمد بوثور ، والحاج علي الشفي ، والحاج محمد المبزّع ، والحاج أحمد القسنطيني ، والحاج محمد بن الامين وخرط في سلكهم الحاج أحمد بن عمّار باش حانبه ، وكّله على بناء قشلة سيدي عامر ، قرب سوق البلاط ، فتمّت في أسرع وقت وعمّرها بالجند .

---

(1) هو 3 حسب التقويم .

وفي هذه المدة احتبس الغيث ، ووقع قَحْط شديد ، وتعسر الاتيان بالميرة لوقوع الحروب يومئذ ، فوجّه شيخنا العلامة المحقق أبا اسحاق ابراهيم الرياحي سفيرا عنه الى السلطان الشريف أبي الربيع مولانا سليمان بن مولانا محمد سلطان المغرب ، وذلك سنة 1218 ، ثمان عشرة ومائتين وألف (1803 — 1804 م) ، فسرّح له الشراء من مملكته ، وحملها في مراكب بصنجقه ، وأكرم الشيخ ، وهادى الباي بجانب وافر من النحاس أذابه مدافع بالحفصية ، يُنيف عددها على المائة مدفع .

وكان يأتي الحفصية بنفسه أيضا ، تحريضا للعملة بها . وكانت تذكرة شاهد الحفصية ، وتذكرة أمين الترسخانة ، لهما من القوة في بيت خزنه دار مثل تذاكر الباي ، خشية التعطيل ، ولو ساعات .

ثم بعث وزيره أبا عبد الله محمد العربي زرُّوق الى الكاف في غرة ربيع الثاني من 1221 ، احدى وعشرين ومائتين وألف (الاربعاء 18 جوان 1806 م) ، فجدد قصبتها وحصونها وسورها ، وملأها بالميرة والاقوات وآلات الدفاع وخزائن البارود .

وفي هذه السنة رتب الخبز للعسكر القاطنين بالقشل ، وقد كانوا يأكلون من مرتبهم وكَدّهم في الحِرَف ، وألزم بذلك سائر الناس من الزوايا وغيرهم ، لدفع أعشار حبوبهم بالرابطة ، ولم يستثن الا أهل المجلس الشرعي فقط .

وضرب صفحا عن السّرف ونعيم الحضارة ، وعوّد نفسه تحمُّل المشاقّ ، ومناعة الحرّ والقرّ ، ما بين الابراج والسور وحلق الوادي . وكان يركب الى بستانه بالمرناقية ويرجع على سرجه . ولم يرخص للمخازنية في ركوب البغال ، أحْرَى ما يُجَرُّ بالعجلات المسمى بالشَرْيُول ، ولم يرخص فيه الا لافراد عواجز من غير أهل الدفاع ، كالكاتب أبي عبد الله محمد شرف الدين ، والتاجر الوجيه الحاج يونس بن يونس الجربي ، وأمين التجار أبي عبد الله محمد العروسي ونحوهم . اما الكرُّوسة التى تجرُّ بأربع عجلات فهي من شعار منصبه ، لا يركبها غيره وقتئذ ، ومع ذلك لا يركبها ، ويقول هي للنساء .

ومالت الناس في أيامه الى أخلاق البداوة والشدة والمدافعة ، وأنِفوا من أخلاق الحضارة حتى في ملابسهم .

ولمّا أحس من قوّته القدرة على دفع الضيم ، صار يتعلل على أهل الجزائر ، وأخذ في ازالة ما اعتادوه من التعدي ، الذي منه أن صاحب الجزائر أو قسنطينة يشتري الانعام ويبعثها الى البيع بتونس بثمن يلوّح بالاشارة اليه ، فتَتُعطّل أهل البلاد عن بيع أنعامهم حتى يباع ما أتى من الجزائر أو قسنطينة ، والذي يموت من تلك الانعام في الطريق تدّعي رُعاتُه أنه سرق منهم في أرض تونس ، فيُزاد ثمنُه على الثمن المطلوب .

ومنه أن أهل الجزائر يطلبون مؤاخذة القريب بقريبه ، ويدعون السرقة والنهب على أهل المملكة ، ويطلبون عقوبتهم بمجرد الدعوى .

وكانت رسلهم تنزل بباردو وبدار الضيوف بتونس ، ويلاقي المأمورون بهم من شدة التعسف والعنف ما يستفز طبع الحليم . وحمودة باشا في خلال ذلك يتجرع الغُصَص ويجرّعها لرعيته ، واذا اشتكت العربان من عسف الجزيريين يقول لهم : « لم أجد من أتحزم به منكم على دفع هذا الضيم » ، فتنفعل نفوسهم ، حتى توغّرت صدورهم ، واشتَمَلوا على بغض الجزيريين . والظالم مبغوض بالطبع ، والله لا يحب الظالمين .

وفي أثناء ذلك وفد الحاج مصطفى أنقليز ، باي قسنطينة ، طريدا بعد عزله ، ومعه ابنه علي ، فأحسن الباي قبوله ، وأكرم نزله ، وأعطاه بستانا بمنوبة ، ووعده الاعادة لولايته ؛ فغاظ ذلك صاحبَ الجزائر ، فتعلّل بارسال عدد من البقر يطلب بيعه بتونس ، وعيّن الثمن في كتابه ، بصيغة صريحة في الإمرة ، على غير الاسلوب الذي اعتيد منهم ، من لطف الخطاب ، وتلوين الامرة بمقتضيات المحبة ، فأنِف لذلك وامتلأ حَوْضُه ، وضعف تجلّده ، وجمع رجال دولته وكلمهم في هذا الامر ، فقال له وزيره رئيس الكتبة أبو عبد الله محمد الاصرم : « نساعد أحوالنا ولا نقطع سياستنا ، فانها أحسن من حرب » ، فقال له الوزير يوسف صاحب الطابع : « عظُم الامر واتسع الخرق ، والمساعدة هي [التي] أوصلتنا لهذه الدرجة من المعرّة ، فان سيدنا سمسار لصاحب الجزائر ، وليته وقف عند السمسرة ، بل هو محكوم عليه بأداء مال معيّن ، ودفعهُ بظلم رعيته كدفعه من خزانته » ، فأجابه الشيخ رئيس الكتاب بقوله : « أي شيء يفعل سيدنا ؟ أترى أن يخاطر برأسه ؟ » فقال له صاحب الطابع : « سيدنا لا يخاطر برأسه ، وأنا لا أخاطر برأسي ، وأنت لا تخاطر برأسك ، ونكون آلة ظلم الجزائر لاهل تونس ، ولا يخفاك أن الظلم من أقوى الاسباب على الجرأة ، فنخشى أن الرعية تنظر لنفسها حاميا يقيها ، ووجوه النظر كثيرة ،

منها أن تسلم نفسها لصاحب الجزائر ، واذا انتظمت في سلك رعيته ، كان لها ما لهم ، وعليها ما عليهم ، فانظر لنفسك وبنيك أيها الشيخ ، وأما أنا وأمثالي فلي قدرة على حمل مكحلة أكون بها كواحد من الجند ، وليس ورائي من يثقّل ظهري » .

وانفض الجمع على غير طائل لوقوع الكلام فيه بالحماسة من الجانبين . سمعت ذلك من والدي ، ومن الوزير أبي الربيع سليمان كاهية الثاني ، وقد حضرا الموطن .

ثم استشار رجال دولته أفذاذا على اختلاف طبقاتهم ، وأجمع أمرهم على ترجيع الحاج مصطفى أنقليز لمحل ولايته قسنطينة ، وأمر شيخ المدينة أن يأتي الشيخ القاضي ليعيّن عدلين للشهادة على بيع ذلك البقر بالسوق ، وأن لا يمنع أحدا من بيع بقره في خلال المدة ، وأمر العدلين بدفع الثمن لمن أتى بالبقر ، فامتنع ، فقال له الباي : « احمل الثمن ، وأنا أكتب لك مقداره ، وان أبَيْتَ فانه يبقى أمانة على نظر الشيخ القاضي » ، فقبضه ، وكتب الباي لصاحب الجزائر : « ان البقر أمرنا ببيعه على يد عدلين ، وتجمّع من ثمنه كذا ، وتولّى قبضه رسولكم بأمرنا ، وان أرسلتم بعده شيئا للبيع فليكن خطابكم في ذلك لوكيلكم ، وحالُه في ذلك كعامة أهل البلد من غير فرق ؛ وقد كنا نرى أن فعلنا معكم سابقا انما هو ثمرة محبة ، وحيث رأيتموه واجبا فلا نسلّم هذا الوجوب » .

وأعلن بالحرب ، وأخذ في إحضار موادّها من العدد والعدة .

وأمر أهل الجزائر بالرجوع لوطنهم .

وسافرت المحلة لقسنطينة يوم السبت منتصف ذي القعدة سنة 1221 ، احدى وعشرين ومائتين وألف (24 جانفي 1807 م) ، وأميرها وزيره وثقته أبو الربيع سليمان كاهية الاول ، وخرج معه الآغة أبو العباس أحمد الجزيري ، ومعه علي ابن الحاج مصطفى أنقليز ، والكاتب الفقيه أبو عبد الله محمد المسعودي . واقتصر الباي في هذه المحلة على عسكر الترك والمخازنية من الصبايحية والحوانب ، وقبيلة دريد خرجت بنسائها على عادة العرب في أسفارها ، وانتدب للسفر فرسانا من عروش ونيفة ، بعد أن ملأ خزائن الكاف بالقمح والشعير والزيت وسائر ما يلزم المحلة .

ثم أمدّه بمحلة ثانية لنظر أبي الربيع سليمان كاهية وهو يومئذ آغة وجق باجة ، ومعه الحاج مصطفى أنقليز .

ثم أمدّه بمحلة من فرسان الاعراض لنظر عامله أبي العباس حميدة بن عيّاد .

والكل في إمرة سليمان كاهية الاول ، وكان مغفّلا ، بعيدا عن الحزم ضعيفا عن حمل ثقل العهدة ، يتوقف في أقل الامور على المشورة ، وأضاع بذلك التوقف فرصا كثيرة ، مع ديانته وأمانته .

ولما وصلوا قسنطينة ، عاثوا في نهب عربانها ، وأخذوا بمخانق حصرها ، وألحوا عليها بالمدفع والبونبة حتى أشرفوا على أخذها ، فأتت لنصرتها محلة من الجزائر ، وقد ملّ القوم من طول أمد الحصار في محل واحد ، وأشدّهم مَلَلاً دريد ، فانهم يختارون الاخذ الوبيل على المُقام الطويل . سمعت من بعض أعيان المحلة أنهم تمنّوا الهزيمة ، ورأوها أخفّ عليهم من ملل المُقام بمكان واحد .

وقد كان الباي عيّن لهم مددا بأربعمائة جندي اختارهم ، وزادهم من البونبة . وقبل وصول هذا المدد وقعت مناوشة حرب بين الفريقين ، أثارتها معركة بين رِعاء من الرّعاع ، هرب فيها بعض فرسان دريد ، ففرّ الذي أمامَه ، والذي أمامه ، حتى انهزم سليمان كاهية ومن معه بالمحلة ، فلم يسعه الا الفرارُ ، حتى كأن الهزيمة وقعت بتدبير . وكان ذلك يوم الاحد الخامس والعشرين (1) من صفر سنة 1222 ، اثنتين وعشرين ومائتين وألف (3 ماي 1807 م) ، [وبقي أناس من دريد بنسائهم وأولادهم ، احتوت عليهم محلة قسنطينة وعربانها ، ولم يقدروا على التخلص منهم ، وأنزلهم باي قسنطينة أرضا تسمى الآن بحيرة دريد ، وتملكوا بها الى وقتنا هذا] (2) ، ورجعوا الى الكاف وتسللوا للحاضرة ، وكل من يصل من أعيان المحلّة يعيّره الباي ويأمر بسجنه ، وكان ممن أتى حميدة بن عياد أمير محلة الاعراض ، ولما وقف بين يديه عيّره وأمر أبا محمد حمودة الاصرم خوجة زواوة بايصاله الى السجن ، فحاذاه وماشاه ، فانتهره الباي وقال : « ضع يدك عليه مثل المسجونين ، وحسبه من الاحترام أن أمرتك بايصاله ، ولم نبعثه مع أحد الأُضه باشية » .

(1) هو 24 حسب التقويم .
(2) ما بين معقفين موجود بنسخة ع ، وهو ساقط من خ و ق .

ولما أتى سليمان كاهية [أميرُ] المحلة وقف بين يديه باكيا أسيفا ، فقال له : « لا أعتقد فيك خيانة ولا جبنا ، ونعلم ما أنت عليه من الغفلة ، فاضاعة الحزم — والحالة هذه — مني ، وقد خدمتَ أبي وحملتَني صغيرا على عاتقك ، والحياء يمنعني أن أفعل بك ما فعلت بأمثالك ، فالمناسب أن تستريح بمحلك على احترام ما سلف من خدمتك »، فرجع لداره وتوفي أواخر رجب السنة 1222 (أوائل اكتوبر 1807 م) .

وأولى عوضه سليمان كاهية الثاني (1) لِـمَا ثبت عنده وعند الناس من صبره وإقدامه ، وأنه يوم الهزيمة عرّض نفسه للموت مرارا فدافع عنه الاجل .

ولما سافرت هذه المحالّ لم يشكّ أحد في أخذهم قسنطينة ، وأمر الله وراء ذلك.

ولما بلغَ البايَ خبرُ الهزيمة ، قبل وصول المنهزمين ، وأن محلة الجزائر قادمة في أثرهم للحاضرة بقوتها وما ازداد لها من المدافع والخيل والابل وغير ذلك من آلات محلة تونس ، أصبح حزينا خائفا يترقب . فالتفّت عليه رجال دولته ، وأول من كلمه في ذلك أبو الثناء محمود بن بكّار الجلّولي ، قال له :

— « الغنيمة هي سلامتك ، وما مضى فات ، واستقبِلْ الامر بالحزم والثبات» .

فقال : « المحلة قادمة للحاضرة ولا بدّ من دفعها قبل الوصول ، وليس عندنا خِباء ولا ظهر » .

فقال : « عندي ما تريد من الاخبية والظهر لحملها » .

ورجع لتونس في الحين فاشترى مواد الاخبية في اليوم ، وبعث في شراء الظهر . اشترى ذلك بما طلب أربابُها ، وأحضرها له في أسرع وقت .

وبعث له حميدة بن عياد من مَحْبَسِه بأن « عندي من الخيل والبغال والابل ما ينفعك الآن » ، وبعث بها اليه . وكانت البلاد اذ ذاك في شباب عُمرانها وثروتها .

ولما حضرت المحلة ، جمع وزراءه ورجال دولته ، وكلّمهم في سفره بنفسه ، فأبوا عليه بلسان واحد ، فصمّم وقال :

— « لا بد أن أخرج بنفسي » .

(1) كلمة الثاني : ساقطة مرح ، مثبتة فى ع و ق .

فقال له رجب بونِمْرة كاهية وجق الصبايحية بالحاضرة :

— « أنت لاتملك أمر نفسك ، والمالك لامرك المصلحة للبلاد ، والمصلحة أن تكون في مركز ولايتك رِدْءا لمن تُرسله ، فاذا انهزم لا تنهزم البلاد ، بخلاف ما اذا خرجت بنفسك » .

فقال له : « من أسباب هزم المحلة توقفُ أميرها على المشورة في غالب الامور ، واذا كنتُ بالمحلة لا تتوقف حتى تضييع الفرصة » .

فقال له : « وما يمنعك أن تعطي هذا التفويض لامير المحلة ما دام بها ؟ » .

فقال : « أعطيتُ ذلك لسليمان كاهية فلم يعمل به » .

فقال له : « أنت أعلمُ منّا بحال سليمان كاهية ، والذي تفوِّض له الآن ، يعلم ما وراءه من الانتقاد » .

وأرسى الحال على تقديم الوزير يوسف صاحب الطابع للسفر بالمحلة .

وخرجت في الحين الاوامر لقدوم المزارقية والعروش والوسالتية وأهل القلعة الكبرى وغيرهم ، فقَدِموا ، وكلما أتى وفد يقول لهم : « القتال الآن في الدفع عن الحُرَم والنفس والمال ، وأردتُ السفر بنفسي ، لاكون كواحد منكم ، فمنعني هؤلاء — ويشير الى الواقفين من رجال دولته — وطلبوا أن نبقى هنا لنكون لكم رِدْءا ومُعينا ، وهذا بمنزلة نفسي — ويشير الى الوزير يوسف صاحب الطابع — فمن أطاعه فقد أطاعني ، ومن عصاه فقد عصاني ؛ هذه وصيتي اليكم » .

فيجيبونه بالسمع والطاعة والموت دونه ، الى غير ذلك مما يقتضيه الحال ، ويسرِّحهم.

وكان من الوافدين عرش شَارِن ، فقال له شيخ مُسِنٌ في أُخْرَيَات القوم : « لا تعتمدنا في حربك ، واستعدَّ للعدوِّ بمثل عُدَّته ، فان العسكر لا يقابله الا مثلُه من العسكر ، والمدفع لا يقابله الا المدفع ، وحسب العربان اتباع الهارب للنهب ، وربما هجموا اذا رَأَوْا غنيمة » .

ولما خرجوا قال لجماعته : « لم يَصْدُقْني من هؤلاء الوفود غيرُ هذا الشيخ » .

ولما دخل عليه وفد الوسالتية وقال لهم ما قال لغيرهم من التحريض على طاعة أمير المحلة ، أجابه عبد الرحمان الجلّولي وعيسى بن عمّار ، من أعيانه :

— « نطيعه ما دام في طاعتك » .

فقال لهما : « أطيعوه ولو أمركم بعصياني والخروج علي » . وكررها لهم على رؤوس الملا بالمحكمة .

وفي أقرب وقت حضرت المحلة ، وكان بين الهزيمة وعَوْدِ الكَرَّة بالمحالّ ، نحو الاربعين يوما .

فخرج الحاج أحمد بن عمار باش حانبه في مقدمة الجيش بمحلة زواوة ، في الحادي والعشرين من ربيع الاول سنة 1222 ، اثنتين وعشرين ومائتين وألف (يوم الجمعة 29 ماي 1807 م) ، وخرج الوزير أبو المحاسن يوسف صاحب الطابع خامس ربيع الثاني (الجمعة 12 جوان 1807) ، ومعه سليمان كاهية ، ومعه الحاج مصطفى أنقليز ، الذي كان باي قسنطينة ، وابنه علي .

وقبل سفره بثلاثة أيام زار مقامات الصالحين بالحاضرة ، وجبل المنار ، ومقبرة الاشراف بمرسى الجراح . وزار شيخَ الاسلام أبا عبد الله محمد بيرم الثاني ، وشيخَ الفتوى أبا عبد الله محمد المحجوب ، والداي قاره بُرْنَلي لوُصلة بينهما ، وسياسةً مع جند الترك ، وهو الذي سنّ زيارة الاولياء قبل الاسفار . وأفاض الصدقات .

وسافر معه جماعة من المشهورين بالفضل والصلاح ، كالشيخ أبي الحسن علي ابن صالح ، أحد أعيان الصالحين بالكاف ، وزاويته مشهورة به ، وأبي الحسن علي المارغني ، والشيخُ الذاكر السالك أبو المحاسن يوسف بوحجر ، وزاويته بالكاف مشهورة ، والشيخ عبد الملك الحمادي ، وغيرُهم .

وسافر معه أعيان من رؤساء البحر ، منهم عزيز رايس واسلام رايس وكشك محمد الارنروط .

وخرج أبو محمد حَمُّودة الاصرم خوجة زواوة بمحلة من زواوة أيضا في الحادي والعشرين من ربيع الثاني (الاحد 28 جوان 1807) .

وفوّض الباي للوزير يوسف صاحب الطابع ، ونَشَر عليه ألْوِيَتَه ، وأصحبه النَّوبةَ وشاوش سلام ، وأركبه من منتهى دروج البرج ، واشترط عليه بمحضر وزرائه أن لا يتوقف على مشورته ، فيما يراه من المصلحة .

وكان عدد من معه من الفرسان زُهاء أربعين ألف مقاتل ، من المخازنية والمزارقية وفرسان القبائل ، وسبعة عشر ألف راجِل من زواوة وجند الترك ، ومدافعية وطبجية ، والوسالتية وأهل القلعة الكبرى .

وتأدب سليمان كاهية بين يديه ، ووقف موقف المأمورين ، وهو مع ذلك يجلّه ، ويتَغَصّبه على الجلوس بمحضره ، ويقول لوجوه العرب وأعيان المحلة : « أنا ضيف أتيت لقضاء حاجة في هذه الوُجهة ، وهذا صاحبكم » ويشير الى سليمان كاهية ؛ ويستشيره في المهمات ، كما يستشير غيره من كبراء المحلة ووجوه العربان .

وجعل الباي يظهر للناس أثَرَ تفويضه ليوسف صاحب الطابع ، ويأمر المتظلمين برفع شكاياتهم اليه .

أتاه رجل من ضواحي منّوبة شاكيا بأن فرسه سرقت ليلا ، واتّهم بها عربانا ، فقال :

— « ارفع شكايتك الى صاحب الطابع ، فان يده خارج الحاضرة كيَدِي .

فقال له : « أخشى أن لا يسمع شكايتي ، فاكْتُبْ له بذلك » .

فقال له : « لا يحتاج الى الكتابة ، وان لم يسمع شكايتك فارجِعْ اليّ شاكيا منه » .

فخرج الرجل متعجبا ، ولَحِقَ صاحب الطابع الى الكاف ، ورفع قضيته اليه . فسأله عن موضع نُزُله ، فقال قرب منّوبة ، فقال له :

— « هلاّ اشتكيت لسيّدنا وهو قريب منك ؟ » .

فقال له : « اشتكيت وأمرني أن أرفع أمري اليك ، فقلت له أخشى أن لا يسمعني ، فقال لي ان لم يسمعك فارجع الي شاكيا منه .

ففطن لمراد الباي ، وسأله عن صفات فرسه وعمّن كان نازلا قربه ، فقال له أنفار من جلاص ، فبعث لقائدهم ومشايخهم ، — وكانوا معه بالمحلة — وبيّن لهم صفة

الفرس وأجّلهم لاحضارها بعينها ، وان لم تحضر بعد مُضِيّ الاجل يأخذ فرسا من أعزّ خيلهم ويدفعْها للرجل . وأنزله بخباء الضيوف . فجاؤوا بها من الغد ، وادّعَوْا أن رجلا من إخْوتهم وجدها شاردة ، فدفعها لربّها وأغْضَى لهم .

ورجع الرجل بفرسه ، ومرّ على الباي ، وهو بسبيل القبة الحمراء قرب باردو ، فلما رآه عرفه وبعث له ، ولما حضر بين يديه قال له :

— « قد أمرتك بالشكاية لصاحب الطابع فلم تفعل » .

فقال له : « فعلت ، وهذه فرسي ، وقد أنزلني بخباء الضيوف حتى أتاني بها » .

وبمقتضى هذا التفويض : ظهر له تخاذل من أولاد يعقوب ، فسجن فرسانهم ، وَوَسَم خيولَهم بِسِمَةَ الدولة ، ووجّه سَرِيَّة أخذت ناجعتَهم . وكاتب الباي مخبرا بعد نفوذ ما اقتضته المصلحة . وسدّ بذلك بابا كاد أن ينفتح ، وكان ذلك بموافقة أعيان المحلة .

وسار بجموعه محتفظا على ما يمرّ به من زروع المملكة وأنعامها ، وكان العامر يومئذ أكثرَ من الغامر ، حتى أنه يأمر بفساد نظام الصفّ خشية ضرر الزرع ، يشدّد النكير في ذلك ويبالغ في العقوبة على فعله .

رأى رجلا من فُرسان الصبايحية ، خلفه شيء من السُّنْبُل لعلف فرسه ، فأحضره وقال له : « ألك زرع في هذه الجهة ؟ » فقال : « لا » ، فقال : « ولم أخذت سنبل الناس ، وقد خرجنا لدفع الضرر عن أنفسهم وأموالهم ؟ » وأوقف الصفّ والصناجق ، وأوجعه ضربا بمحضره ليرى مُبْصِرٌ ويسمع واعٍ ، وأمر بسجنه . وصار فرسان المحلة يتّقون حمى الزرع ، خشية الوقوع فيه ، لما يتبعه من شديد النّكال العاجل .

وبعد أن أراح بالكاف أياما ارتحل فقطع وادي سَرّاط وصيّره وراءه .

والتقى الجمعان بمحل يعرف بسلاطة ، يوم الاثنين ثامن (1) جمادى الاولى (13 جويلية 1807 م) ، وحمي الوطيس ، وأظلم الجوّ ، وأبلى الشيخ عبد الملك الحَمادى في

(1) هو 7 حسب التقويم

ذلك اليوم البلاء الحسن ، بمرأى ومسمع من الناس ، حتى عُدَّت له كرامةً . وحمل الجزيريون على التونسيين حملة المستميت حتى أوصلوهم قرب أطناب المحلة . ورأى الوزير الهزيمة ، فقال لمن حوله : « ما التدبير ؟ » فقالوا له : « الصبر ، ولهذا اليوم ما بعده » ، فقال لهم : « بأي وجه أدخل تونس ، وبأي عين أرى حمّودة باشا ؟ الموت هنا ولا بدّ »

هذا ، وسليمان كاهية واقف بالصناجق يحرض الجند تارة ، ويهجم أخرى ، غير مكترث .

فأمر الوزير بتسريح المدافع ، فقال له الحاج مصطفى أنقليز : « ننتظر اجتماع الهاجمين ليظهر أثر المدفع في مجموعهم » ، ولما صرخ المدفع ولّوْا وتفرقوا أيدي سبَا ، حتى ان المدفع الحادي عشر لم يصب أحدا منهم . وانهزموا وكرَّت عليهم الخيل آخذةً بأعقابهم الى أوتاد محلتهم ، فدافعت عنهم مدافعُ المحلة ، وسترهم ظلام الليل ، وسكنت الحرب .

ولما رجعوا قال الوزير : « من يخرج لحراسة المحلة بالليل ؟ » لان الكاهية محمد ابن علي بن عمر جرح وقتل ابنه ، فقال سليمان كاهية — بعد ما أبلى طول نهاره — : « أنا أخرج للحراسة » ، فقال له الكاتب الحاج بالضياف ، والد العبد الحقير : « لا يمكن ذلك ، لاننا لم نتحقق حال القوم ، وربما يخرجون للقتال غدا ، فمن يخرجُ بالصناجق والعسكر ؟ » ثم قال لهم الكاتب : « أترضَوْن بخروجي ؟ » فخرج بعد نوبة العشاء في مائتي فارس من المخازنية ، وأربعمائة فارس من قومه أولاد عون ، وجعل يدور بالمحلة .

ولما عسعس الليل قَرُب من محلة الجزائر ، فلم يسمع أصوات العسّة ، فأنكر ذلك ، وجعل يقرب منها شيئا فشيئا ، فحذّره بعض من معه ، فقال له : « هل تسمع صوتا ؟ » ولما وصلها وجد كثيرَ الاخبية بلا سراج ، وليس فيها الا الجرحى ، وتحقق هروبَهم . ووصل الى وطق الآغة فوجده خاويا فارغا ، مصابيحهُ تضيء ، فنزل به وقال لمن معه — لمّا أرادوا النهب — : « لا يفوتكُم ما تريدون » . وبعث للوزير مخبرا بهروب القوم ، وطلب منه القدوم ، ليرى الوطق والاخبية ، فأجابه بأن « ليس من الحزم أن أخرج من محلتي ليلا ، خشية أن يظن الجاهل هروبنا» ، ففي الحين أسقط الوطق ، وقعد يحرسه

بنفسه ، وكان ذلك آخر الليل ، وتسامع العربان بخبر هروبهم فتنادَوْا للنهب ، واعتورت السيوفُ تلك الاخبية .

وفي الصباح استولى الوزير أبو المحاسن يوسف على أثقال المحلة من مدافع وسلاح وإبِل وغير ذلك من الآلات . واستشاره فُرسان العرب في اتباع الهاربين ، فمنعهم .

وأركب مملوكه وابن تربيته أبا عبد الله حسين خوجه بشيرا للباي ، فعظم السرور بالحاضرة ، وأعلنت بالبشارة والسرور أفواهُ المدافع من سائر أبراج الحاضرة .

واستراح الوزير بالمحلة أياما ، وسرَّح أبا محمد حمودة الاصرم بمحلته الى جبل الرَّقبة لاستيفاء جبايته ، ولَوى عِنان الاوْبة الى الحاضرة منصورا مشكورا ، فوصل يوم الخميس ثاني (1) جمادى الثانية من السنة 1222 (6 أوت 1807 م) ، وكان يوما مشهودا .

وخرج لتلقيه أهل المجلس الشرعي ، وأعيان الدولة ، ووجوه الحاضرة . وممن خرج لتلقّيه شيخ الشيوخ وعلاَّمة العصر أبو محمد حسن الشريف ، فوافاه راكبا أمام الصناجق ، فبعث اليه مع والدي بأن لا يَنزِل عن مركوبه ، اذ لا يمكن — بمقتضى العادة — أن ينزل من سار بالصناجق ، فحلف الشريف ، بمقتضى ما ورثه من خلال آله وتواضعهم صلوات الله عليهم ، أنه ينزل ولا بدّ ، وحلف على الوزير أن لا ينزل . فأوقف الصفّ واجما ، ولما وصل الشريف حلف بأن يناوله يده فقبّلها . وكان يقول : « مهما نرى سيدي حسن الشريف نتذكر ذلك الموقف ونَستَحي » .

ودخل بعده الحاج أحمد بن عمار باش حانبه بمحلته .

ولما وصل من لم يستطع الهروب من عسكر الجزائر ، خيَّرهم الباي بين الثبات في عسكر تونس ، أو الرجوع لبلادهم ، فاختار أكثرهم الرجوع الى الجزائر ، فوجههم في البحر وأكرمهم . والمراكب التي بلّغتهم ، رجعت بعسكر تونس الذين أخذوا في محلة قسنطينة ، وكان وصولهم في شعبان السنة 1222 (اكتوبر 1807 م) .

---

(1) هو غرة الشهر حسب التقويم .

وظهر بعد ذلك من الداي محمد قاره برنلي خروج عن حدّه ، ومخالفة اقتضت أن الباي وجه له الحاج أحمد بن عمار باش حانبه بسمّ ساعة (1) ، ولما سقاه ، جلس عنده حتى فاضت روحه .

وأولى عوضه الداي أحمد الباوندي في السادس من ربيع الثاني سنة 1223 ، ثلاث وعشرين ومائتين وألف (الاربعاء 1 جوان 1808 م) ، وكان وكيلا بقرنبالية .

ولما أتاه الرسول مبشرا ، استبعد ذلك وظنّه غلطا ، ولم يتحقق الولايةَ الا بعد لُبسه . وكان مُسِنّاً مغفّلا ، اذا أشكل عليه الامر في نازلة يسجن الخصمين ، وله في الحاضرة حكايات .

وفي السنة 1223 (1808 م) بلغ البايَ أن الجزيريين استجمعوا لعود الكَرّة وحرب تونس ، فجهز محلة بها مائة خباء من العسكر ، وجمع الفرسان من المخازنية والمزارقية وفرسان العروش ، وخرج بها الوزير أبو المحاسن يوسف صاحب الطابع ، ومعه سليمان كاهية ، يوم الاثنين التاسع عشر (2) من ربيع الثاني (13 جوان 1808)م ، وقطع وادي سَرّاط .

ولما تحقق الجزيريون كثرة العسكر رجعوا من الطريق .

وانتظرهم الوزير خشية أن تكون مكيدة ، حتى تحقق رجوعهم لبلادهم ، فاستأذن الباي ورجع ولم تقع حرب .

وفي الثامن والعشرين من ربيع الثاني سنة 1224 ، أربع وعشرين ومائتين وألف ، (الاثنين 12 جوان 1809 م) ، ورد البشير لتونس بولاية السلطان محمود خان ، وأتى بسيف مع الخلعة السلطانية ، فجمع البايُ الدايَ ، وأهلَ المجلس الشرعي ، وكبراءَ الديوان ، ورجالَ الدولة ، وأعيانَ البلاد ، بصحن البرج لقراءة الفرمان ولُبس شعار الولاية ، وذلك يوم الخميس غرة (3) جمادى الاولى (15 جوان 1809 م) ، وأمر بتَبَاشِير المدافع سبعة أيام ، من سائر قلاع الحاضرة صباحا ومساء .

وفي هذه السنة زاد الباي في جند الترك مائة دار ، عدد رجالها ألفان وخمسمائة ، أكثرهم من أولاد البلاد أبناء الترك ، والبقية من متطوعة الترك .

---

(1) سم ساعة : سم يقتل لساعته (اقرب الموارد) .
(2) هو 18 حسب التقويم .
(3) هو الثانى حسب التقويم .

وفي غرة رجب من سنة 1225 ، خمس وعشرين ومائتين وألف (الخميس 2 أوت 1810 م) ، توفي الولي الصالح المجذوب أبو النور عثمان بن كـرم ، ودفنه الوزير يوسف صاحب الطابع في تربته بجامعه قبل إتمامه ، وصُلِّيَ عليه بجامع الزيتونة . وكـانت جنـازتـه في يـوم مشهـود .

ثم بلـغ البايَ أن صاحب الجزائر يريد غزو تونس في البحر . فجهز أسطولا بـه أربعة عشر مركـبا حربيا ، وشحنها بالعسكـر ، وأمَّر عليها القبطان محمد رايس المُورَالي ، فخرج ليلة الثلاثاء الرابع عشر من ربيـع الثاني ، سنة 1226 ، ست وعشرين ومائتيـن وألف (7 ماي 1811 م) ، وكـان يومئذ أكـثرُ رؤساء المراكـب من الارْنَـوُوط ، فأنِفوا من تقديم محمد المُورَالي عليهم . ولما التقى بمراكـب الجزائر خذَلوه وأسلموه ، فدافع عن نفسه أسطولَ الجزائر وحده ، ومراكـبُه تنظر اليه لم يُعِـنْه أحد منهم بشـيء ، فاستمات للقتال حتى عطبت فرقاطته ، وجُـرِح ، وأسَرَه الجزيريون بفُـرْقَاطَتِـه .

ورجعت بقية الشقوف لحلق الوادي ، بعد أن أسلموا أميرَهم ليد العدوِّ ، ولما أتـوا باردو دخل قبلهم الى الباي رجلٌ شابٌّ اسمه محمد الازْمِـرْلِي — أدركـناه — من سكـان قليبية — وكـان من عسكـر المراكـب — فبكـى ، وقال : « ان هؤلاء الرؤساء كسونا معرَّةً لا تحتملها النفوس ، فسرِّحْني أرجِـعْ لبلادي » . وقص عليه الخبر ، وتحقق الباي ذلك من بقية العسكـر ، وشاهد الحال يصدِّقهم ، لان مراكـبهم أتت سالمةً كـما خرجت ، فأحضرهم وقبَّح صُنْعهم ، ونفاهم لقُرى تونس ، مرموقين بعين احتقار ومذلّة موسومين بخيانة .

⁂

وفي هذه السنة قدم سلطان المغرب مولانا سلامة ابن مولانا محمد ابن مولانا عبد الله ابن مولانا اسماعيل الشريف ، وقد بويـع بالسلطنة بعد وفاة أخيه مولانا اليزيد ، وخلَعَه أهلُ فاس ، وقدموا للسلطنة أخاه مولانا سليمان ، فخرج إثْرَ خلعه ، وجَابَ في الآفاق ، وأقام مدة بالديار المصرية ، واجتمع فيها بنبليون الاول أمير جيش الفرنسيس قبل ولايته ، ووقعت بينهما المهـاداة .

وكـان هذا الشريف منصفا ، يذكـر ما شاهده من حزم نبليون وشجاعته وثقـوب فـكـره ، وإخباره بما آل اليه حال المسلمين ، وأسبابه العقلية من الانغماس في النعيـم والتعمق في الحضارة ، واستعمال السرف في مذاهب الترف ، حتى ان أثقال أمراء الجيوش توازي أثقال الجيش أو معظمه ، والحال أن بيت هذا الامير بمصر تحتوي على فـراش منامه وموضع جلوسه ، وأمامه مائدة عليها دواة وقراطيس ، وأرائك لجلوس من يأتيه ، لا غير .

واتفق أن كـان ، يومَ قدوم هذا الشريف ، الشيخُ علي الباهـي بحلق الـوادي ، فقال للكـاهية : « عجّل بارسال الشوانـي لنزول الشريف فورا » ، فقال له : « نتوقف في ذلك على اذن خاص من الباي » ، فقال له : « أنا رسوله اليك في هذا الشان » . وأتى الشيـخ الباهـي الى الباي بباردو ، وكـان مقرّبا عنده ، فقال له : « انني افتتُّ عليك في أمر يزيدك فخرا » ، وقصَّ عليه الخبر وقال : « اشكـر الله حيث لم يـكـن الامـر بالعـكس » ، فشـكـر صنعه ، وعظّم مقدم الشريف وأكـرم نزله ، ورتّب له جـرايـة كـجراية أخيه ، وعيّن له منزلا . وبقـي بتونس معظما مـكـرما ، مرموقا بما يجب لمقامه الدينـي والدنيوي . وتزوج عقيلة من بيت الشيـخ القصري ، أولدها ذكـرا توفي صغيرا .

وكـان آية الله في الـكـرم . زاره شيخنا العلامة أبو اسحاق ابراهيم الرياحـي ، ولما أراد الخروج قال له : « لا أسرّحك في حرّ الشمس ، والزمه أن يتغدى عنده ويَقيل . ولما أراد الرجوع عشية أنشده :

ولمـا نـزلنـا في ظـلال بيوتـكـم أمِنّـا ونلنـا الخصب في زمن المَحْل
ولو لم يـَزِد احسانـكـم وجميلـكـم على البِرِّ من أهلي حَسِبتكمُ أهـلي

فقال له الشريف : « انك أتيتَ أخي ومدحته وأجازك ، وهو سلطان وأنا غريب ... » وقد كـان باصبعه خاتم ثمين نزعه من خِنصِره وناوله الشيـخَ ، فأخذه الشيـخ وضمّه الى صـدره وأنشد :

نظـرت لخـاتـم قد جـلَّ قـدرا تَحـقـقَ لـه الجـلالـة والـكـرامـه
فقلت له : شرفتَ ، وأيَّ فضـل حـويـتَ بلبس مـولانـا سلامـه

وقال له : « ان خاتمك شريف ، والشريف لا يُستَعمَل ، وقد أجازنـي أخوك في الدنيا ، وجائزتـي منك في الآخرة ، وأنتم رجال الدنيا والآخرة » ، ووضعه بين يديه ، فامتنع

الشريف من قبوله ، فقال له الشيخ : « لا تَحرمني من جائزة الآخرة فهي خير وأبقى ، والاعمال بالنيّة » ، فتركه الشيخ بين يديه وخرج .

وله في الايثار والسماحة أخبار .

ثم اعتراه في آخر عمره جذب احتقر به مقامه السلطاني ، والدنيا القليلَ متاعُها الفاني ، فكان يأخذ من الاغنياء ، ويناول الفقراء ، الى أن لبّى الى الدار الآخرة ، بهذه الحُلّة الفاخرة ، في منتصف جمادى الثانية من سنة خمسين ومائتين وألف (الاحد 19 اكتوبر 1834 م) ، ودفن بزاوية سيدي علي عزّوز بالحاضرة ، بموكب شَهِده الديوان والاعيان ، كجنائز ملوك الحاضرة ، رحمه الله .

⁂

الخبر عن ثورة الترك
بحاضرة تونس

كان للباي أبي محمد حمودة باشا شغف بجنده ، ومزيد ميل لعسكر الترك ، يؤثرهم بالاحسان والمودة والقرب ، ويرى أنهم بطانته ووقايته ، شأن الملوك مع حاميتهم . وبالغ في الالتحام بهم حتى إنه اتخذ لنفسه بيتا في قِشْلة البشامقية ، يأتيها اذا كان بتونس ويتوضأ بها مثل اختيارات (1) القِشَل . ولهؤلاء الاختيارات غِلْمان من الجند لا يقدرون على حمل السلاح ، يسمّون « أولاد القشلة » ، يخدمونهم ، ويحسن كل اختيار الى من يخدمه ويتأنق في كسوته ، وربما باهى بعضهم بعضا في ذلك . فاتخذ هذا الباي من جملتهم غلمانا يعمرون بيته في القشلة ، وأظهر في ملابسهم المحلاّة والمرصّعة ما لا يمكن لغيره من الاختيارات .

وأظهر سكان هذه القشلة الشُّفوف (2) والترفع على غيرهم من بقية الجند ، فتوغرت صدورهم ، ولا زال ذلك ينمو ، مع هو كامن في نفوس القوم ، من الميل الى كون الامر دولة في أهل العصبيات منهم ، يتلقفونه بينهم تلقّف الكرة ، مثل ولاة الجزائر

---

(1) الاختيار : صنف من رؤساء الجند في الاصطلاح التركي .
(2) الشفوف : التفوق (دوزي) .

كما تقدم ، لا سيما وقد أشرك معهم في الخدمة الجندية عددا كثيرا من أبنائهم المولودين في البلاد ، بل وغير أبنائهم ، فكان اذا رأى شابا قويّ الجسم من سواد البلاد يقول له : « أبوك تركي ومات ولم يرسم اسمك في الزمام ، وأنت لم تأت لرسم اسمك مع اخوتك هروبا من مشقة الخدمة » ، فيقول له : « يا سيدي أبي فلان وجدّي فلان » ، فتكذبه رؤساء حوانب الترك ، ويشهدون بأن أباه « أزُن محمد » أو « دالي باش » أو « كور علي » ، وغير ذلك من الالقاب التركية ، فيُعْمِل شهادتهم ، ويثبته في ديوان الجند . وهم يأنفون من أبناء اخوتهم الترك ، فضلا عن غيرهم ، ويرون ذلك تضعيفا للعصبية . فأجمع أمرهم ، لذلك ولغيره ، على الفتك به في يوم معيَّن لمَّا يقدم لتونس ، وان لم يقدم يثورون في الليل . واتفقوا مع بعض نوبات الحصون القريبة ، مثل حلق الوادي ، على الثورة في تلك الليلة . وبلغ خبر ذلك سرًّا لابي العباس أحمد الجزيري باش آغه من مملوكه ، فأودع المخبر في السجن بدار الباشا ، وأتى في الحين للوزير يوسف صاحب الطابع ، وكان بِعلُوّه في الحلفاوين قرب جامعه ، وأسرّ له بالخبر ، فأمره أن يتوجه فورا الى باردو ، ويعطّل الباي عن الركوب لتونس بما يمكنه ، بعد أن يقص عليه الخبر ويخبره « بقدومي على الاثر » . ولما وصل باردو وجد الخيل مسرجة تنتظر خروج الباي من قصره ، فدخل ، وأنكر البايُ قدومَه في غير وقت معتاد ، فقال له : « ان صاحب الطابع في أثري » ، تهويلا للامر ، ولما بلَّغَه الخبرَ جزم باستحالته ، وقال : « لا نسمع مثل هذا في جندي » ، وصمّم على الركوب لتونس ، ولا بدّ ، والقوم في الطريق يترقَّبونه فُرادى وثُناءَ ، فحلف عليه أحمد الجزيري يمينا مغلظة يلزمه فيها لازم شرعي إنْ ركب ، فغضب وأمر بردّ الخيل . وأتى يوسف صاحب الطابع فوجده مغتاظا فقال له : « هذا الخبر يحتمل الصدق والكذب ، فان كان كذبا لم يفتك ما تريده من سياسة التحبُّب لجندك ، لان الذي أتى بالخبر في سجن دار الباشا ويحصل مرادك بعقوبته ، وان كان صدقا لم يفتك الحزم ، ولا دواء لاضاعته » .

ولمَّا فات القومَ ما دبّروه من الفتك ، حيث لم يقدم تلك العشية ، ثاروا بالليل وفاء بعقدة الاتفاق . واجتمعوا ببطحاء القصبة ، ونهبوا أسواق المدينة ، وكسروا أبواب الحوانيت، وحرقوا بعضها . وطيّر شيخ المدينة ، الحاج حميدة الغمّاد ، بالخبر الى شيخ ربض باب سويقة علي مهاود ، فبعث به الى الباي من الخندق ، وكان ذلك ليلة السبت الثاني

والعشرين (1) من شعبان سنة 1226 ، ست وعشرين ومائتين وألف (11 سبتمبر 1811 م) . وثار في تلك الليلة جند حلق الوادي ، ونهبوا منزل الكاهية به ، ولاذ بالاختفاء فاراً بنفسه . وثارت نوبة الحمّامات والكاف، وكانت أخبية المحلة مضروبة بالملاّسين للسفر .

ولما تحقق الباي الخبر ، أركب الوزير يوسف صاحب الطابع الى تونس بمن حضر من عسّة المخازنية بباردو ، وأمره بجمع من بتونس من المخازنية ، وبعث لآل بيته فأتاه جميعهم ، وأخبرهم الخبر ، وانه بادر بارسال يوسف صاحب الطابع الى تونس ، فقال له ابن عمه ابو الفداء اسماعيل باي ، وكان يتكلم بغير روية ، وفي قلبه شيء على الوزير، : « الشك عندنا في هذا الذي بعثته » ، فقال له : « ان القوم ثاروا يطلبون رأسي ، والمطلوب يدافع بما يراه نافعا له ، وقد ظهر لي هذا الرأي ، فان نجح فهو المراد ، وان تحقق ظنّكم وأخذ رأسي فلا يضيع دمي وأنتم أولياؤه ، ومن يقوم مقامي يفعل ما يراه من المصلحة » ، فوجموا .

ولما خرج صاحب الطابع أتى الربض من الخندق ، وتلقاه شيخه علي مهاود ، فأذنه بكسر قفل باب الخضراء ، لان مفاتيح أبواب البلاد تبيت بالقصبة عند الآغة ، وأتى باب قرطاجنة فكسر قفله أيضا ، ودخل المدينة وأتى بطحاء رمضان باي ، ووافته فرسان المخازنية من الحاضرة — والترك في شغل بنهب الحوانيت — وجَمّع زواوة ، ولما انبلج الفجر دخل سائر الترك الى القصبة وأغلقوا بابها ، وصرخوا على البلاد ثلاثة مدافع بالكور ، اعلانا بالثورة ، فسرّ الوزير بكفّ عاديتهم عن البلاد ، وانحجارهم بالقصبة ، وليس بها من القُوت والبارود ما يكفي لحصر يومين .

وأصبحت أبواب المدينة مغلقة ، عدا باب قرطاجنة . وبعث الوزير الى الباي يبشره بأن القوم سجنوا أنفسهم بالقصبة ، وطلب منه ارسال السلاح والبارود لاهل ربض باب السويقة، فأمر وزيره أبا عبد الله محمد العربي زروق أن يتوجه لاهل ربض باب السويقة بالبارود والسلاح ، ويفرقه فيهم ، ويمكث به .

وشرع الترك من أسوار القصبة يرمون المارّين من أهل البلاد .

---

(1) يوم 22 شعبان 1226 هو يوم الاربعاء لا يوم السبت (التقويم) .

وعمّر الوزير أبراج الحاضرة والجبل الاخضر بزواوة ، ورمى القصبة بالمدافع والبونبة ، وأنكى فيها برج سيدي قاسم الجليزي ، وجعل به في اليوم بنجرا (1) جديدا داخل الباب ، ووضع به مدفعا كبيرا عظمت به النكاية على القصبة ، وهو الذي كسر صنجقها . ودام الحرب يوم السبت وصباح يوم الاحد ، وعند زواله خرج من القصبة نحو الخمسمائة رجل بسلاحهم ، اضطرّهم الجوع ونفاد البارود ، وخرج بقيتهم يتسللون .

وأسرع الوزير بالرجوع الى باردو بعد اطفاء لهيب الفتنة . وأمر الباي باتّباع الهاربين الاولين ، وأركب خلفهم كاهية وجق الصبايحية بتونس ، أبا عبد الله محمد الخماسي ، في خمسمائة فارس ، فأدركهم قرب وادي الطين ، من عمل ماطر ، فأدار بهم الخيل وقتل جميعهم صبرا ، فذهبوا كأمس الدابر ولم ينج منهم أحد ، وأخذوا سلاحهم وأسلابهم ، وتَرَكَ أشلاءهم للوحوش . والى الآن شيء من رميم عظامهم في مصرعهم المعروف .

ولم تسافر المحلة في هذه السنة ، بعد أن بقيت أخبيتها منصوبة خمسة وأربعين يوما.

وعفا عن بقية الثائرين ، وندم على ما صدر منه من تخصيص بعض الجند بزيادة العناية ، وضعف وثوقه بالترك ، وأشرك معهم زواوة في الخدمة .

⁂

وقد عانى أهل المملكة في أيامه من وطأة جند الترك ما عاناه أهل اسلامبول من الينجرية ، لمبالغته في التجاوز عن مسيئهم ، حتى كادت أن تتعطل صلاة الصبح والعشاء بالجوامع في الحاضرة ، لان بعض الفُتّاك منهم يخطفون برانس المصلّين في تلك الظلمة ، ومن دَافَعَ يَخشى ضرر النفس .

هذا ولا كأتراك الجزائر ، فان وطأتهم أفظع وأشدّ .

ولاهل حاضرتنا في ذلك حكايات مأثورة . يحكى أن أحد البلكباشية وقع بينه وبين الشيخ العالم الفقيه أبي العباس أحمد بوخريص نزاع أفضى الى تشاجر ، الى أن أغلظ البلكباشي على الشيخ في القول ، فردّ عليه الشيخ ، فأنف من ذلك واشتكى للباي ، فبعث الى الشيخ مع شيخ الربض وحضر البلكباشي ، فقال الباي للشيخ : « يجب أن يكون لاعيان الجند مقام محترم ، وهذا يسمى في الديوان بالاختيار ، من

(1) من الفارسية بمعنى نافذة ونقب .

باب التسمية بالمصدر ، ولا بد لهذه التسمية من معنى يقتضي عدم الردّ عليه ، وانهاء الشكاية به الينا » ، فقال له الشيخ : « هو اختيار وانا اختيار أيضا » ، فقال له : « وانّى لك بذلك ؟ » فقال له الشيخ « هو اختيارك وأنا اختياري ربي ، اختارني لحمل القرآن العظيم وبث العلم الشريف ، واهتدى بي عدد كثير من أمثال هذا ، الى معرفة دينهم » ، فوَبّخ البلكباشي ، وانصرف الشيخ بسلام .

وكاد الباي أن يقصر الوكالة على الجوامع والمدارس والزوايا وأمناء الصناعات على كبرائهم البلكباشية ، كأن لم يكن في البلاد أمين سواهم ، حتى أن الشاوش اذا صار اختيارا يأتيه طالبا لوكالة ونحوها . الى غير ذلك من ايثارهم ، وميله اليهم كلّ الميل .

ومن شدة عنايته بهم ، أنه في شهر رمضان تخرج منهم طائفة بالليل بمشاعل ولعب يسمّى في البلاد « غولة رمضان » ، فيأتون باردو ويبقى بابه مفتوحا الى خروجهم ، ويحسن اليهم بمال . ويأتون منازل الاعيان من أهل الحاضرة ورجال الدولة بذلك اللّعب ، ويدفع لهم رب المنزل شيئا من المال ، ظاهره احسان وهم يعتقدونه ضريبة ، فأبطلها على الناس من هذه الثورة ، وبقي يدفع ما اعتاد اعطاءه في كل رمضان ، من غير اتيان لباردو ، الى غير ذلك مما هو معروف لدى شيوخ الحاضرة .

وفي يوم الجمعة الحادي عشر (1) من جمادى الاولى سنة 1227 ، سبع وعشرين ومائتين وألف (22 ماي 1812 م) ، توفي الشيخ علي البكري المستحق امامة الجامع الاعظم بنسبه ، وترك ابنه أبا الغيث صغيرا لا نبات بعارضَيْه ، وهو كأبيه ، لا يحسن قراءة ولا معرفة بفرائض الصلاة ، وتكلم الناس في تقديمه عوض أبيه ، لان الامامة بقيت في البيت البكري أكثر من مائة سنة . وأول الايمة منهم تاج العارفين البكري ، ولي سنة 1034 (1624 م) ، أربع وثلاثين وألف ، واستمرت الامامة في بيتهم غيرَ معتبر فيها الا هذا النسبُ ، الى وفاة هذا الشيخ . فقال الباي : « لا تبقى امامة جامعنا الاعظم ملعبة بين الجهّال والاطفال ، وأقدّم من لا يتكلم في تقديمه مسلم ، وهو شيخ الشيوخ ، الجامع بين شرفي النسب والاكتساب ، أبو محمد حسن ابن الامام الشيخ عبد الكبير الشريف » ، فوجم كلّ من سمعه ، وأعطى القوس باريها ، وقدم للمحراب صاحبه ، وللمنبر فارسه .

---

(1) هو 10 حسب التقويم .

وفي الثالث عشر من رجب السنة 1227 (الخميس 23 جويلية 1812 م) ، أتـى أسطول حربي من الجزائر لمرسى حلق الوادي محاربا ، عدده تسعة عشر مركبا ، فأركب الباي وزيره أبا المحاسن يوسف صاحب الطابع الى حلق الوادي ، فأخرج لمدافعتهم الشواني ، وكانت يومئذ مائة وخمسة وسبعين ، على كل واحد منها مدفع ، ومنها ما عليه مدفعان ، وانعطبت مراكبهم ، وتعسر عليهم وصول الاثر من مدافعهم الى القلعة ، فأقلعوا بالخيبة ، وصاروا يأخذون ما قدروا عليه من مراكب التجار التوانسة .

حدثني الرئيس الكيس أبو محمد حسونة بن يوسف المورالي ، أنه لما استتمّ حملَ الرُّخام لجامع الوزير يوسف صاحب الطابع ، أعطاه الوزير المركبَ الذي حمل فيه ذلك ، فاتخذه لمعاشه ، وكان يرأسه بنفسه ، فالتقى بمركب حربي للجزائر فأخذه ، اذ لم تكن له قدرة على مدافعته ، وحَمَلَه أسيرا ، وبعث بالمركب الى الجزائر . واتفق أن الماء نفد من مركبهم الحربي ، فالتقوا بفرقاطة للمرِكان فقصدوها لطلب الماء ، ولا معرفة لهم باللغة ، وأسيرهم حسونة يحسن لغات ، فقدموه مترجما ، وهم يحرسونه ، قال لرئيس الفرقاطة بلغة الانقليز :

— « أنا في أسر هؤلاء القوم ، وقد أخذوا مركبي بما فيه وبعثوا به الى بلادهم ، وبقيت أنا وصندوقي وخديمي ، سهمَ الرئيس من الغنيمة ، وقد نفد ما عندهم من الماء ، فهم يطلبونه منكم ، وأنا أطلب من ذلك الصنجق الحريةَ » .

فعند ذلك طلب المركان طلوعَ المترجم الى مركبه ، فأبوا ، فآذَنَهم بحرب ، فما وسِعَهم الا تسليمُه ، وطلب منهم صندوقه وخديمه ، فسلموهما أيضا ، وبعد ذلك أعطاهم الماء .

ثم ان الرئيس المركان قال له : « نوصلك الى بلادك » ، فاكتفى منه بأن يوصله الى أقرب أرض لها صلح مع تونس ، فأبى الا ايصالَه لبلاده ، وأتى به الى مرسى غار الملح . ولما وصلها هاداه بشيء من صندوقه ، فأبى القبول وأنف من ذلك ، وأنزله ووقف ريثما رآه في البر ، والناس يسلّمون عليه ، وسافر لحينه .

وكان رحمه الله يقول : « أعظم أماني الدنيا عندي ، أن أقابل هذا الرئيس مرة ثانية » .

وفي يوم الثلاثاء عاشر (1) شعبان السنة 1227 (18 أوت 1812 م) كَسَّرَ الحجر الذي كان بشاطىء بحر سيدي أبي سعيد المعروف بكرسيٍّ الصلَّاح ، بفتوى العالم المفتي أبي العباس أحمد البارودي ، وحضر كسره بنفسه ، لان الجهّال كانوا يذبحون به ، ويلقون المذبوح في الماء ، ومنهم من يشترط عدم التسمية . وكان ذلك في عنفوان هرج الوهّابي .

وفي ربيع الثاني من سنة 1228 ، ثمان وعشرين ومائتين وألف (افريل 1813 م) ، توفي الحاج مصطفى أنقليز باي قسنطينة ، وكان في بستانه بمنّوبة . وأمر الباي رجال دولته بشهود جنازته ، وأسف على موته قبل أن يوفِّي له بما وعده من رجوعه الى قسنطينة .

وفي المولد النبوي من سنة 1229 ، تسع وعشرين ومائتين وألف (الجمعة 12 ربيع الاول — 4 مارس 1814 م) ، أقيمت صلاة الجمعة بجامع الوزير يوسف صاحب الطابع بالحلفاوين ، وهي أول صلاة أقيمت به ، شهدها الباي ووزراؤه ، وأهل المجلس الشرعي (2) . وأول خطيب به شيخنا العلامة أبو عبد الله محمد ابن العالم المفتي أبي عبد الله محمد ابن العالم المفتي أبي عبد الله محمد بن حسين بيرم . وأول امام به للخمس شيخنا العلامة أبو العباس أحمد الأُبِّي . وأول المدرسين به امام الخمس المذكور ، وشيخ شيوخنا العلامة المحقق أبو عبد الله محمد الفاسي ، ابدأ به تفسير القاضي البيضاوي وشرح السعد للعقائد النفسية ، وشيخنا العلامة الصالح أبو اسحاق ابراهيم الرياحي ، ابتدأ به شرح القسطلاني لصحيح البخاري والمختصر الخليلي ، والفقيه أبو العباس أحمد العوّادي وشيخنا أبو عبد الله محمد بن الخوجة ، درس به تذكرة القرطبي . وأول وكيل به الوجيه الخيّر أبو الحسن علي الباز . وأول شاهد على أوقافه شيخنا الفقيه العالم أبو عبد الله محمد المنّاعي . وأوقف به أربع خزائن من الكتب ، اثنتين لنظر امام الخمس واثنتين لنظر شيخ المدرسة . ودفع ناضًّا للوكيل ما يلزم الجامع من المصرف عامين ، وكان هذا الزائد (3) سببا في اصلاح غيره من الجوامع . واشترط أنه في كل عام يحضر الخطيب وامام الخمس وشيخ المدرسة وشاهد الوقف لحساب الوكيل على جميع الدخل والخرج ، وسيأتي لذلك مزيد بيان في ترجمة هذا الوزير ان شاء الله تعالى .

***

(1) هو 9 حسب التقويم .
(2) في ع و ق بزيادة : وصلوا به العصر .
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : الفائد .

وفي الرابع والعشرين من جمادى الثانية سنة 1229 ، تسع وعشرين ومائتين وألف (الاثنين 13 جوان 1814 م) ، ورد البشير من الدولة العلية العثمانية ، بأخذ الحرمين الشريفين من يد الوهابي ، وأعلنت مدافع الحاضرة سرورا بذلك .

ولا بأس أن نلمّ بخبر هذا الوهابي :

وهو أن رجلا يقال له محمد بن عبد الوهاب ، من تلاميذ الشيخ ابن تيمية الحنبلي ، منع زيارة القبور ، حتى قبور الانبياء ، ومنع التوسّل بهم الى الله تعالى ، والبناء على قبورهم وصرّح بكفر من يفعل ذلك وسمّاه مشركا ، زاعما أن الزيارة والتوسل عبادة ، وهي لا تكون الا لله تعالى . وترامت بهذا الرجل الاسفار الى أن استقرّ بالدرعية من أرض نجد ، فصادف بها آذانا واعية ، وقلوبا من العلم خاوية ، وألقى لكبيرهم سعود هذا المذهب ، واستدلّ له بظواهر آيات وأحاديث اغترّ بها عامتهم حتى استباحوا قتال المسلمين . ولم يزل هذا المذهب ينمو الى أن أفضى الامر لسعود بن عبد العزيز بن سعود ، القائم الاول ، فعظم الامر في زمنه ، ونصب حرْبا للمسلمين عموما ، ولاهل الحجاز خصوصا ، وصدهم عن بيت الله الحرام ، وزيارة قبر سيد الانام ، وعاث في أهل الحجاز ، وأطلق يد القتل والنهب فيهم . واستحكم هذا المذهب في قلوب أتباعه ، والتحموا به التحام النسب . واشتدت عصبيتهم وقويت ، فطلبوا غايتها وهي الملك والسلطان . وأقاموا دعاة يدعون الناس الى مذهبهم ، مع رسائل وجّهوها لآفاق المسلمين ، فوصلت منها رسالة للقطر التونسي نصّها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، نستعينه ونستغفره ونعوذ به من شر أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهدِ اللهُ فلا مضلّ له ، ومن يُضْلِلِ اللهُ فلا هاديَ له ، ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله . من يطعِ اللهَ ورسولَه فقد رَشَد ، ومن يعص الله ورسوله فقد غوَى ، ولا يَضُرُّ الا نفسَه ولا يَضُرُّ اللهَ شيئا . أما بعد ، فقد قال الله تعالى : « قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » (1) . وقال الله تعالى : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

(1) س 12/I 108

ذُنُوبَكُمْ » (1) . وقال الله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » (2) . وقال الله تعالى : « اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينا » (3) ، فأخبر سبحانه أنه أكمل الدين وأتمّه على لسان رسوله صلىّ الله عليه وسلم ، وأمرنا بلزوم ما أتى به الينا من ربنا ، وترك البدع والتفرُّق والاختلاف . وقال تعالى : « اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ » (4) . وقال تعالى : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيما فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (5) .

والرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر بأن أمّته آخذةٌ ما أخذه الامم قبلها شبرا فشبرا وذراعا فذراعا . وأخبر في الحديث أن أمته ستفترق ثلاثا وسبعين فرقةً كلُّها في النار الا واحدةً ، قالوا : « من هي يا رسولَ الله ؟ » قال : « مَن كان على مثل ما أنا عليه اليومَ وأصحابي » .

واذا عرفت هذا ، فمعلوم ما عمّت به البَلْوَى من حوادث الامور التي أعظمها الإشراكُ بالله ، والتوجُّهُ الى الموتى ، وسؤالُهم النصرَ على العدَى ، وقضاءَ الحاجات ، وتفريجَ الكُرُبات التي لا يقدر عليها الا ربُّ الارض والسموات ؛ وكذلك التقربُ اليهم بالنذور ، وذبح القربات ، والاستعانةُ بهم في كشف الشدائد وجلب الفوائد ، الى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلح الا لله تعالى .

وَصَرْفُ شيء من أنواع العبادة لغير الله كصَرْفِ جميعها ، لانه سبحانه أغنى الاغنياء عن الشركاء ، ولا يقبل من العمل الا ما كان خالصا لوجهه ، وأخبر أن المشركين يَدْعون الملائكةَ والانبياءَ والصالحين ليقرِّبوهم الى الله زُلْفَى ، ويشفعوا لهم عنده ، وأخبر أنه لا يهدي من هو كاذب كَفَّار .

وقال تعالى : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السمَوَاتِ وَلاَ فِي الارْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » (6) ، فأخبر

(1) س 3/آ 31 — 2) س 59/آ 7 — 3) س 5/آ 3 — 4) س 7/آ 3 — 5) س 6/آ 153 — 6) س 10/آ 18

أن من جعل بينه وبين الله وسائط لاجل الشفاعة فقد عبدهم وأشرك بهم ، وذلك أن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى : « قُلْ لله الشفاعةُ جميعا » (1) و « مَنْ ذا الذي يشفعُ عندهُ إلا بإذنه » (2) وقال تعالى : « يومئذٍ لا تنفعُ الشفاعةُ إلا مَنْ أذنَ لهُ الرحمنُ ورضيَ لهُ قولاً » (3) . وهو سبحانه لا يرضى الا التوحيدَ ، كما قال تعالى : « ولا يشفعونَ إلا لمنِ ارتضى » (4) . فالشفاعة حق ، ولا تطلب في دار الدنيا الا من الله ، كما قال تعالى : « وأنَّ المساجدَ لله فلا تدعُوا معَ الله أحداً » (5) . وقال تعالى : « ولا تدعُ مِنْ دُونِ الله مَا لا ينفعُكَ ولا يضرُّكَ فإنْ فعلتَ فإنَّكَ إذاً مِنَ الظالمينَ » (6) . فاذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد الشفعاء ، وصاحب المقام المحمود ، وآدمُ فمَنْ دونه تحت لوائه ، لا يشفع الا باذن الله ، ولا يشفع ابتداء ، بل يأتي فيخرُّ لله ساجدا ، فيحمده بمحامد يعلّمه اياها ، ثم يقول له : « ارفع رأسك وسَلْ تُعْطَ واشفعْ تشفَّعْ » ، ثم يَحِدُّ له حدًّا فيُدخلهم الجنة ، فكيف بغيره من الانبياء والاولياء ؟ وهذا الذي ذكرنا لا يخالف فيه أحد من علماء المسلمين ، بل قد أجمع عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين والايمة الاربعة وغيرهم ممن سلك سبيلهم ودرج على منهاجهم . وما حدث من سؤال الانبياء والاولياء من الشفاعة بعد موتهم ، وتعظيمِ قبورهم ببناء القباب عليها وإسراجها والصلاةِ عندها وجعلِ الصدقة والنذور لها ، فكل ذلك من حوادث الامور التي أخبر بوقوعها النبي صلى الله عليه وسلم أمّته وحذّر منها ، كما في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى يلحقَ حيٌّ من أمتي بالمشركين وحتى تعبُدَ أقوام من أمّتي الاوثان » .

وهو صلى الله عليه وسلم حمَى جانبَ التوحيد أعظم حماية ، وسدَّ كلَّ طريق موصل الى الشرك ، فنهى أن يجصَّصَ القبرُ ويبنى عليه ، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر ، وثبت فيه لفظ : أنه بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره أن لا يدَعَ قبرا مشرفا الا سوّاه . ولذلك قال غير واحد من العلماء : «يجب هدم القِباب المبنية على القبور» ، لانها أسِّست على معصية الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

(1) س 39/آ 44 — 2) س 2/آ 255 — 3) س 20/آ 109 — 4) س 21/آ 28 — 5) س 72/آ 18
(6) س 10/آ 106

فهذا هو الذي أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس ، حتى آل الامر الى أن كفّرونا وقاتلونا واستحلّوا دماءنا وأموالنا ، حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم ، وهو الذي ندعو الناس اليه ونقاتلهم عليه ، بعد ما نقيمُ عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسوله واجماع السلف الصالح من الايمة ، ممتثلين لقوله تعالى : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله » (1) . فمن لم يُجِبِ الدعوةَ بالحجة والبيان ، دعوناه بالسيف والسِّنان ، كما قال الله تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ » (2) .

وندعو الى اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحجٍّ بيت الله الحرام ، ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، ولله عاقبة الامور .

فهذا ما نعتقده وندين الله به ، فمن عمِل على ذلك فهو أخونا المسلمُ ، له ما لنا وعليه ما علينا .

ونعتقد أيضا أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا تجتمع على ضلالة ، وانه لا تزال طائفةٌ من أمته على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتيَ أمر الله ، وهم على ذلك . انتهى .

ولا يخفى أن هذا الرجل ، بنى شُبهته على أن التوسل الى الله ببركة الانبياء فمَنْ دونَهم عبادة ، والعبادة لا تكون الا لله ، ومن فعل ذلك فقد أشرك بالله . وما درى أن العبادة الشرعية هي التكاليف التي اشتملت عليها الشريعة ، سواء كانت معقولة المعنى أو تَعَبُّدِيّة ، وأن ما خرج عن التكاليف الشرعية ليس من العبادة في شيء . ولم يفرّق بين البدعة الموصلة الى الكفر ، المقتضي للقتال ، واستباحة الدماء والاموال ، وبين غيرها ، وانما قصد ملكا يريد الحصول عليه بعصبية دينية .

ولما شاعت هذه الرسالة في القطر التونسي ، بعث بها الباي أبو محمد حمودة باشا الى علماء عصره ، وطلب منهم أن يوضّحوا للناس الحقّ ، فكتب عليها العلاّمة المحقق ، نسيجُ وَحْدِهِ ، أبو الفداء اسماعيل التميمي ، كتابا مطوّلا بديعا ، يدل على يد طُولى

(1) س 8/آ 39 — 2) س 57/آ 25

وسعة اطّلاع ، سماه « المنح الالهية في طمس الضلالة الوهّابية » ، وأجاب عنها العلامة المحقق فخر عصره أبو حفص عمر ابن المفتي العلامة فخر المذهب المالكي أبي الفضل قاسم المحجوب ، برسالة بديعة مشتملة على الردّ عليه ، في قصده الذي صرح به والذي أشار اليه ، وهي المطابقة لمقتضى الحال ، نذكرها عوض ما أضربنا عنه من المقامات ، وأشعار التكسّب التي لا تفيد الا التقربَ للممدوح . ونصُّها :

رَبَّنَا أفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ (1) ، رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الكَافِرِينَ (2) . يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون (3) . يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الحَرَامَ وَلاَ الهَدْيَ وَلاَ القَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ البَيْتَ الحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ (4) .

أمَّا بعدَ هذه الفاتحة ، التي طلعت في سماء المفاتحة ، فانك راسلتَنا تزعُم أنك القائم بنُصرة الدين ، وانك تدعو على بصيرة لِمَا دعا اليه سيّد الاولين والآخرين ، وتحثُّ على الاقتفاء والاتّباع ، وتنهى عن الفرقة والابتداع ، وأشرت في كتابك الى النهي عن الفرقة واختلاف العباد ، فأصبحت كما قال اللهُ تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الارْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يَحِبُّ الفَسَادَ (5) .

وقد زعمت أن الناس قد ابتدعوا في الاسلام أمورا ، وأشركوا بالله من الاموات جمهورا ، في توسلهم بمشاهد الاولياء عند الازمات ، وتشفّعهم بهم في قضاء الحاجات ، ونذر النذور اليهم والقربات ، وغير ذلك من أنواع العبادات ، وان ذلك كله اشراك برب

(1) س 7/آ 89 — 2) س 10/آ 85 و 86 — 3) س 5/آ 105 — 4) س 5/آ 2 — (5) س 2/آ 204 و 205

الارضين والسموات ، وكفر قد استحللتم به القتال وانتهاك الحرمات ، ولعمر الله أنك قد ضللْتَ وأضْلَلْتَ ، وركبت مراكب الطغيان بما استحللت ، وشنّعت وهوّلت ، وعلى تكفير السلف والخلف عوّلت ، وها نحن نحاكمك الى كتاب الله المحكم ، والى السنن الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

أما ما أقدمت عليه من قتال أهل الاسلام ، وإخافة أهل البلد الحرام ، والتسلط على المعتصمين بكلمتي الشهادة ، وأدمتم اضرام الحرب بين المسلمين وايقادَه ، فقد اشتريتم في ذلك حُطام الدنيا بالآخرة ، ووقعتم بذلك في الكبائر المتكاثرة ، وفرّقتم كلمة المسلمين ، وخلعتم من أعناقكم ربْقة الطاعة والدين ، وقد قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إلَيْكُمُ السَّلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ » (1) ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله — أي ومحمد رسول الله — فاذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم ، الا بحقّها ، وحسابهم على الله » .

وحيث كنت لكتاب الله معتمدا ، ولعماد سنته مستندا ، فكيف بعد هذا — ويحك — تستحلُّ دماء أقوام بهذه الكلمة ناطقون ، وبرسالة النبي صلى الله عليه وسلم مصدّقون ، ولدعائم الاسلام يُقيمون ، ولحوزة الاسلام يحمون ، ولعبدة الاصنام يقاتلون ، وعلى التوحيد يناضلون ، وكيف قذفتم أنفسكم في مهواة الالحاد ، ووقعتم في شقّ العصا والسعي في الارض بالفساد ؟ .

وأما ما تأوّلته عليهم من تكفيرهم بزيارة الاولياء والصالحين ، وجعلِهم وسائطَ بينهم وبين رب العالمين ، وزعمت ان ذلك شنشنةُ الجاهلية الماضين ، فنقول لكم في جوابه : معاذ الله أن يعبد مسلم تلك المشاهد ، وأن يأتي اليها معظما تعظيم العابد ، وأن يخضع لها خضوع الجاهلية للأصنام ، وأن يعبدها بسجود أو ركوع أو صيام ، ولو وقع ذلك من جاهل لانتهض اليه ولاة الامر والعظماء ، وأنكره العارفون والعلماء ، وأوضحوا للجاهل المنهج القويم ، وهدوه الصراط المستقيم .

---

(1) س 4/آ 94

وأما ما جنحت اليه ، وعولت في التفكير عليه ، من التوجه الى الموتى وسؤالهم النصرَ على العدى ، وقضاءَ الحاجات ، وتفريجَ الكربات ، التي لا يقدر عليها الا ربُّ الارضين والسموات ، الى آخر ما ذكرتم ، مُوقِدا به نيرانَ الفُرقة والشَّتات ، فقد أخطأت فيه خطأ مبينا ، وابتغيت فيه غير الاسلام دينا ، فان التوسل بالمخلوق مشروع ، ووارد في السنة القويمة ليس بمحظور ولا ممنوع ، ومشارِعُ الحديث الشريف بذلك مفْعَمَةٌ ، وأدلّته كثيرة محكمة ، تضيق المهارق عن استقصائها ، ويكِلُّ اليَراع اذا كُلف باحصائها ، ويكفي منها توسلُ الصحابة والتابعين ، في خلافة عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، واستسقاؤهم عام الرمادة بالعبّاس ، واستدفاعُهم به الجدبَ والباس ؛ وذلك أن الارض أجدبت في زمن عمر رضي الله عنه ، وكانت الريح تذرو ترابا كالرماد لشدة الجدب ، فسميت عام الرمادة لذلك ، فخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالعباس بن عبد المطلب يستسقي للناس ، فأخذ بِضَبْعَيْه ، وأشخصه قائما بين يديه ، وقال : اللهم إنّا نتقرب اليك بعمِّ نبيّك ، فانك تقول وقولك الحق : « وأمّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أبُوهُمَا صَالِحا » (1) ، فحفظتَهما لصلاح أبيهما ، فاحفظِ اللّهُمَّ نبيَّك في عمّه ، فقد دنونا به اليك مستغفرين ، ثم أقبل على الناس وقال : استغفروا رَبَّكم انه كان غفّارا ؛ والعباس عيناه تنضحان يقول : اللهم أنت الراعي لا تُهْمِلِ الضالّةَ ولا تدَعِ الكَسيرَ بدار مَضْيَعة ، فقد ضرع الصغير ورقّ الكبير وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفَى ، اللّهم فأغِثْهُم بغياثك قبل أن يقنَطوا فيَهْلَكوا ، انه لا ييأس من رَوْحك الا القومُ الكافرون ، اللهم فأغِثْهم بغياثك فقد تقرَّب القومُ إليك بمكانتي من نبيك عليه السلام » ، فنشأت سحابة ، ثم تراكمت ، وماسَتْ فيها ريح ، ثم هزّت ، ودرَّت بغيثٍ واكِفٍ . وعاد الناس يتمسَّحون بردائه ويقولون له : هنيئا لك ساقيَ الحرمين .

فأخبِرْني — يا أخا العرب — هل تكفُرُ بهذا التوسل عمرَ بن الخطاب أميرَ المؤمنين ، وتكفّر معه سائرَ من حضر من الصحابة والتابعين ، لكونهم جعلوا بينهم وبين الله واسطةً من الناس ، وتشفَّعوا اليه بالعباس ، وهل أشركوا بهذا الصنيع مع الله

(1) س 18/آ 82

غيرَه ، وما منهم الا من أنهضته للدين القويم غَيْرَة . كلاً والله ، وأقسم بالله وتالله ، بل مكفِّرهم هو الكافر ، والحائد عن سبيلهم هو المنافق الفاجر ، وهم أهدى سبيلاً ، وأقوم قيلاً . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « اقتدوا بمن بعدي ، أبي بكر وعمر » . واذا قدحت في هذا الجمع من الصحابة الذين منهم عثمان بن عفان وعلي ابن أبي طالب وغيرُهما ، فمن أين وصل لك هذا الدين ، و[من] رواه لك مبلغاً عن سيد المرسلين ؟ ثم ما تصنع يا هذا في الحديث الآخر الذي رواه مسلم في صحيحه مرفوعا للنبي صلى الله عليه وسلم في أوَيْس ، وأنه أخبر به عليه الصلاة والسلام وهو من أعلام النبوءة ، وأمر عمر بطلب الاستغفار منه ، وأنه طلب منه ذلك واستغفر له . وقد قال الله تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام : « يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ » (1) .

فالزائر للأولياء والصالحين اما أن يدعو الله لحاجته ، ويتوسل بسرٍّ ذلك الولي في إنجاح بُغيته ، كفعل عمر في الاستسقاء ، أو يستمدّ من المَزُور الشفاعةَ له وإمدادَه بالدعاء ، كما في حديث أوَيْس القَرَنِيِّ ، اذ الاولياء والعلماء كالشهداء أحياء في قبورهم ، انما انتقلوا من دار الفناء الى دار البقاء .

فأيُّ حرج بعد هذا يا أيها القائم للدين ، في زيارة الاولياء والصالحين ؟ وأي منكر تقوم بتغييره ، وتقتحم شقَّ العصا وإضرام سَعِيره ؟ ولعلك من المبتدعة الذين ينكرون أنواعا كثيرة من الشفاعة ، ولا يثبتونها الا لاهل الطاعة ، كما أنه يلوح من كتابك انكار كرامات الاولياء ، وعدم نفع الدعاء ، وكلها عقائد عن السنّة زائغة ، وعن الطريق المستقيم رائغة .

وقولكم ان ما قلتموه لا يخالف فيه أحد من المسلمين ، افتراء ومَيْن ، والحاد في الدين ، لان أهل السنّة والجماعة ، يثبتون لغير الانبياء الشفاعة ، كالعلماء والصلحاء وآحاد المؤمنين ، فمنهم من يشفع للقبيلة ومنهم من يشفع للفِئَام من الناس ، كما ورد أيضا أن أويس القرني يشفع في مثل ربيعة ومضر . وأما المعتزلة فانهم منعوا شفاعة غير النبي صلى الله عليه وسلم ، وأثبتوا الشفاعة العظمى من هول الموقف ، والشفاعةَ للمؤمنين المطيعين أو التائبين في رفع الدرجات ، ولم يثبتوا الشفاعة لاهل الكبائر الذين لم يتوبوا ، في النجاة من النار، بناء على مذهبهم الفاسد من التكفير بالذنوب ، وأنه يجب عليها التعذيب .

(1) س 12/أ 97

وأما ما جنحت اليه من هدم ما بُنِيَ على مشاهد الاولياء من القباب ، من غير تفرقة بين العامر والخراب ، فهي الداهية الدهياء والعظيمة العظمى من الظلم ، التي أضلك الله فيها على علم ، « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا الاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » . (1) وكأنك سمعت في بعض المحاضر ، بعض الاحاديث الواردة في النهي عن البناء على المقابر ، فتلقَّفْته مجملا من غير بيان ، وأخذته جُزافا من غير مكيال ولا ميزان ، وجعلت ذلك وَليجَةً الى ما تقلدته من العسف والطغيان ، في هدم ما على قبور الاولياء والعلماء من البنيان . ولو فاوضت الايمة ، واستهديت هداة الامة ، الذين خاضوا من الشريعة لُجَجَها ، واقتحموا ثَبَجَها ، وعالجوا غمارَها ، وركبوا تيَّارَها ، لاخبروك أن محلَّ ذلك الزجر ، ومطلع ذلك الفجر ، في البناء في مقابر المسلمين ، المعدَّة لدفن عامّتهم لا على التعيين ، لِمَا فيه من التحجير على بقية المستحقين ، ونبش عظام المسلمين. وأما ما يبنيه المسلمون أو الكفّار في أملاكهم المملوكة لهم ، ليتّصلوا بمن يُدْفَن هناك حبلَهم ، فلا حرج يلحقهم ، ولا حرْمة ترهقهم . فكما لا تحجير عليهم في بناء أملاكهم دُورا أو حوانيت أو مساجد ، كذلك لا حرج عليهم في جعلها قبابا أو مقامات أو مشاهد .

ثم ليتك اذ تلقفت ذلك منهم ، ووعيته عنهم ، أن تعيد عليهم السؤال ، وتشرح لهم نازلة الحال ، وهل يجوز بعد النزول والوقوع ، هدم ما بني على الوجه الممنوع ، وهل هذا التخريب محظور أو مشروع . فاذا أجابوك أنه من معارك الانظار ، ومحل اختلاف العلماء والنُّظّار ، وأن منهم من يقول بابقائه على حاله ، رعيا للحائز في اتلاف ماله ، وأن له شبهة في الجملة تحميه ، وفي ذلك البناء منفعة للزائر تقيه . ومنهم من شدد النكير ، وأبى الا الهدم والتغيير . فاذا تحقق عندك هذا ، فكيف تقدم هذا الإقدام وتخوض مزالق الاقدام ، وتطلق العنان في هدم كل مقام ، من غير مراعاة إلٍّ في الدين ولا ذمام . فاذا انفتحت لك هذه الابواب ، نظرت بنظر آخر ليس فيه ارتياب ،

---

(1) س 2/أ 114

وهو أن المنكَـر الذي اقتضى نظرُك تغييرَه ، ليس متفقا عليه عند أهل البصيرة ، وأنه من مدارك الاجتهاد ، وقد سقط عنك القيام فيه والانتقاد . ثم بعد الوصول الى هذا المقـام ، أعد نظرا في ايقاد نار الحرب بين أهل الاسلام ، واستباحة المسجد الحرام ، واخافـة أهل الحرمين الشريفين ، والاستهوان لاصابة لعنة الله والملائكـة والناس أجمعين ، فسيتضـح لك أنك غيـَّرت المنكَـر في زعمك ، وبحسب اعتقادك وفهمك ، وأتيت بجمل كـثيرة من المناكـر ، وطائفة عديدة من الكـبائر ، آذيت بها نفسك والمسلمين ، وابتغيت بها غير سبيل المؤمنين ، وتعرضت بها لاذاية الاولياء والصالحين ، وقد قال النبـي عليه الصلاة والسلام ، في حديث رواه البخاري والامام ، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله عز وجل قال من عادَى لي وليًّا فقد آذنني بحرب » ، فـكـفى بالتعرض لحرب الله خطرا ، وقذفا في العَطَب وضررا .

واما إنـكـار زيارة القبور ، فأي حرج فيها أو محظور ، وأي ذميمة تطرقها أو تعروها ، مع ثبوت حديث « كـنت نهيتـكـم عن زيارة القبور فزوروها » ، فان هذا الحديث ناسخ لما ورد من النهـي عن زيارتها ، وماحٍ لما في أول الاسلام من حماية ألامة من أسبـاب ضلالتها ، لقرب عهدها بجاهليتها ، وعبادة أصنامها وآلهتها . وكـيف تمنـع من زيارتها ، والنبـي صلى الله عليه وسلم قد شرعها ، وسَامَ رياضَها وأرْبُعَـها ، فقد ثبت في حديث عائشة أم المؤمنين ، أنه صلى الله عليه وسلم زار بقيـع الغَرْقَدِ واستغفر فيه لموتى المسلمين ، وثبت أيضا أنه زار قبر أمه آمنة بنت وهب واستغفر لها .

وأخذ بذلك الصحابة والتابعون ، ودرج عليه العلماء والسلف الماضون ، فقد ثبت في الاحاديث المروية عن أيمة الهدى ، ونجوم الاقتداء ، أن فاطمة سيدة نساء العالمين زارت عمها سيد الشهداء ، وذهبت من المدينة الى جبل أحد ، ولم ينـكـر من الصحابة أحد ، وهم اذ ذاك بالمدينة متـآمرون ، وعلى اقامة الدين متناصرون . أفتجعل هؤلاء أيضـا مبتدعين ، وأنـَّهم سكـتوا عن الابتداع في الدين ؟ كـلا والله ، بل يجب علينا اتـّباعهم ، ومن أدلة الشريعة إجمـاعـُهم .

وقد مضت على ذلك العلماء في جميـع الاقطار ، وانتدبوا بأنفسهم للاستمداد من قبور الصلحاء ، وقضاءِ الاوطـار ، وخلـّدوا ذلك في كـتبهـم ومؤلفاتهـم ، وسطـروه في

دواوينهم وتعليقاتهم ، وقسموا الزيارة الى اقسام ، وأوضحوا ما تلخص لديهم بالادلة الشرعية من الاحكـام .

وذلك أن الزيارة ان كانت للاتعاظ والاعتبار ، فلا فرق في جوازها بين قبور المسلمين والكفار ، وان كانت للترحم والاستغفار من الزائر ، فلا منع فيها الا في حق الكافر ، فان الشريعة أخبرت بعدم غفران كفره ، وعليه حملوا قوله تعالى : « وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ » (1) . وان كانت الزيارة لاستمداد الزائر من المزور ، وتوخي المكان الذي فضله مشهور ، والدعاء عند قبره لامر من الامور ، فلا حرج فيها ولا محظور ، بل هو مندوب اليه ، ومرغّب فيه ، وانه مما تشدّ المطيّ اليه ، ومن خالف في هذا الحكم سبيل جمهورهم ، واتّبع من الشبهات مخالف منشورهم ، فقد شدد العلماء في النكير عليه ، وسددوا سهام النقد اليه ، وأشرعوا نحوه رماح التضليل ، وأرهفوا له سيوف التجهيل ، واتفقت كلمتهم على بدعته في الاعتقاد ، وثنوا اليه عنان الانتقاد ، « وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ».

وأما النهي الوارد في شد المطيّ لغير المساجد الثلاثة فانما هو بالنسبة لنذر الصلاة فيها ، فانه لا يختلف ثواب الصلاة لديها .

وأما المزارات فتختلف في التصريف مقاماتها ، وتتفاوت في ذلك كراماتها ، وذلك لسرٍّ في الاستمداد والامداد لا تطّلع عليه ، وضُرِبَ بسُور له باب بينك وبين الوصول اليه ، وقد أوضح ذلك حجّة الاسلام ، ومن شهد له بالصدّيقيّة العلماء والاولياء العظام .

وأما ادماجكم لقبور الانبياء في أثناء النكير ، والتضليلُ لزائرها والتكفير ، فهو الذي أحْفَظَ عليكم الصدور ، وأتْرَعَ حِيَاضَ الكراهة والنفور ، وسدد اليكم سهام الاعتراض ، وأوقد شُوَاظ البغض والارتِمَاض .

فقل لي — يا أخا العرب — هل قمت لنصرة الدين أم لنقض عُرَاه ، وهل أنت مصدق بالوحي لنبيه أم قائل: إِنْ هو الاّ إِفْكٌ افتراه ؟ وما تصنع بعد اللّتَيَّا والتي ، في حديث « من زار قبري وجبت له شفاعتي » ؟ وأخبرني هل تَضَلَّل سليمان بن داود

(1) س 9/ آ 84

في بنائه على قبر الخليل ، ومن معه من أنبياء بنـي اسرائيل ؟ وما تقول — ويحك — في الحديث الذي رواه جهابذة الرواة ، وصحّحه المحدّثون الثقـات ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لمّا أسري بـي الى بيت المقدس ، مرّ بـي جبريل على قبر ابراهيم عليهما السلام ، فقـال لي إنْزِل فصلّ هنا ركـعتين ، فان ههنا قبرَ أبيك ابراهيـمَ عليه السلام» ؟ وعنه صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر أنه قال : « من لم تُمْـكِنـْـه زيارتـي فليزُرْ قبر ابراهيم الخليل عليه السلام » . فأين تذهب بعد هذا يا هذا ؟ وهل تجد لنفسك مدخلا أو معاذا ؟ وهل أبقيت بعد تضليل جميـع الانبياء ملاذا ؟ « رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ». (1)

وأما تلميحكم للاحاديث التـي تتلقفونها ، ولا تحسنونها ولا تعرفونها ، فَتَهِمْتُـم بسبب ذلك في أودية الضَّلالة ، ولم تَشِيمُوا بها الا بُرُوقَ الجهالة ، وسلكـتم شِعابَها من غير خبير ، ونَحَوْتُـم أبوابَها بلا تدبُّر ولا تدبير ، فان حديث « لا تتخذوا قبـري مسجدا » ، مَحْمَلُه عند البخاري على جعله للصلاة متعبَّدا ، حفظا للتوحيد ، وحماية للجاهل من العبيد ، لان المصلّـيَ للقبلـة يصير كـأنه مصلّ اليه ، فحمى صلى الله عليه وسلم حِمَى ذلك من الوقوع فيه . وأما قصده للزيارة والاستشفاع ، والاستمداد ببركـته والانتفاع ، وقصد المسلمين اياه من سائر البقاع ، فما يسعنا الا الاتّباع .

وكـذلك ما لوَّحْتَ به الى شدّ الرِّحال ، فانك أخطأت في الاستشهاد به في نازلة الحال ، وذلك أن الحصر في المساجد ، دون سائر المشاهد .

وكـذلك ما لمحت اليه من حديث تعظيم القبر باسراجه ، فانك أخطأت فيه واضح منهاجه ، مع بهرجة نقده في رواجه ، ومَحْمَلُه — على فرض صِحتّه — على فعل ذلك للتعظيم المجرَّد عن الانتفاع للزائرين ، أما اذا كـان القصد به انتفاعَ اللائذين والمقيمين ، فهو جائز بلا مَيْن .

وأمّا ما تدّعونه من ذبـح الذبائح والنّذور ، وتبالغون في شأنها التغيير والتنكـير ، وتصف ألسنتكم الكـذب ، وتثيرون في شأنها الهرج والشغب ، فكـون الذبائح المذكورة ممـا أهِلّ به لغير الله مكـابَرَةٌ للعيان ، وقذفٌ بالافك والبهتان ، فانّا بلونا أحوال أولئك الناذرين ، فلم نر أحدا منهم يسمّي عند ذبحهـا اسم وليّ من الصالحين ، ولا يلطّـخ

(1) س 3/آ 8

الضّرائح ، بدم تلك الذبـائح ، ولا يـأتون بفعل من الافعـال ، الحـاكمة على تحريـم الذبيحة والاهلال .

وأما نذرها لتلكـم المزارات ، فليس على أنها من باب الديانات ، ولا أن من لم يفعـل ذلك يـَكـُنْ نـاقص الدين في العـادات ، وانما يقصدون بذلك مقـاصد الرُّقـَى والنُّشـُر(1) ، والانتفاعَ في الدنيا بسرٍّ في التصدق بها استتر ، ولم يدر منها الا ما اشتهر .

والواجب علينا وعليـكم الرجوع في حكم نذرها الى العلماء الاعلام ، المتضلعين من درايـة الاحكـام ، المقيمين لقسطاسها ، المسرجين لنبراسها ، الناقبين على أساسها ، ومن لديهم محكُّ عَسجدِها ونحاسـها .

فان كنتم للحق تقيمون ، ومن مخالفة الشريعة تتجرمون ، « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُـمْ لاَ تَعْلَمُـونَ » ، « وَلاَ تَقْعُـدُوا بِـكُـلِّ صِـرَاطٍ تُـوعِـدُونَ » ، فانهم يهدونكم السبيل ، ويفتونكم في هذه المسألة بالتفصيل ، وأن هذا الناذرَ ان نذر تلك الذبائح للوليِّ المعيَّن بلفظ الهدي والبَدنة ، فقد جاء بالسيئة مكـان الحسنة . ولـكن ما رأينا من خلـع في هذا المحظور رَسَنَـه ، ولاَ من اهتَصَرَ فَنَنَه ، وإنْ نذر تلك الذبائح لمحل الزيارة ، بغير هاته العبارة ، وكـان من الذبائح التـي تقبل أن تـكـون هديا ، فهل يلزمه أن يسعى به لذلك المزار سعيا ، أو لا يلزمه الا التصدق به في موضعه رعيا ، خلاف في مذهب مالك شهير ، قرره العلماء النحارير . وان كـان ذلك النذر ممـا لا يصح إهداؤه ، فالقاصد للفقراء الملازمين بمحل الشيـخ يلزمه بعثه وإنهاؤه ، والقـاصد للوليِّ في نذره وتشرعّه (2) ، لا يلزمه الا التصدق به في موضعه .

واذا اتضح لديك الحال ، فأي داعية للحرب والقتال ؟ وهل يتميز المشروع من هذه الصور بالمحظور ، الا بالنيات التـي لا يعلمها الا العالم بما في الصدور ؟ والله انما كـلفنا بالظاهر ، وَوَكَلَ اليه أمرَ السرائر . ولم يقيّض بالخواطر نقيبا ، ولا جعل عليها مهيمنا من الولاة ولا رقيبا .

---

(1) النشرة بضم النون : ضرب من الرقية والعلاج ، يعـالج بـه من كـان يظن أن بـه مسـا مـن الجـن (النهـايـة لابن الاثيـر)

(2) تشرع : اتبع شريعة او دينا (دوزى)

واذا التزمت سدّ الذريعة بالمنع من المشروع ، خوفا من الوقوع في الممنوع ، فالتزم هذا الالتزام ، في سائر العبادات الواقعـة في الاسـلام ، التي لا تفرقة فيهـا بين المسلم والكـافر ، الا بما انطوت عليه الضمائر . فان المصلي في المسجد يحتمل أن يقصد عبادة الحجارة ، بمثل ما احتمل صاحب الذبائح والزيارة ، والصائم يحتمل أن يقصد بصومه تصحيح المزاج ، أو المداواة والعلاج ، والمزكي يحتمل أن يقصد مقصداً دنيويا ، أو معبودا جاهليا ، والمحرم بحجٍّ أو عمرة ، يحتمل أن ينوي ما يوجب كـفره .

واذا وصلت الى هذا الالتزام ، نقضت سائر دعائم الاسلام ، والتبس أهل الكـفر بأهـل الايمـان ، وأفضى الحال الى هـدم جميـع الاركـان ، واستبيحت دمـاء جميـع المسلمين ، وهدمت صلواتهم ومساجدهم وصوامعهم أجمعين .

فانظر أيها الانسان ، ما هذا الهذيان ، وكـيف لعب بك الشيطان ، وماذا أوقعك فيه من الخسران . فارجـع عن هذا الضلال المبين ، وقل ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمْنا لنكـونن من الخاسرين .

وأما ما جلبتم من الاحاديث الواردة في تغيير النبـي صلى الله عليه وسلم للقبـور ، وأنه أمر علي بن أبـي طالب رضـي الله عنه بطمسها وتسويتها ، فقد أخطأتم الطريق في فهمها ، ولم يأتِـكم نبأ عِـلْمِـها ، ولو سألتم عن ذلك ذويه ، لاخبروكم بأن محمله طمس ما كـانت الجاهلية عليه ، وكـانت عادتهم اذا مات عظيم من عظمائهم ، بنوا على قبره بناء كـأُطُمٍ من آطامهم ، مباهاة وفخرا ، وتعاظما وكـبرا ، فبعث صلى الله عليه وسلم من يمحو من الجاهلية آثارها ، ويطمس مباهاتها وفـَخَارها ، والا فلو كـان كما ذكرتم ، لـكـان حكم التسنيم (1) كحكم ما أنـكرتم .

واذا استبان لـكـم واتضح لديـكم ، انقلبت الحجة التي أتيتم بها عليـكم ، وكـيف تجعلون تلك الاحاديث حجة قاضية ، على وجوب كـون القبور ضاحية (2) ، والفـرق ظاهر بين البناء على القبور ، وحفر القبور تحت البناء ، فالاول من فعل الجاهلية الوارد فيه ما ورد ، والثانـي هو الذي يعوزكم فيه المستنَد ، ولا يوافقـكم على تعميم النهـي احد .

---

(1) تسنيم القبر خلاف تسطيحه ، وقبر مسنم اذا كان مرفوعا عن الارض (اللسان)

(2) الضاحي من كل شيء البـارز الظـاهر (اللسان)

وأما ما نزعتم اليه من التهديد ، وقرعتم فيه بآيات الحديد ، وذكرتم «أن من لم يُجب بالحجة والبيان ، دعوناه بالسيف والسنان»، فاعلم يا هذا أننا لسنا ممن يعبد الله على حرف ، ولا ممن يفرُّ عن نصرة دينه من الزحف ، ولا ممن يظن بربه الظنون ، أو يتزحزح عن الوثوق بقوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ » (1) ، ولا ممن يميل عن الاعتصام بالله سرًّا وعلنًا ، أو يشك في قوله تعالى : « قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا » (2) ، وما بنا من وهن ولا فشل ، ولا ضعف في النكاية ولا كسل ، ننتصر للدين ونحمي حماه ، وما النصر الا من عند الله .

وأما ما جال في نفوسكم ، ودار في رؤوسكم ، وامتدت اليه يد الطمع ، وسوّلته الاماني والخدع ، من أنكم من الفئة الذين هم ومن حالفهم ، لا يضرُّهم من خالفهم ، وأنكم من الطائفة الظاهرين على الحق ، وأن هذه المناقب تساق اليكم وتَحقُّ ، فكلاًّ وحاشا أن يكون لكم في هذه المناقب من نصيب ، أو يصير لكم ارثها بفرض أو تعصيب، فان هذا الحديث وان كان واردا صحيحا ، الا أنكم لم تُوَفُّوا طريقه تنقيحا ، فان في بعض رواياته « وهم بالمغرب » وهي تحجبكم عن هذه المناقب ، وتبعدكم عنها بعد المشارق من المغارب .

فانفض يديك ، مما ليس اليك ، ولا تمدَّنَّ عينيك ، الى من حُرِّمت عليك ، فانكاح الثّريا من سهيل ، أمكَنُ من هذا المستحيل .

أما أهل هذه الاصقاع ، والذين بأيديهم مقاليد هذه البقاع ، فهم أجدر أن يكونوا من اخواننا ، وتمتدُّ أيديهم الى خوانها ، لصحة عقائدهم السُّنيَّة ، واتباعهم سبيلَ الشريعة المحمَّدية ، ونبذهم للابتداع في الدين ، وانقيادهم للاجماع وسبيل المؤمنين .

وقد أنبأتنا في هذا الكتاب ، وأعربت في طيِّ الخطاب ، عن عقائد المبتدعة ، الزائغين عن السنة المتّبعة ، الراكبين مراكب الاعتساف ، الراغبين عن جمع الكلمة والائتلاف ، فالنصيحةُ النصيحةُ ، أن تنزع لباس العقائد الفاسدة وتتسربل العقائد الصحيحة ، وترجعَ الى الله وتؤمن بلقاه ، ولا تكفِّرَ أحدا بذنبٍ اجتناه . فان تبتم فهو خير لكم ، وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله .

(1) س 7/آ 34 — 2) س 9/آ 51

وزبدة الجواب وفذلكة الحساب ، انك ان قفوت يا أخا العرب نصحك ، وأسوت بالتوبة جرحك ، وأدملت بالانابة قرحك ، فمرحبا بأخي الصلاح ، وحيهلا بالمؤازر على الطاعة والنجاح ، وجمع الكلمة والسماح ، وان أطلت في لجة الغواية سبحك ، وشيدت في الفتنة صرحك ، واختلت عارضا رمحك ، فان بني عمك فيهم رماح ، وما منهم الا من يتقلد الصفاح ، ويجيل في الحرب فائز القداح .

والله تعالى يسدد سهام الامة الساعية فيما يحبه ويرضاه ، ويخمد ضرام الفئة الباغية حتى تفيء الى أمر الله . والسلام .

وبعث حمودة باشا بهذه الرسالة الى القائم الوهابي فلم يجب عنها . ولج في حروبه وقتاله ، الى أن كانت الهزيمة آخر حاله ، على يد رجل الدنيا وواحدها الطائر الصيت في جهات المعمور ، من رد الله به مصر الى شبابها ، رد شباب امرأة العزيز ليوسف الصديق ، وهو أبو عبد الله محمد علي باشا ، عزيز مصر ، رحمه الله .

*

رجـــع

الى أخبار الباي أبي محمد حمودة باشا

كان عزيز النفس ، ثاقب الفكر ، ومع ذلك لا يستغني عن مشورة رجال دولته في جليل الامور وحقيرها ، ولا يأنف من الرد عليه ، ويقول : « الخطأ مع الجمهور أحب الي من الاصابة وحدي » . وكثيرا ما ينشد قول القائل :

الرأي كالليل مسود جوانبه والليل لا ينجلي الا باصباح
فاضمم مصابيح آراء الرجال الى مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

فهو في هذه الحالة كملوك القانون مع أنه من ملوك الاطلاق ، وكان يعاني من وزيره أبي المحاسن يوسف صاحب الطابع مرارة الرد عليه ، ويقول له : « يا يوسف انك لا تعيش مع غيري نصف سنة » ، فكانت كالجفر (1) .

(1) علم الجفر يسمى علم الحروف ، وهو علم يدعى اصحابه انهم يعرفون به الحوادث الى انقراض العالم (اقرب الموارد)

ومما اتفق له في محاذاة ملوك القانون ، أن والده لما كان بالجزائر ، نذر أن يبعث شيئا من الزيت لمقامات الصالحين بها ، ووفى بنذره مدة حياته ، وكان صاحب الجزائر يأخذ أكثره ، وهو يتغافل عن ذلك .

ولما توفي انقطع النذر بوفاة الناذر ، ولم يبعث ابنه حمودة باشا شيئا من ذلك ، فطلبه صاحب الجزائر فأبى ، فشكاه الى الدولة العثمانية بما محصله : « ان صاحب تونس كان يبعث مقدارا من الزيت لاعانة عسكر المسلمين بالجزائر ، والآن إبْنُه امتنع » . وكان الزيتون قليلا في الجزائر يومئذ لقلّة آمال الناس لسبب العدوان على أموالهم ، فبعث السلطان رسولا مخصوصا في النازلة من أهل القلم ، بمكتوب يحرض فيه على وصل الأُخوّة الاسلامية بالتعاون على البر ، فقال للرسول : « ان أهل المملكة أبَوْا ذلك ، وأنفوا منه ، ورأوه ضريبةً ، ونجمعهم لتسمع جوابهم » ، فجمع من الغد رجال الدولة ، وأعيان الجند ، في بيت الباشا بباردو ، وأحضر الرسول ، وقال لهم بحضرته : « لا بأس باعانة اخواننا المسلمين بشيء من الزيت ، وهو لا يضرُّنا ، لا سيما وقد نَدَبَنا مولانا السلطان لذلك ، وهذا رسوله » ، فأجابه أبو الحسن علي بلهوان ، من أعيان الجند ، وكان يومئذ خليًّا عن خطة : « لا يقع ذلك أبدا ، وان كان لك زيت يخصّك فافعل به ما شئت ، أما هذا الزيت فهو للبلاد ولا نظر لك فيه الا بالمصلحة ، وأي مصلحة في اخراج شيء من بلادنا لقوم يرونه ضريبةً علينا ، والسلطان أولى منا باعانة المسلمين » . فأعاد عليهم الكلام ، فأجابوه على لسان واحد بالامتناع ، فأعاد عليهم الكلام فقالوا له : « السلطان أولى منّا باعانة المسلمين ، ونحن منهم ، لا غناء لنا عن اعانته » ، وعلت أصواتهم ، فقال له الرسول : « لا فائدة في اعادة الكلام ، الا إلجاؤهم الى سوء الادب ، وحسبك أن تكتب للدولة بامتناع الناس ، وعلي أن أبلّغ ما وقع بمحضري » .

ومن أخباره أنه يكره السرف في غير مصلحة معتبرة ، حتى نسب الى شُحٍّ ، ولا شك أنه من الامانة ، لان ما في يده من المال هو في الحقيقة لمصالح العباد والبلاد ، لا لشهواته ، ويقول في مجالسه غير مرة : « ندمت على بناء دار القصبة — وهي الدار المنتفع بها الى الآن — وعلى بناء قصر منّوبة اذ لا يعود على البلاد منهما نفع ، بجلب مصلحة أو دفع مضرة ، سوى ما يظهر للرائي من فخامة المبنى وحسن المنظر » . ولقد كان يوما في قصر منّوبة يتنزه ، فجمع مشتَرِي ثمرِ النارنج الحلو مقدارا كثيرا بالبطحاء

قبل جعله في الاحمال ، فأعجب بكثرته اعجابا كثيرا ، فقال له وزيره سليمان كاهية ، منكرا عليه كثرة الاعجاب : « اذا أتانا العدوّ نرميه من مدافعنا بهذا البردقان » ، فتنفس الصّعداء وقال : « والله لولا قبح الأحدوثة في الجمع بين خسران البناء وخسران الهدم لهدمته الآن » .

ومن أخباره في ذلك أنه صنع وليمة لختان أبناء أخيه وأخته ، وباشر بعض لوازمها نسوةٌ من اليهود ، ولما حان دفع أجرهن قالت له أمه — وكان بارًّا بها — : « هؤلاء اليهوديات خدمن في دار التّومي الشوّاشي ، وأخذن أجرهن ثلاثمائة ريال » ، فقال لها : « لسنا مثل دار التّومي » ، فقالت له : « نعم ، أنت باي البلاد ، والتّومي رجل من أهلها » ، فقال لها : « ليس هذا مرادي ، وانما المراد أن التومي يتصرف في ماله كما يحب لانه ثمرة عمله ، وتلاد آبائه ، والمال الذي تجول فيه أيدينا ، ليس لنا ، بل هو للمملكة وأهلها ، ونحن وكلاء ، فليس لنا الا ما للوكيل من التصرف بالمصلحة » .

ومن أخباره الدالة على وفور عقله ، أنه لا يفتح أذنا لاطراء المادحين ويقول : « من مدحك بما ليس فيك ، جدير أن يذمّك بما ليس فيك ، وأنا أعلم منه بنفسي ، وحالة بلادي ، وتصرّفُ الملوك تابع لحال المملكة ، ويقبح بالانسان أن يجهل مقداره ويتعدّى أطواره » .

كلّمه وزيره يوسف صاحب الطابع في مصلحة ، واستدل عليها بعمل اسلامبول ، فقال له : « أنت عندي أعقل من هذا ، تونس تونس ، واسلامبول اسلامبول ، أعطني عُشُرَ دخلها ، وأنا أُريكَ كيف أصنع ، ومن شرط القياس المساواة » .

وكلّمه مملوكه مريان في أمر له تعلّقٌ بنبليون الاول ، فقال له : «أنا أعلم منك بمقام نبليون ، وما يجب في سياسته ، وعلى كل حال فأنا الآن لا أخشاه ، لانه مشغول بما هو أهم عنده وأعظم منّا ، ولا تصلنا النوبة الا بعد أن يتهنّأ من دولة آل عثمان ، وأين تونس من الممالك المتصدي لحربها نبليون ، وأنا لا أجهل قدري ولا أغالط نفسي ، وهو أعظم من أن يظنّ بنا عدم الاكتراث به » .

وله في حب الوطن ، وهداية أهله الى طرق النجاح ، آثار مشهودة ، منها أنه لا يتباهى الا بعمل البلاد ، من لبس نسجها شعارا ودثارا ، كنسج سوسة والحمّامات والجريد وجربة ، وما يصنع بالحاضرة من نسج الحرير الصرف والمختلط .

ولقد أصبح في يوم عيد بموكبه على سرير إمرته ، وعلى رأسه طيلسان من عمل جربة ، فكلّمه خاصّتُه في ذلك فقال لهم : « هو عندي أفخر من الكشمير المجلوب، لان ثمنه لم يخرج من البلاد » .

ولما رآه وزيره رئيس الكتبة أبو عبد الله محمد الاصرم ، اختفى حتى نزع طيلسانه الكشمير ، واستعار طيلسان الشيخ أبي الحسن علي الغزّاوي شيخ مدرسة باردو ، لانه من نسج جربة .

ودخل عليه في اليوم أعيان التجار والشوّاشية يهنّئونه بالعيد ، فخجلوا حين رأوه ، والناس على دين أميرهم ، وعلموا غور الرجل .

ولم يلبث أن اقتفى الناس اثره في ذلك ، سمعت من أبي الربيع سليمان بن الحاج ، وكان من أعيان عمّاله ، قال : « دخلت المحكمة في مبادىء خدمتي بكسوة ثمينة وحزام محلّى ، فنظر إليّ نظرَ غَضبٍ ، وكرّر النظر إليّ ، فتحيّرت ، ولما انفضّ الديوان تقدمت اليه وقلت له : يا سيدي انك نظرت الي اليوم نظر غضب ، ولم أعلم ذنبا ، وها أنا بين يديك ، فقال لي : ذنبك سوء تدبيرك لنفسك ، فلو لبست ما يقيك ولا ينافي مروءتك ، وجعلت فضل زينتك هذه في تجارة أو فلاحة تكسبك ثروة تتجمل بها بين أقرانك . والحلية للنساء لا للرجال ، وحلية الرجل ماله وأعماله » . فخرج يردّد النصيحة ، وبالغ في العمل بها الى أن توفي من الاغنياء .

ومن أخباره أنه يقول في مجالسه علنا ، ويشتهي أن يُنْقَل عنه : « لا أبغض احدا من أهل بلادنا الا البطّال الذي لا نفع فيه للوطن ، ولو برعي البقر » .

ويكره التصدق على الفقير القادر على التكسب ببدنه ويقول : « ان طلب الرزق بالاسباب الممتهَنَة لا يكسبه معرّة ، ولا مذلّة توازي مذلّة السؤال » .

وكان يباشر الفلاحة بهنشير المرناقية ، ويركب غالبا في كل أسبوع ، ليقتدي به غيره في مباشرة أموره ، لا للتكسب ، بل ربّما وسّع بها على الضعفاء من أهل تلك الجهة ، فكان يبيع لهم الحبوب والانعام لآجال واسعة ، بقيمة الحال ، ويسلّفهم عند الاحتياج .

وأقبلت الناس في دولته على الفلاحة والمتاجر والصناعات ، وكثر العمران ، ونمت الاموال ، وظهرت الثروة .

وكـانت البطالة في أيامه سُبّة . سمعت من الوجيه الرئيس أبي محمد حسونة المورالي وكـان من أعيان جند البحر ، قال : « استأذنت حمّودة باشا في السفر للتجارة ، وسافرت في مركب أملكه ، فتعرض لي مركب أنقليز فأخذني ، ولم يكن بينهم وبين تونس حرب يومئذ ، وألقونا على ساحل البحر ، فرأينا الحياة غنيمة ، فأتيت دار ملكهم لندرة ، وطلبت حقي ، ولم أعلم اسم الرئيس الذي أخذني ولا صفته ، وغاية ما علمت اسم المركب ، وكان مكتوبا في مؤخره ، وأن الصنجق أنقليز ، فكان من عدل هذه الدولة ان قدّمت وكيلها للمناضلة عن حقي في مجالس الحكم ، وبعثت الى سائر أماكنها التي تصنع فيها السفن ، تسأل عن اسم هذا المركب ، ولمن صنع وفي أي تاريخ ، واستعملت سائر الطرق الموصلة لاظهار الحق في النازلة ، والقوم من أهل الانصاف، فظهر أن هذا الرئيس توفي ، وثبت صدقي ، وألزموني يمينا على مصحف من القرآن العظيم ، في مقدار ما ضاع من المركب وما فيه ، فتحريت وحلفت ، وأخذت من مخلّفه قيمة ما ضاع لي ، وما صرفته لاظهار حقي ، وهذا شأن دول العدل . ثم خدمت مترجما في عسكر الانقليز لما توجّه لمصر ، وطالت مدة غيبتي . ولما رجعت أتيت الباي حمودة باشا ليأمر لي بمكتوب في مرتّبي من يوم قدومي ، على العادة ، ولما وقفت بين يديه قال له الحاج أحمد بن عمار ، باش حانبه : ان هذا غاب مدة في خدمة النصارى ، وأتى الآن يطلب تسريح مرتّبه ، فاستفهمني الباي ، فحكيت له القصة على طولها ، فأثنى على هذا العدل من هذه الدولة . ثم قلت له : يا سيدي ان ظهر لك طرحي من الجند فاني أتيت بأربعة عشر ألف ريال دُورُو عَيْنا ، دون ما معي من السلعة ، وهو فوق الكفاف ، فقال لي : لا نطرح أمثالك ، وقال للحاج احمد باش حانبه : لا تعيّر الرجال بالخدمة ، انما العار بالبطالة . وأمر لي بمكتوب في سائر مرتّبي مدة مغيبي ، وكان مبلغا وافرا . وقال لي : هذا ليس بعادة ، وانما نفعله معك ومع أمثالك من رجال الدنيا . وهبك خدمت النصارى ألست بمؤمن ؟ فقلت له : خدمتهم وأنا مؤمن ، ولا زلت مؤمنا والحمد لله » .

ومن أخباره أن له عناية بمعرفة أفراد الحاضرة بأسمائهم ، وصناعاتهم ، وحالاتهم ، بل مساكنهم وحوانيتهم ، ويتمدح بذلك . أتاه رجل من العطارين شاكيا بأن العشّار لم يقبل منه عُشُرَ قمحه ، وتعلل بأنه مَعيب ، فقال له : « انه من عين ما رزقني الله من الصابة » ، فامتنع . فقال له باش حانبه : « ان هذا من العطارين » ، فقال له : « نعرفه » ، وسمّاه وعيّن حانوته ، وهي الثالثة من رأس السوق . وبعثَ للعشّار من يقول

له : « لا تتسبَّبْ في مَسْكِ الغيث عنّا ، واقبَلْ العشر من الصابة على أي حال كان » . والعشّار يومئذ من خواصّه المقرَّبين ، مصطفى الارْنَـؤُوط . الى كثير من أمثالها .

ومن مـآثره أنه يحتمل الهفوة ، وتؤثر فيه كلمة الحق . سمعت من أبـي أن رجلا يقال له الحاج عتيق ، من أهل الدّخلة بالوطن القبلي ، وكان ذا مال ، اقتضى ما نُسِبَ اليه من الذنب عقوبةً ماليةً قدرها خمسون ألف ريال ، فعيّن من اختاره من الحوانب لاستيفائها منه ، وكتب بذلك أمرَه ، وأمر باحضاره من السجن فقال له : « قد سرحتك ، وتوجَّهْ الى خلاص ما عليك مع الحوانب المأمورين بالخلاص منك » ، فقال له : « ان كسب أمثالنا أنعام وحبوب ، وسُوقُها في هذا الشتاء كاسدة ، فأَنْظِرْني الى زمن الربيع لابيع فيه كسبي وأخلّصك ، ويبقى لي ما يسدُّ رمقي » ، فقال له : « لا بدَّ من الخلاص الآن » ، فقال له الحاج عتيق : « لا اله الا الله ، أنا صابر عليك الى يوم القيامة ، وأنت لا تصبر لي ثلاثة أشهر ، فقال له : « وكيف ذلك ؟ » فقال له : « لا بدَّ أن تُسأل يوم القيامة عن أخذ مالي ، وعدل الله لا يضيعني » ، فاسترجع وخاف سطوة القاهر فوق عباده ، وأمر والدي ، وكان واقفا بين يديه لختم تذاكر بيت خزنه دار : « ضع التذاكر ، واكتب له أمر إسقاط » ، فكتبه في الحين والرجل واقف ، فأخذه وختمه بنفسه وناوله اياه من غير واسطة ، وقال له : « ان عدت لمثل فعلك تكون العقوبة بدنية » . فخرج شاكرا داعيا .

ومن مـآثره ، أن الفقيه أبا عبد الله محمد الصفار ، شيخ القراء بحزب السبع (1) في جامع الزيتونة ، خرج لبيع غلة زيتونه بالوطن القبلي ، ولما رجع بالثمن ومرَّ بحمّام الانف ، وجد أفرادا من جند الترك يترقبونه ، فقاموا اليه ، وأنزلوه عن ظهر بغلته باجلال ، ومعه عبد له على حمار ، وأخذوا ما يحمله من المال ، ثم أركبوه وقالوا له : « ان فُهْتَ بكلمة قتلناك » ، فأتى الحاضرة بعد الغروب ، وكان أبـيَّ الضيم ، فبات يتقلب على جمر الغضا ، وأصبح بين يديه شاكيا . وكان من عادة أمثاله الاعيان تقبيلُ يد الامير عند الدخول عليه ، فلم يفعل ذلك ، ووقف في موقف أمثاله المتظلمين . فقال له باشن

---

(1) قراء الحزب الكبير المعروف بالسبع الذى يقرأ بمحراب جامع الزيتونة بعد صلاة الصبح ويختم فيه القرآن العظيم ختمة فى كل جمعة ، وهم يزيدون على المائة ، منقسمون الى سبع طوائف ، كل طائفة لها يوم من ايام الاسبوع (الباشى)

جانبه : « تكلم أيها الشيخ ان سيدنا يسمعك » ، فقال له الشيخ : « سيدك أنت ، أما أنا فلا سيادة له عليّ حتى يكون حاميا لديني ونفسي ومالي ، أينهبني جنده قرب الحاضرة ، وأدين له بالسيادة ؟ » ، ثم قص شكايته ، وقال له في آخرها ، لما يعلم من ميله لجند الترك : « ان لم تنصفني فورائي من ينصفني ، وهو الله الذي أقعدك هذا المقعد ، ونحن خلقه وعبيده » ، فتغيّر وقال له : « امكث بمحلك حتى نبعث اليك » ، وأخذ يفكر في المتّهمين من الجند ، وبعث الى الاختيارات بالقشل يسألهم عمن خرج للصيد في ذلك اليوم ، وحضّ جواسيسه ، واستعمل غاية الحزم والجهد ، حتى ظفر بهؤلاء المحاربين ، واستخلص منهم المال بعينه . وقتل من تكرر ذلك منه ، ونفى آخرين ، وضرب واحدا وسجنه ، وكان صغيرا ، وتوفي لقريب من هذا العهد ، وبعث الى الشيخ الصفار قبل مُضيّ أسبوع ، ولما وقف بين يديه قال له : « أن أمانتك في بيت خزنه دار ، فامض لقبضها » . ولما عدّها وجدها تنقص ستين ريالا ، وكانت أربعة آلاف ريال . فرجع له وقال : « بقي من مالي ستون ريالا » ، فقال له : « اعترف صاحبك بصرفها وقد قتل » ، فقال له : « خلصني من مخلّفه » ، فقال له : « أنا ندفع عنه ونتولى مخلّفه » ، وأمر له بها في الحين . ولما قبضها قال له مباسطا : « أتدين لي بسيادة الآن ؟ » قال : « نعم ، أدين بها لوجود شرطها » .

ومنها أنه حضر بين يديه متظلم من عامل فتغافل عنه ، وكانت عادته أن يتغافل عن شكاية المتظلمين ، ثم يأمرهم باعادتها ، ليستدل على قربها من الصدق باعادتها على نسق واحد ، من غير تناف ولا اضطراب ، وذلك من قرائن الاحوال . ثم أمر المتظلم باعادة الشكاية وتغافل عنه . وفي الثالثة ضرب الرجل سارية بالمحكمة وقال لها بأعلى صوته : « اشهدي لي أيتها السارية بين يدي ربي أني رفعت شكايتي لحمودة باشا فتغافل عنّي »، فارتاع واغرورقت عيناه وقال له : « أُدْنُ مني » حتى أجلسه أمامه مجلسَ نَجِيٍّ ، فرفع الرجل صوته بظلامته ، شأن كل مظلوم ، فقال له : « إخفِضْ من صوتك فها أنا أسمعك ، ووضع يده على رأسه وهو يقول له : « ها أنا أسمعك وهذه يدي على رأسك » ، حتى قرر قصته ، وفهمها ، وأنصفه . ولما خرج تابعه النظرَ حتى تجاوز السارية ، فقال له : « ارجع الى السارية وأشهدها بما عندك كما أشهدتها أولا » ، فرجع وضربها قائلا : « اشهدي عليّ ان حمودة باشا أنصفني » .

ومن مآثره رحمه الله أنه كان شديدا على العمال ، وغالبهم في هذا القطر التونسي موضع للشدة ، بشهادة الله . يأخذ في الشكاية منهم بالظنّة ، وشواهد الحال ، والقرائن الحافّة ، كأصحاب التّهم ، لتعسّر الثبوت على طرقه الشرعية . يباشرهم بسياسة تخرج الحقّ منهم ، ويستدل بفعل عمر رضي الله عنه .

وطلب من شيخ الاسلام أبي عبد الله محمد بن حسين بيرم أن يؤلف له كتابا في السياسات الشرعية ، فألف له رسالته المشهورة .

وهو مع ذلك يوليهم على مشارطة مالية ، المسمّاة بالاتفاق كما تقدم ، الا أنه لا يغفل عن مقداره ، ومقدار ما يبلغه من أخذ العامل . ولكل عامل شيعة في عمله ، وهم المشايخ والهواديك ومن على شاكلتهم ، يجعل لهم طُعمةً مما يأخذه ، سهمَ الكلب من المائدة ، فتجد هؤلاء يمدحونه بما ليس فيه ، الا أنه لا يلتفت الى مدحهم ، ويقول : « انه رطّب لهم السير » ، كنايةً على ما يجعل لهم من الطعمة .

وجلوسه انما هو لسماع الشكايات من العمّال الذين لا تمتدُّ اليهم يد غيره فيما يتعلق من (1) مباشرة أعمالهم ، ونوازل التعدي من الحرابة وقطع الطريق والسرقة وما أشبه ذلك .

أما نوازل المعاملات بين الناس فلا يسمعها بوجه ، لان نظرها للقضاة ان كانت بين المسلمين ، وللاحبار ان كانت بين اليهود .

ونوازل المتجر نظرها للعشرة الكبار ، وهو مجلس التجارة .

ونوازل الفلاحة لامنائها .

والجنايات الخفيفة يباشرها الداي بالحاضرة ، وله الرخصة في سجن الجاني بالكراكة(2) أو ضربه ثلاثمائة فقط ، واستمرّت هذه العادة .

وكاهية دار الباشا يباشر ما خفّ من الامور بضواحي الحاضرة الى وادي مجردة .

ويباشر آغة القصبة الغصب على الحقوق الثابتة بالرسوم ، مثل الديون عند مَطْلِها ، وكذلك آغة العسكر المعروف بآغة الكرسي ، فانه يخلّص الدين الثابت بحجة ، ولا يسمع من المطلوب بحجة جوابا ، لما يأخذ على ذلك من الاجر المسمى بالخلاص .

---

(1) كذا في خ و ع و ق

(2) الكراكة : كلمة تركية بمعنى سجن في ميناء يسجن فيه المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة (دوزي)

ولا يرفع لحضرة الباي الا ما تقصر عنه أيدي هؤلاء ، مع قلة جلوسه في المحكمة ، لانه يرى الامر وراء ذلك ، بخلاف من جاء بعده ، فان غالبهم يرون الجلوس بالمحكمة هو معنى الولاية وشعار الملك وأُسّ السياسة .

وكان رحمه الله يعزل العمّال على غير ذنب ، اذا اتفق أهل العمل على الشكاية منه ، ويقول للعامل اذا طلب بيان ذنبه ، مقالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « أما يكفيك انهم شكوك وأنت اسمك قائد أي تقود بالسياسة القلوب الى الطاعة ، واذا لم تقدر على سياستهم لنفسك حتى اشتكوا ، فكيف تقدر على سياستهم لي » . أما اذا اختلف أهل العمل بين قادح ومادح ، عمل بقول الاكثر منهم . وأكثر عمّاله على أعراب الخيام من الشوّاش (1) والاضة باشية الذين يقفون بين يديه في المحكمة ويسمعون شكايات الرعية من العمّال ، ويرون شدّته عليهم .

وكان له في غالب العروش أعيان من مشايخهم وأبناء زواياهم ، يعرف أشخاصهم وأسماءهم وأحسابهم ، ويسميهم في جموعهم كمحمد بن السبوعي في جلاص ، وقظوم ابن محمد ، مَشْوَى القِبرَى ورجل الفراشيش ، وأمثالهم ، يسترشدهم في مصالح قبيلهم ، حتى يرى القائد أنهم شبه العيون عليه .

ولهؤلاء الاعيان منزلة عند الوزير ، يستبطن بهم أحوال العمال والرعية ، ويكسوهم ويحسن اليهم ، فتجدهم لا يكتمون النصيحة ولا تؤثر فيهم الطعمة ، خوفا من سقوط منزلتهم .

وكان لا يعزل شيخا الا اذا شكاه الاكثر من اخوته ، ولا يعزله بقول العامل انه غير صالح ، ولا يوليه الا باتفاق الاكثر من اخوته . فالعامل يحرس الرعية من تعدّي المشايخ ، والمشايخ يحرسونها من تعدّي العمّال . واذا اتفق القايد والشيخ بسبب تلك الطعمة ، صاحت الرعية ، فتجد الاذن الراعية .

وقد أولى على عرش أولاد عون حانبه من عجم الترك اسمه أحمد الليالي ، فأحسن السيرة فيهم ، وبقي بمخيّمه بين أظهرهم بضع عشرة سنة ، وتخلق بأخلاقهم البدوية ، وساسهم للعمل في الارض ، وحضّهم على التكسب المعقول ، ومحا من رؤوسهم أنفة الكبر ، حتى أحيَوْا مَوَات وطنهم ، وربط وَادِيَهم ، وكان يعمل فيه بنفسه ، وربما

(1) ج شاوش وهي من التركية : جاوش ، ويكتبها المصريون جاويش وشاويش (دوزى)

تبعه بعض العقلاء من المشايـخ فزرعوا على مائه البقول والمقاثـي والثمار ، حتى تمرنوا وذاقوا حلاوة الكسب . وغصب أهلَ الصحّة على الاعمال البدنية ، فقلّت الجرائم وقلّت بقلّتها العقوبات المالية التي كان للمشايخ سهم منها . وغضّ طرفه عنهم وعمّن كان على شاكـلتهم ، فغصّوا منه بالريق ، لما يألفونه من طعمة العمّال . وهو لم يأخذ زائدا من أهل العمل حتى يطعمهم منه ، وحسبه الفلاحة والاستعانة بالرعية على أعمالها برضاهم ، مع إطعامهم الطعام . ويقرض الحبوب للضعفاء منهم في المساغب وعند الحاجة . فلاذ المشايخ باخوتهم وأفسدوا رؤوسهم وقالوا لهم : « ان هذا الرجل اتخذكم أجراء لعمـل فلاحته ، وألبسكم معرّة بين العروش » ، الى غير ذلك من شر الوسواس الخنّاس ، حتـى حنّوا الى ما تخلّقوا به ، والرجوع الى الاصل بأدنى سبب ، فصاحوا بالشكـاية منـه مع المشايـخ ، فقال الباي للمشايـخ : « لا بدّ من بيان ذنبه » ، فأجابوه على لسان واحد : « لا ذنب له سوى أننا ملـلْناه وملّ منّا » ، فتقدم التركـي وقال للباي : « ان القوم ربحتُ منهم وربحوا مني ، ولا بد من الفراق في الدنيا ، وأحسنه ما كـان على وجه جميل ، ولا أجمل من اعترافهم في هذا الديوان بأن لا ذنب لي ، وقد سلّمت في ولايتهم » . وقبّل يدَ الباي ، ورجع فوقف بصفّ الحوانب .

وتولى عليهم غيره ، فأخذوا القهقرى ، بعد أن كـانت قبيلتهم تركـب نحو الالفـي فارس ومع كـل فارس راجل ، وجميـع سلاحهم محلّى بالفضة . وفقدوا الخيل المسوّمة والانعام والحرث . والله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وسمعت من بعضهم أن والدي قال لبني عمه منكـرا عليهم : « بشّروا قومنا بالندم والخيبة ، ومن كـفر النعمـة استوجب النقمة » .

وبهذا ترى أن مشايـخ العربان والعرفاء منهم ، لا ربـح لهم الا مع جور العمّال ، لاجل تلك الطعمة التي يشغلهم بها العامل عن حراسة اخوتهم . وسمعت من أعيان بعض المشايـخ أنهم لا يعيشون الا اذا كـان العامل جائرا .

فانظر أسبـاب الخراب والنقصان في أهل هذه الاقطار من المسلمين .

ومن أخباره أنه لا يولي على القبيلة عاملا منها ، لانه يُؤثِر قرابته ، وتتقـوى بهم شيعته مع المشايـخ والهواديك . وقد طلبه سعد المِجـْهـِد ، وكـان سايسا (1) وجبها حظيّا عنده ،

---

(1) اي سائسا

أن يُوليّـه عمـل أولاد عيّـار ، فقـال له : « انظر غيرهـا ، فـلا أوليـك على قبيلـة أنت منها » .

ومن أخباره أنه يمنـع العمال من السكـنى في غير أعمالهم ، ولا يفارق العامل عمله ، ولو للحاضرة ، الا بـاذن خاص محدّد بمدة ، عدا عمل الاعراض ، فان صاحبها يسافر اليها بمحلة في كـل عام ، ويقيم بها ثلاثة أشهر فأكـثر ، حتى يستوفي خلاص الجباية ، وعملَ الوطن القبلي لقرب بلدانه من الحاضرة ، وان كـانت قاعدة العمل بنابل ، وصاحبه يخرج اليه في كـل صيف وشتاء ويقيم بنابل ، وعامل الوسالتية والطرابلسية ، اذ لا وطن لهم لتفرقهم في البلدان والقبائل .

وبقيت هذه العادة الى حدود سنة ستين ومائتين وألف 1260 (1844 م) .

ومن مـآثره عنايته بفرسان الجند من الحوانب والصبايحية والمزارقية بالعروش ، وكـانت أوجاق الصبايحية في دولته أربعة فقط ، وجق بتونس وعليه باش آغة وكـاهية وباش خوجة ، ووجق بالقيروان وعليه آغة وكـاهية وخوجة ، ووجق بالكـاف مثله ، ووجق بباجة ، على شرط أن كـلّ كـاهية يسكن ببلد وجقه على أهبة ، ويمرون أمامه فـارسا فارسا في كـل عام ، ولا أقلّ من خمسمائة فارس في كـل وجق . وكـان في سنين الجدب يزيد صاعا في علفة كـل فرس ، ويقول : « لا تطيب نفس الفارس أن يعشي فرسه ، وأهلُه بالجـوع ، وتتعسر عليّ عقوبته ان رأيت فرسه هازلا » .

وأما المزارقية : فله في غالب العروش فرسان عددهم بنسبة عدد القبيلـة ، يسمّون مزارقية نسبة للمِزْرَاق وهو عود السنّان . ولهم نزر من المرتب يأخذونـه من جباية اخوتهم ، ولا جبايةَ عليهم . ودفتر أسمائهم وأعدادهم بيد الشيـخ باش كـاتب ، ويعرضون أهبتهم وخيلهم وسلاحهم في كـل شتاء على كـاهية المحلّة . وهم أشبه بالصبايحية ، يستنفرهم مهما عرض له حرب ، فيأتون ومع كـل فارس منهم ترّاس (1) في خيامهم ، ولا يتكـلف لهم المؤنة ولا العلف . والقائم فيهم مقام كـاهية الصبايحية هو قـايد ذلك العرش ، وهم حاميته وأعوانه في عمله ، محترمين احترام الصبايحية . وبهؤلاء دافع أهلَ الجزائر عن الحاضرة ، وطوّع العاصي وخافـه القاصي لانه بالمرصاد منهم ومن خيلهم . وكـان يعرف خدمتهم وينيلهم من عنايته بمقتضاها .

---

(1) تـراس : راجل ، عسكر تـراس : العساكر المشاة (دوزى وبوسيه)

اشتكى بعض أعيان العمّال المقربين لديه من دار ابن عياد فارسا من الحوانب أساء عليه الادب ، وقال في شكايته : « يتجاسر عليّ وأنا خديمك » ، والمشكو حاضر ، وكرر المشتكي قوله « وأنا خديمك » . فقال له : « وهو أيضا خديمي » ، فقال العامل : « منزلته عندك كمنزلتي ؟ » فقال له : « نعم ، وهو أنفع ، لانه يبيت في حراستي تحت أديم السماء ، وأبعثه الى الموت فينبعث ، وأنت أشبه الناس بتاجر يشتري الغلّة في أشجارها ، ان رأيت ربحا قدمت والا تأخرت ، وهو الحارس للشجر مثمرا أو غير مثمر » ، وقال للحانبة : « على كل حال لا بدّ من تأديبك لسوء الادب » ، وسجنه . وفي اليوم تشفع فيه المشتكي فسرّحه . سمعت ذلك من الوجيه أبي عبد الله محمد بن حميدة بن عيّاد .

وبذلك تمرّن خدّامه على سياسة الاعمال ، وكثر عددهم . فكان الحانبة في دولته يصلح أن يستكفى به في سياسة عمل، أحرى مَن فوقه، لانه يعلم أن النجابة تقدّمه وعدمَها يؤخره ، اذ لا سبب للتقدم في دولته لنيل الرتب والحظوة الا الاهلية لان دولته طالبة للتقدم ، ومطلوبة من الجزائر ، كما أشار لذلك (1) وليّ الدين ابن خلدون في مقدمة كتابه (2) .

وله في أزمنة المساغب آثار مأثورة ، وحسنات مشكورة ، وعنايات مذكورة ، من جلب المِيرة من أقاصي البلدان ، وبيعها بأقلّ من ثمنها ، دون ما يعطيه للعاجزين من الفقراء بلا ثمن . وكان يخفف عن العربان في الجباية ، وربما يسقطها في سنينِ الجدب . وبهذا وأمثاله دانت له قلوب الناس وأُشْرِبوا حبَّه .

وفي دولته رجع للمملكة عمرانها ، بل زاد ، بعد تلك الحروب المتقدمة زمن أبيه وجدّه ، وما وقع من نهب البلاد واباحتها مرارا ، كما تقدم تفصيل ذلك .

ومن مآثره احترام الاحباس مطلقا ، لا سيما أحباس الحرمين الشريفين . فقد كان يؤتى له بفاضل دخلها ، وله صندوق معَدٌّ له ، في محلٍّ على حدة يباشر وضع المال فيه واخراجه منه بنفسه ، ويراه خدمة لحرم الله ورسوله ، ولمفتاح هذا الصندوق ظرفٌ أخضر . واتفق أن لزم الوزيرَ صرفُ مال ، ولم يكن حاضرا عنده ، فقال للباي : « نتسلفه من صندوق الحرمين ونردّه اليك بعد عشرة أيام » ، فاقشعرّ بدنه وقال له : « سألتك بالله أن

(1) اى لهذه النظرية

(2) خ ل : 328

تزيل هذا الخاطر من فكرك ، وترك هذه المصلحة الضرورية التي أقدمتك على طلب السلف من مال الحرمين أهون عليّ ، وأنا أتحرج من سكنى الداي بالدار المعدّة لامثاله ، وهي من أوقاف الحرمين ، بأجر معيّن لا يزيد ، وقد حالت الاسواق وزادت اجارات العقار » ، فكفّ الوزير عن ذلك .

ورأيت في حاشية العلامة المحقق شيخ الشيوخ أبي محمد حسن الشريف على شرح لامية الزّقّاق ، عند ذكر صرف فواضل الاحباس ، بعد استقامتها ، في وجوه البرّ ، ونقل جواب العُقْباني المرجّح لذلك ، اعتمادا على قول أصْبَغ وابن الماجَشُون ، وبه أخذ القاضي ابن رشد ، ما نصه : « ولقد بلغني عن الامير أبي الحسن علي ابن الامير حسين أنه أخذ من وفر حبس الجامع الاعظم سبعة آلاف ريال ، وذلك بسعاية وكيله أبي الحسن علي وِيْشكَة الاندلسي ، كما بلغني عكس ذلك عن ابنه الامير أبي محمد حمّودة باشا ، فقد أتى اليه وكيل السيد الصاحب بسبعين ألف ريال من وفر أحباس السيد المذكور ، فامتنع من قبولها وأمر بمصرفها في سبيل الخير . فجزاه الله خيرا وكفاه ضيرا » . اهـ .

وفي أيام هذا الباي وقع في أطراف الحاضرة خراب سببه الاوبئة والقحط ، فأمر أرباب العقار باصلاح الخراب أو البيع ان عجزوا ، وغصبهم عليه لدفع الضرر ، فتحيّل بعضهم بتحبيسه ، فاحْترمه احترام الاحباس ، وأمر القاضي الحنفي بنهي الشهود عن كتب تحبيس في عقار الا عن اذنه . فصار من يريد التحبيس يطلب اذنا من الباي للقاضي ليأذن العدول بكَتْبه ، بعد أن يَثبت لديه أن العَقّار لا خراب فيه ، وأنه على الحالة الكاملة المنتفَعِ بها .

ومن مآثره تعظيم الشريعة المطهّرة ، والوقوف عند حدودها في المعاملات . فأقام وكيل الخصام ببيت المال وكيلا عنه ، طالبا أو مطلوبا ، يأتي المجالس الشرعية ، ويساوي الطالب للباي في التناصف ، اقتداء بأبيه وجدّه . وقد كان الملتزمون لهناشر الدولة يتعدّون على مجاوريهم بالاستيلاء على أطراف أرضهم ، بدعوى أنها للدولة ، ولاقى الناس من ذلك ضررا ، فصاروا يطلبون وكيله ويحاكمونه وينتصفون منه ، وهو ينظر ، مسلّما غير متحرّج .

ومنها أنه حكّم المذهب المالكي في ثبوت أهلّة الشهور . وكان يشقّ على المته من مقلديه تقليدُ المذهب الحنفي ، حتى كانوا يصومون أو يفطرون سرًّا ، اذ ا

ثبوت ذلك على مذهبهم ، وهم السواد الاعظم . فقال : « كلهم على هدى من ربهم ورحمة ، ويسعنا تقليد امام دار الهجرة ، لاسيما وأهل مذهبه أكثر أهل المملكة » ، فأمر القاضي المالكي أن يباشر ذلك ، ولم يزل هذا الامر ليومنا هذا .

وأخبار هذا البـاي مشهورة منشورة مشكورة ، هـي سمر شيوخ المملكة وعجائزها . واستقصاؤها يستدعي كتابا مطولا . وما وقع في دولته من الحرب ، انكشف عن تفريج كـرب ، وتأمين سـرب .

ولم تزل المملكة في أيامه ينمو عمرانها ، ويكثر سكانها ، وتتقوى أعوانها ، وتظهر أعيانها ، ويعظم شانها ، الى أن فجعت بموته فجأة ، ليلة الجمعة ، عيد الفطر من سنة تسع وعشرين ومائتين وألف 1229 (16 سبتمبر 1813 م) .

فكانت مدة ولايته ثلاثا وثلاثين سنة ، وثلاثة أشهر وأياما ، مرت كـليالي السرور ، وهـي تمام سن الشباب في هذه الدولة .

وحزنت المملكة لفقـده ، وبكته العيون ، وساءت الظنون ، ولاذ الناس بنعشه يحملونه على رؤوسهم ، يتمنون فداءه بنفوسهم .

ودفن بتربة أبيه ، وانطلقت ألسن الشعراء في مراثيه ، وتعداد مـآثره ومعاليه .

وطار المبشر بخبر وفاته لصاحب الجزائر ، فقال له : « هل مات يوسف صاحب الطابع ، وسليمان كـاهية ، وهل تبدلت رجال دولته ؟ » فقال : « لا » ، فقال له : « لم يفقد الآن من تونس الا شخصه ، ولا يموت مثله ، الا اذا تبدلت رجاله الذيـن قارَعنا بهم » . هكـذا يقال ، من تلوين المقال ، والله أعلم بالحال .

وكل نفس ذائقة الموت . رحمه الله وغفر له ، وتقبل عمله .

الباب الثاني

في دولة

أبي النور عثمان باي

ابن الباشا علي باي بن حسين باي بن علي

مولد هذا الباي ليلة الجمعة الرابع عشر من ذي القعدة سنة ، ست وسبعين ومائة وألف 1176 (27 مـاي 1763 م) ، وأمه جارية ، ونشأ في حجر أبيه وأخيه من بعده ، فكان يركب معه ويقف بين يديه وقوف غلمان الخدمة ، على العادة المقررة في هذا البيت من وقوف الصغير عند أمر الكبير .

ولما توفي أخوه فجأة ، ليلة عيد الفطر من سنة تسع وعشرين 1229 ، كما تقدم ، ورجال الدولة مجتمعون بباردو على العادة في ليالي الاعياد ، ودهمهم ما لامردّ له ، وطاشت عقولهم ، وكان ممن حضر تلك الليلة الشيخ المفتي أبو العباس أحمد البارودي خطيب جامع باردو ، والوزير أبو عبد الله محمد العربي زروق ، والوزير أبو عبد الله محمد الاصرم رئيس الكتّاب ، ورئيس الحوانب أحمد بن عمّار ، والقائد حميدة بن عياد ، وغيرهم من أهل الحل والعقد ، وعمتهم المصيبة ، وأدهشهم الحزن على بغتة ، قام الشيخ المفتي البارودي — وكان ثابت الجنان — وأتى الوزير يوسف صاحب الطابع ، وهو جاثم عند أقدام سيده ، يبكي ، فقال له : « ان هذه الامة وديعة الله عندك في هذه الساعة ، والله يسألك عنها ان حدث بها حادث فتنة ، والشوكةُ بيدك . والصحابةُ قدّموا الاجتماع على إمامٍ قبل مُواراة جسد المصطفى صلوات الله عليه . ولِلبُكاءِ والحزنِ أمدٌ طويل » . وأخذ بيده وأقامه ، واجتمع عليه رجال الدولة ، ومن في باردو من الجند ، فبعث الى سائر آل سيده ، صغير وكبير ، وأدخلهم مسجد بيت الباشا ، وعزّاهم ، ثم قال لهم : « اختاروا من أنفسكم من يتقدم للبيعة ، اذ ليس لنا ولي عهد » ، فوجموا ، وفيهم أبو الثناء محمود باي بن محمد باي ، وهو أكبرهم فقال لهم : « الامر واضح » يعني من تقديم الاسَنّ ، « والخيار لكم فيمن تقدمونه لانفسكم » ، فقال الوزير صاحب الطابع : « الميّت يرثه أخوه » ، وقام الى عثمان باي ، فبايعه ، وتابعه الناس .

وَأَلْقَى جسدَه على كرسيٍّ في وسط بيت الباشا ، وأخوه وراءه مُلْقًى في موضع منيّته ، ودعا الحاضرين لبيعته .

وبعث من رجال الدولة أعيانا باتوا بالحاضرة ، وبعث الى الداي وأعيان الجند .

ومن الغد أجلسه بصحن البرج ، وبايعه الناس البيعة العامة ، وسليمان كاهية يومئذ مسافر بالمحلة لباجة .

وأقر رجال الدولة على أسماء مراتبهم ، وزاد في مرتب الجند .

واستكان ابن عمّه أبو الثناء محمود باي ، ولم يدرِ سرّ العدول عنه ، مع سنّه وعدم كفاءة من قدّموه ، فصبر على داء دفين ، وبقي يتربص إمكانَ الفرصة ، ولم يكن لمن قدّموه من الخلال المقتضية للامارة سوى أنه ابن علي باي .

واستبد به الوزير أبو عبد الله محمد الاصرم رئيس الكتّاب ، وباش حانبه الحاج أحمد بن عمار ، لتدبير ملكه وتنفيذ أمره بالمحكمة ، لانه ممن يرى أن الجلوس بها هو معنى الملك ، شأن المستضعفين من الرجال .

واصطفى الشيخ الامام الفقيه أبا الثناء محمود بن باكير ، وأشركه في مشورته ، لصحبة بينهما من المسجد أيام أخيه .

ولازم الجلوس ببيت الباشا ، واتخذ لبابها ساترا ، لا يدخل عليه أحد الا اذا رفع ذلك الستر ، عدا من استبدّ به ، شأن المستضعفين في تغليظ الحجاب ، اذ لا ساتر لهم سواه .

واذا أتى المحكمة يجلس ساكتا لا يفوه ببنت شفة ، وستر السكوت كستر الحجاب ، وباش حانبه يسمع ويلقي اليه ويأمر ، وإذْنُ الباي صَمْتُهُ .

ثم عتق مماليك أخيه ، وخيّرهم بين المُقام معه بباردو أو الانتقال الى الحاضرة . فخرج منهم من خرج مثل سليم خوجة ، وبقي من بقي عند الوزير يوسف صاحب الطابع مثل أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع ، فانه اختار الخروج ومنعه الوزير اغتباطا به . وأضافه لخدمة ابن المتولي أبي الفلاح صالح باي ، وحظي عنده .

وفي السادس عشر من شوال (السبت 1 اكتوبر 1814 م.) قدم الوزير سليمان كاهية بالمحلّة ، وبايع الباي ، وامتزج به وبابنه صالح باي ، وقرّباه واعتضدا به .

وفي الثامن عشر من الشهر (الاثنين 3 اكتوبر 1814 م.) ، ظهر للباي أن يقدّم الوزير يوسف صاحب الطابع لخطة خزنه دار ، وألبسه شعارها على عهد أبيه ، فوليها كرها ، لانه تقريب وتنويه في الظاهر ، وتبعيد في نفس الامر .

وقد كان أخوه حمودة باشا أبطل اسم هذه الخطة ، وباشر مسمّاها بنفسه مع وزيره أبي المحاسن ، كما أبطل اسم كاهية دار الباشا ، وأقام فيها الحاج حسن آغة

مباشرا لمسمّاها ، توفيرا وحفظا لمال المملكة عن اضاعته في خطط لا احتياج لها ، شأن أهل الحزم في الاعتناء بالمسمّى لا بالاسماء والالقاب الفارغة ، فذلك من شأن المستضعفين.

وفي الشهر بلغه أن أناسا اتّهموه باستعمال الدخان الاخضر ، وهو المعروف في بلادنا بالتكروري ، فأمر باحراق جميع ما في الحاضرة منه بشاطىء البحيرة ، وباشر ذلك الحاج أحمد باش حانبه ، وضاعت به أموال على أربابها ، وكان ذلك بموافقة رئيس الكتّاب . وبعد احراقه ، فيما زعموا ، أتى الوزير يوسف صاحب الطابع لهذا الباي ناصحا منكرا ، وقال له بمحضر صاحبيه : « يا سيدنا اتَّبِعْ سيرة أبيك أوْ سيرةَ أخيك ، أو اجتهد في سيرة توافق المصلحة ، وبَيِّنْها لنا ، لتكون خدمتنا على مقتضاها . ونخشى أن الناس اذا لم يكن لهم منهج مسلوك ينظرون لانفسهم ، والعامة اذا قدرت أن تقول ، قدرت أن تفعل ، وان حرق التكروري ليس كابطال الخمر الذي فعله والدك في آخر أمره ، لانها أمُّ الخبائث باتفاق المسلمين ، ولمّا رأى الناس لا يتحاشون دخول الحانات ، وهي من أملاك الدولة ، أبطل بيعها عَلَناً في الحانات ، وهو يعلم أن الخمر لا يمكن اجتثاث أصلها ، كيف وهي عند اليهود والنصارى ، وفي ديار بعض المسلمين تعصر وتستقطر ، وكان الاولى أن تنهى الناس عن زرع هذه الحشيشة بارض المملكة ، ومن زرعها بعد النهي فقد تعدّى ، فأحْرِقْ بضاعتَه حينئذ ، أمّا أربابها الآن فقد ضاع كسبهم ، من غير شعور عندهم بنهي ، ولا فائدة لك في ذلك ، وفائدة ذلك انما حصلت لباش حانبة ، لان من يعطيه الدراهم يتغافل عنه ، ومن لا يعطيه يحرق متاعه . وابعثْ من تثق به الى الحاضرة تَجدْ مخازن مملوءةً منه ، وأنا أعيِّنها له الآن ، والحال أنه أخبرك بأن لم يبق منه شيء بالحاضرة . وهلا اقتفيت سيرة أبيك في اجتماع المجلس الشرعي لديك في كلِّ أسبوع ، لانه كان يتأثّم من فصل النوازل برأيه فيجعلها للشريعة ؟ ولِمَ لَمْ يرشدك الشيخ باش كاتب لهذه المنفعة التي بها دوام الملك ، كما حسَّن لك حرقَ التكروري ، قياسا على ابطال أبيك لحانات الخمر ؟ » . فسكت حَيَاءً ، ولم يجبه .

وفي الرابع والعشرين من الشهر (الاحد 9 اكتوبر 1814 م) ، توفي الشيخ الامام المفتي أبو العباس أحمد البارودي ، فأمر بجمع المجلس الشرعي في غرة ذي القعدة ، وأولى شيخنا العلاّمة أبا العباس حميدة ابن الخوجة مفتيا ثانيا ، بعد أن كان قاضيا ، وشيخنا العلامة أبا عبد الله محمد بن محمد بن محمد بيرم مفتيا ثالثا ، وأولى القضاء بالمذهب الحنفي

للشيخ أبي النخبة مصطفى دِنْقِزْلِي ، وأولى الفقيه أبا الفضل قاسم ابن الشيخ الفقيه القاضي المختار المِنَسْكَبي خطة القضاء بباردو ، وسلّم فيها بعد أسبوع ، فأولى عوضه الفقيه أبا النجاة سالم المحجوب . وصار المجلس يجتمع بباردو كل يوم أحد ، على العادة السابقة .

وهذه المعارضة من هذا الوزير أبي المحاسن ، سهل بها الطريق الى السعاية به من المقرّبين للباي ، الا أنهم لم يقدروا على إزالته ، لرسوخ قدمه في الدولة ورجالها ، وانما قدروا على تبعيده ، وتعطيل النفع به ، حتى صار ينكر على رجال الدولة الاتيانَ لمحلّه ويقول لهم : « ان إتيانكم الي يضرّكم ، وانـي على يقين بما عندكم » .

وممن عُزل ومنع من الدخول الى باردو في هذه الدولة ، عبد الوهاب بن يوسف الشارنسي الاضه باشي ، لمكان وُصلته من الوزير ، سافر بين يديه بالمحلّتين بوظيفة باش حانبه ، وكان حمّودة باشا يؤثره من بين أقرانه ، وقدّمه في المحكمة نيابة عن الحاج أحمد بن عمّار باش حانبه ، أيام اشتغاله ببناء القشلة ، وغصّ من ذلك الحاج أحمد بن عمّار باش حانبه ، ولما خلا له الجوُّ وَشَى به ، لامتزاجه بأبي عبد الله حسين باي بن محمود باي ، وانه يُخشى منه ، الى غير ذلك مما يروج عند المغفّلين .

ولم يكن عند هذا الباي من السياسة الا الاقتداء بظاهر سيرة أبيه ، حتى في لباسه ولباس رجال الدولة . وغيّر الزيّ الذي كان على عهد أخيه ، ولم يحرّك فكره في شيء من مواقع القياس ، ولا في ما تقتضيه الحال ، شأن المستضعفين في جمودهم على التقليد المحض . فان أخاه أخا السياسة حمودة باشا ، لمّا تقدم على ابن عمه محمود باي ، أتاه الى داره وقال له : « ان الولاية لك وأنت الاحقُّ بها ، وضعف بدنك عن مشاقّ الاسفار هو الذي قدّمني ، وعلى كل حال ، فأنت بمنزلة أبي ، أعتضد بك ولا أتّهمك في نصح ، واذا لم تَعضُدْني أخشى خروج هذا الامر من بيتنا » . وبالغ في اكرامه وتعظيمه ، وتبنّى أبناءه ، وهم أبناء أخته ، وآثرهم على أبناء أخيه ، وأسند اليهم ظهره ، الى غير ذلك من الاخلاق التي تقود القلوب ، وتوصل الى الامل المطلوب ، مع ما فيه من الاهلية القاضية له بالتقدم ، بشهادة ابن عمه .

وهذا ، لمّا تمّ له ظاهر الامر ، غفل عن ابن عمه وأهمله ، ورآه مثل صغار البيت ، ولم يخصّه بمزية ولو قولية ، بل أخرجه من دار سكناه ، التي هي دار علي باي المعروفة

في باردو بالدار الكبيرة — وكان حمودة باشا آثَرَ بها أخته ، زوجَ ابن عمه محمود باي ، وكان يأتيها كل يوم ، صلةً للرحم — فانكسر قلب أخته مع بنيها . وليته اذ أخرجها أسكنها بمحل يأويها ، بل أخرجها من سعة الى مضيق ، وفقدت ما اعتادته من صِنْوِها الشقيق ، ورأت حالتها الفظيعة ، مقدمة جيش القطيعة ، حتى قال عالم المالكية وصدر الفتوى أبو عبد الله محمد المحجوب ، منكرا خروج بنت علي باي من دارها : « لو ثار محمود باي كنت أوّل ثائر معه بما أقدر عليه » ، اذ لا داعي لذلك الا تقليد أبيه في سكنى الدار ، مع ما فعل من تشريد خاصة أخيه وابعادهم ، وان لم يضرّ أحدا منهم في نفسه ولا ماله ، بل كان يجاملهم في الظاهر .

وقَصَرَ أمورَ الدولة على رجلين ، وترك بقية رجال الرأي والنجدة والبسالة في زوايا الاهمال ، فاشتغل كل واحد بخُوَيْصَّة نفسه كأنه من عامة الناس ، ونفرته قلوبهم ، وزهدوا في التقرب اليه .

واشتغل ابنه الاكبر بالركوب للمرناقية وغيرها ، ومعه سليمان كاهية ، لانه كان ممنوعا من الخروج من باردو الا مع عمه (كذا) .

وظهر الانحلال في دولته قبل استحكام روابطها ، وصار الناس لا يتحاشون من الكلام فيه والاعتراض عليه .

واختار أناسا لمسامرته ومجالسته ، ليسوا من أهل العلم ولا من أهل السياسة ، وان كانوا من أماثل الحاضرة . وكان أبوه يسامر العلماء وأهل النجدة والرأي من ذوي الخطط .

وفي غرة محرم من سنة ثلاثين 1230 (الاربعاء 14 ديسمبر 1814 م) ، مرض بدمّل في قفاه ، وكان المرض مخوفا ، فأتى ابنه أبو الفلاح صالح باي ، وكلّم الشيخ باش كاتب وباش حانبه ، في شأن العهد له من أبيه ، لما أحس بموته ، مع ما يعلم من استجماع محمود باي للوثوب ، فقالا له : « لا بدّ أن يكون معنا سليمان كاهية » ، فقال لهما : « قد وافقني في ذلك » ، فقالوا للباي : « الرأي أن تقدم ابنك سيدي صالح باي للسفر بالمحالّ ليكون وليّ عهدك ، وتقَرَّ عينك وعيوننا بتقديمه في حياتك ، كما فعل أبوك مع أخيك » ، فقال سليمان كاهية : « نعم الرأي هذا ، الا انه لا يتمُّ الا بموافقة الوزير يوسف صاحب الطابع واعانته » . ولم يجبهم المريض لاشتغاله بمعاناة مرضه . فاحضروا

الوزير صاحب الطابع ، وتكلموا معه في ذلك بأسلوب يقتضي تسليم المتولي ، وولاية ابنه من الآن ، فأجابهم بأن هذا الامر لا يتم الآن ، وقبل الاستدلال على جوابه عاجله سليمان كاهية بقوله : « يتمّ بالسّيف » ، فخاشنه الوزير يوسف ، وأغلظ له في الردّ ، وقال له : « ما كل موضع تستعمل فيه الشجاعة ، ومن الامور ما لا يحصل الا بالسياسة ، كهذا الامر ، ولو استعملنا السيف في كل أمر ، قامت الحرب على ساقها واضطرم نارها ، وعاقِبَتُها مجهولة ، والآذان صاغية ، وجواسيس الجزائر بالحاضرة ، يترقبون ناعق فتنة ، يطلب هذا الملك ، فرَاجِعُوا أفكاركم ، وغاية ما يحصل لنا الآن ، أننا خلعنا أميرنا في حال مرضه ، ارضاءً لابنه وبايعناه ، ولسنا على ثقة من حصول المراد ؛ فالواجب أن يبقى ما كان على ما كان ، فان برىء سيّدنا قام بخطته ، ويرشح ابنه شيئا فشيئا كما فعل أبوه ، وان كانت الاخرى يرثه ابنه » ، ثم دنا من المريض وقال له : « أترضى أن تخلع نفسك لابنك ، ويمكن أن يكون فعلك سببا لفتنة في مملكتك ، ومملكة أسلافك ؟ » فقال : « معاذ الله أن أرضى بذلك » . وانفضّ الجمع على غير طائل .

وخرج الوزير مشفقا على نفسه ، وحكى ذلك لكاتبه وصاحب سرّه الحاج بالضياف والد العبد الحقير ، وفاوضه في الهروب لمنجاة نفسه ، فثبطه الكاتب بأن « العجلة من الشيطان ، وهذا الباي سليم الصدر ، غير مقدام على الظلم ، ولا غنى للدولة عنك » ، فأجابه الوزير بما محصله : « انك صاحب أهل وأولاد يتعذر عليك فراقهم ، ولا تدري ما يقع بهم ، وأنا توفي أعزّ ما عندي وهو حمّودة باشا ، وليس ورائي ما أخاف عليه » ، فقال له الكاتب : « أما هذا فلا ، فانني والله أولُ رفيق لك ان صمّمت على الهروب ». ويقال ان الوزير كان يقول بعد ذلك لاصحابه : « هذا هو الذي تعرّض لي في الهروب» ، ويشير الى الكاتب . وبقي بعد هذا الفكر ، يقدّم رجلا ويؤخّر أخرى ، لسابق قدر محتوم .

ونمى هذا الخبر الى أبي الثناء محمود باي ، مع علمه بانحلال الدولة وتفرّق الحامية ، ولم تكن يومئذ حامية من الجند لذات الملك ، سوى عسّة الحوانب والصبايحية والمماليك بالسقيفة . وقد كان دبّر في الفتك بالباي مع الوزير أبي عبد الله محمد العربي زروق ، وآجَرَ أفرادا من زواوة وغيرهم ، وكمّنهم بداره ، والوزير يعلم ذلك هو وغيره . ونمى خبرُهم لصالح باي ، فأتى أباه ، وأخبره الخبر ، فاستبعده بل استحاله ، فقال له : « مُرْني أن أدخل الدار لاحقق الخبر » ، فمنعه .

ولما بلغ ذلك محمود باي ، انتهز الفرصة ، وخرج ليلا من داره بمن معه ، ومعه أبناؤه ، ولم يمرّ على مواضع العسة . وكان ذلك ليلة الاربعاء تاسع محرّم سنة 1230 ، ثلاثين (21 ديسمبر 1814 م) . واقتحم على الباي عثمان بيته ، وهو في فراش مرضه ، فضربه بالرصاص وخرج ، فبلغه أنه لم يمت ، فبعث ابنه أبا النخبة مصطفى باي فأجهز عليه . وخرج لمن يدافع عنه بصحن البرج ، فقال لهم : « ان صاحبكم قد مات ، ولا سبب للقتال بعد موته ، وعليكم أمان الله ورسوله » . وكان يومئذ للامان اعتبار وأي اعتبار ، لانه آخر حيلة للملوك الاطلاق .

وممن دافع عنه الوزير سليمان كاهية بمن معه في بيته ، والوزير مصطفى صاحب الطابع ، يضربون الناس من كوى بيوتهم ، وماتت منهم أفراد .

وفي هذه الليلة أبلى أبو عبد الله حسين باي البلاء الحسن ، وظهر صبره وتجلّده لحبّ الرصاص ، ودافع عنه الاجل ، وكان من الشجاعة بمكان .

سمعت من شقيقه الباشا أبي النخبة مصطفى باي ، قال : « لمّا خرجنا ليلا وصرنا بالممشى ، طرقني مرض الخفقان المصاحب لي ، فوقفت وأسندت ظهري الى الحائط ، فرجع لي أخي ، وكان في أول الجماعة مع أبي ، وقال لي : ما بالك ؟ فأخبرته بما اعتراني من مرضي ، فلطم خدّي بضربة زال بها ما كنت أحسّه ، وقال لي : تقدّم الى الموت عزيزا خير من ميتة الذلّ . وساقني أمامه حتى كان ما كان » .

ولما لم يقدم سليمان كاهية من بيته ، بعث له محمود باي بسبحته وكتاب دلائل الخيرات ، زيادة في التوثق لتأمينه ، فأتاه وقال له : « يا سيدي قد فعلت ما يجب علي ، ولو لم يمت سيدي أقاتل عنه حتى أموت دونه ، كما أقاتل عنك » . وزوجه بنته ليلتئذ .

هذا كله ، والوزير يوسف صاحب الطابع منحجر في علوّه المعروف بعلو مصطفى خوجة ، بصحن البرج ، وبابه مغلق كأنه لم يسمع شيئا من البارود . فقال العربي زورق لمحمود باي : « لا يثبت لك ملك ، ولا يتمّ لك أمر ، الا ببيعة يوسف صاحب الطابع ، اذ الدولة طوع يده ، ولا تعتمدني الآن في شيء من الامور » ، فقال له : « توجه اليه بنفسك ، ومعك سبحتي ودلائل الخيرات » . ولما أتاه وجده مستعدا للاجابة .

ولما حضر بين يديه قال له : « البركة فيك ، وأنتم أولى الناس بصلة رحمكم » ، يشير الى الاستبقاء على بنيه .

ثم دعا بالكرسي من الغرفة ، وأجلسه عليه وبايعه ، ووقف حذوه ، وكان الناس في مرج ، فقال بأعلى صوته : « يقف كل واحد في موقفه يمينا أو يسارا » ، فما استتمّ قوله حتى استوى الصفّان ، وبايع سائر الحاضرين من المخازنية والعسّاسة . وبعث الى حراسة الحاضرة ، وأعلم الداي .

وقام الوزير بأعباء هذه البيعة في تلك الليلة ، وفيها زوّجه محمود باي من بنت عمّه المتوفّى عنها مصطفى خوجة .

وفيها قتل مريان النصراني من مماليك حمّودة باشا ، كان مقرّبا عنده ، مؤتمنا على نفائسه بالغرفة ، وطبيبه المسمّى بمحمد المملوك ، لتهمتهما بسمّ حمودة باشا عن إذن ابن أخيه صالح باي ، لمكان الخلطة بينه وبينهما . وهي تهمة يبعدها العقل وتحيلها العادة ، لانه مبتلىً بمرض مصاحب له في القلب ، أنذرت الاطباء بأنه من أسباب الموت فجأة . وانما قيل ذلك ، ليكون خروج محمود باي ، في طلب ثأر ابن عمّه ، لا تعديا ولا بغيا . وراج ذلك عند بعض الجهّال . والسبب هو ما قدمناه من تأخير الكبير وتقديم الصغير ، مع عدم السياسة . ولا حاجة للملوك الاطلاق بأمثال هذه المخارج والتمحّلات .

ومن الغد بويع البيعة العامة .

وفي تلك الليلة هرب ابنا الباي عثمان وهما أبو الفلاح صالح باي وأبو الحسن علي لانه دهمهما الخبر فجأة بقتل أبيهما وهما في فراش منامهما ، فخرجا مذعورَيْن فارَّيْن بالنفس ، فاقتحما سور باردو وخندقه ، وأعانهما باش طبجي بآلات ذلك ، فأتيا من الخندق ربض باب السويقة ليلا راجلَيْن بثياب منامهما ، فالتقى بهما رجل صنعته بيع الدجاج ، ومشى أمامهما لدور المخازنية مثل خليفة العوسجي ، وعلي المكي ، ويوسف ابن فرحات ، وعلي العبدلي وأمثالهم من الاضة باشية ، فقالوا لهما : « حسبنا الدفاع عنكما بأنفسنا ، وما عسى أن يصنع عددنا القليل » ، فأتيا الشيخ بلغيث البكري فقال لهما : « أمدّكما بالدعاء وطلبة الزاوية » ، فأتيا القائد سليمان ابن الحاج وطلباه في السلاح والمال ،

فقال لهما : « ما لي وللسلاح وأنا رجل من عمّال الجباية ولست من رجال الحرب، وأما المال فقد دفعت بالامس ما علي ، والموجود عندي الآن لا يغني » . وباتا ليلتهما يجوسان خلال الديار ، وأفراد من همج العامّة وراءهم ينظرون ، وصالح باي يقول : « يا رسول الله ، نضيع في بلاد مثل هذه » .

وتكلما مع جند الترك من وراء باب السويقة ، ووعدوا بالاموال فلم يجبهم أحد ، وكثيرهم على السور ينظرون قائلين : « الذي يصبح على الكرسي هو أميرنا » . لان محمود باي أحكم معهم الربط على يد العربي زروق وصهره الحاج مصطفى التركي .

وبعث وراء الباب الى الحاج أحمد باش حانبه فخرج من داره ، وبلغ خبره الداي أحمد الباوندي ، فتمكّن عليه ، وأودعه السجن ، خشية إثارة فتنة بالمدينة .

وبعثا الى الشيخ باش كاتب فلم يخرج من داره .

ولما انقطع أملهما توجها في البحيرة الى حلق الوادي قرب الفجر ، فتلقاهما الكاهية أبو عبدالله محمد خوجة وقال لهما : « لا بدّ من وقت لاحضار مركب ان أردتم الخروج ، وان أردتم التحصن بحلق الوادي ، فأمر ذلك بيد آغة النوبة من الترك ، ولكم النظر » .

ولم يفتح الآغة البرج . وقد عَمِيَ خبرهما بباردو ليلتئذ ، ووقع البحث عنهما في دور باردو وغيرها ، فأتى عبد الوهاب الى باردو عند الفجر في أفراد من المخازنية ، وأخبر بتوجّههما لحلق الوادي ، فطار أبو عبد الله حسين باي لاحقا بهما في عقد من خيل العسّة المخازنية ، وأمامه عبدالوهاب . وجدّ السير ، ودخل حلق الوادي من باب رادس ، فوجدهما به في المحاورة مع الكاهية ، ففرّا راجلَيْن الى راس الساس ، فاتبعهما وأدركهما . وتوقف في قتلهما على إذْن والده ، فقال له عبد الوهاب : « ما هذا التوقف ؟ اقطع الراس تنشف العروق (1) » ، فأمر حانبة من الترك اسمه جولك (2) ، ممن ركب معه من باردو ، بقطع أعناقهما ، فقال له الحانبة : « ان سيفي لا يعمل في مثل هذين ، وان أردت ناولني سيفك الذي معك » ، فناوله اياه ، فضرب به أعناقهما .

---

(1) هو مثل لا يزال كثير الاستعمال في تونس ، ويراد به الحث على ازالة الشر باقتلاعه من اصله .

(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : جواك .

ورجع حسين باي في الحين لابيه ، ولم ينزل عن مركـوبه بحلق الوادي . وأمر أن يؤتى بهما الى بطحاء القصبة ، ووضعا بها على نعشين مع نعش أبيهما ، حتى تحقق الناس موتهم . وبعد الغروب قبروا في تربة آلهم ، رحمهم الله .

وفي رجوع حسين باي من حلق الوادي ، مرَّ برجل يمشـي راجلا قرب سيدي فتح الله ، فقال له بعض من معه : « هذا الذي كـان يدلُّ بهما الطريق لديار المخازنية ، وأتى معهما لحلق الوادي » ، فأمر بضرب عنقه في موضعه ، قبل أن يـكـلمه أو يستفهمه ، وتركـه صريعا بمكـانه كـأنه حيوان لا مالك له . هذا كـله وهو في سرعة السير لابيـه ، ولمّا وصلـه أخبره بموتهما .

الخبـر عن حــال عـثمـان بــاي وابـنـيـه

كـان خيـِّرا عفيفا سليم الصـدر كـثيـر الحيـاء ، حتى أفرط ، يعيبـه أخـوه بذلك ويقول : « ليتنـي أسمع أخـي يتـكـلم » . يتأثم من قتل النفس ولو في حق ، لم تسفك في أيامه القليلة محجمة من دم انسان ، حليما متواضعا خمولا ، قانعا بما قسم الله له من الرزق ، لان أخاه لم يجعل له الا ما يسدُّ الخلّة فقط ، بحيث إن اخوانه البنات أقرب الى الثروة منه ، لان والده حبّس أملاكـا على بناته وأولادهم ، دون الذكور من بنيه . والسياسة يومئذ تمنـع أمثاله من تعاطـي الغنى ، خشية الخروج ، لان الغنى أعون شـيء على ذلك ، قليلَ الحاشية والاتباع ، يعظّـم الصالحين والعلماء ، ملازما لمسجد بيت الباشا يؤم به الحاضرين ان تخلّـف الامـام ، وتطيب النفوس بالصلاة خلفه . ويحضر لقراءة صحيـح البخاري أيـام ولايته وقبلها ، يبالغ في احترام الاحباس ، ويذكر في ذلك ما يؤثر عن القصّاصين في العصفور الذي توعّـد نبـي الله سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام ، يتمرغ في تراب حبس وينفض ما تعلّـق بريشه في ملك سليمان فـيَـخْـرَب . سمعنا ذلك من الشيـخ الـكـاتب الوجيه أبـي الثناء محمود الاصرم في خبر صمته ، قال : « لم أسمع منه في مدة ولايته الا هذا المعنى بألفاظ بربرية » ، مع أنه اذ ذاك من الكـتّاب بين يديه .

وأتاه وفد المعاوين الى البيعة ، يقدمهم الشيـخ الصالح المجذوب السيد عمر بن اسحاق ، فقال له بحضرته في المحكمة : « أين الباي ؟ » ، فقالوا له : « هذا » ، وأشاروا اليه ،

فقال : « لم أره » ، ثم قال : « من ولاّك ؟ » فقال له باش حانبه : « أولاه الله تعالى » ، فقال المجذوب : « انا لم نُوَلّه » ، فلطمه باش حانبه بحضرته ، فأنكر عليه ذلك ، وقال له بصوت خفي : « الامر بيد الله ، وهذا رجل مجذوب ينبغي احترامه » ، بحيث أن كلماته في مدة ولايته كادت أن تكون معدودة .

وعلى ما فيه من حسن الخلال ، فهو ضعيف العارضة في السياسة ، وفيما يلزم الرئاسة . وما كل ما تقدم للمحراب ، يصلح أن يتقدم لسرير الملك .

وأما ابناه فأكبرهما ، وهو أبو الفلاح صالح باي ، قد كان شهما مقداما حازما ، حسن الاخلاق والمحاضرة ، عزيز النفس ، تائقا لمراقي الرفعة ، جيد الفكر . سمعنا ذلك من الوزير أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع ، لان الوزير أبا المحاسن أضافه اليه ، فامتزج به في تلك المدة . ولم تكن له ولا لابيه رخصة في الخلطة مع الناس ، حتى تكون تراجمهم معلومة ، كما هو مقتضى السياسة . وكان عمّه حمّودة باشا يتوقع منه بادرة ، ويتدرّع له بحفيده حسين باي بن محمود باي . سمعت ذلك منه ، رحمه الله ، في معرض توثق خاله به ، وانه التفت يوما فلم يجده وراءه ، فخلا به وعذله على ذلك .

وأما شقيقه أبو الحسن علي باي فكان حييًّا ، قليل الكلام ، أشبه الناس بأبيه ، متعففا لم يذكر بقبيح ، على حرارة شبابه .

هذا ما يلوح عليهم لمن عرفهم . ودولتهم ثلاثة أشهر وأيام ، كانت أيام مطر وخصب ، رحمهم الله .

الباب الثالث

في دولة

أبي الثناء الباي محمود باشا

ابن محمد باي بن حسين باي بن علي

مولده ليلة السبت الثاني والعشرين (1) من شوال سنة سبعين ومائة وألف 1170 (9 جويلية 1757 م) ، وأمه جارية .

بويع البيعة العامة يوم الاربعاء تاسع (2) محرم سنة ثلاثين ومائتين وألف 1230 (21ديسمبر 1814 م) . وتبنّى أبناء ابن عمّه القتيل عثمان باي ، وأسكنهم معه في بيته ، وهم صبية صغار .

وزاد في مرتب الجند من الترك ، وأحسن لكل واحد منهم بخمسة محابيب .

وفي يوم ولايته جمعت زوجه ، بنتُ عمه ، ابنيها منه ، وهما أبو عبد الله حسين باي ، وشقيقه أبو النخبة مصطفى باي ، وأحضرت لهما المصحف ، وتعاهدا عليه في وفاء كل منهما لاخيه ، ومعرفة الصغير لحق الكبير في التقدم ، وتبرأت ممن نكث منهما ، ودعت عليه وهي مكشوفة الرأس . سمعنا ذلك مرارا منهما .

ووقائع دولة هذا الباي منسوبة في الحقيقة لاكبر بنيه ، أبي عبد الله حسين باي .

وأقر وزراء ابن عمّه حمودة باشا ، ورجال دولته على مناصبهم ومراتبهم ، وقال لهم : « انما خاطرت بنفسي ، على كبر سني ، وبأولادي ، لِمَا تعلمون من الحيف الذي وقع علي بتقديم مَنْ دوني ، وقد سلّمت لمن قبله ، وان كان أصغر مني ، لما لا ينكر عليه من الحزم والكفاءة . ومع ذلك فقد كان يجاملني ، ويأتي داري ، ولا يقطع أمرا مهمّا دوني ، ويثق بأولادي ، ويختصهم بما لا يخص به أبناء أخيه . أما هذا فانه غضّ الطرف عني ، وعاملني معاملة صغير البيت ، وأخرجني من داري ، حتى رأم ابنه التقدم علي ، وطلب عهدا من أبيه ، ولولا البعض من عقلاء الرجال لتمّ له ذلك — يشير الى صاحب الطابع — ، وأنا الآن قد كبر سني ، وأقعدني المرض ، فلا حاجة لي بالملك الا لاولادي . وقال للوزير أبي المحاسن يوسف صاحب الطابع : « انك باشرت هذه المملكة مع سيّدك ، وعلمت ما يضرّها وما ينفعها بالمباشرة والتجريب ، وأنا لم أباشر شيئا لاني كـ ـت جليس بيتي ، متفاديا عن الخليط والحاشية والاتباع ، راضيا بذلك ، فافعل ما كنت تفعله أيام ابن عمي حمّودة باشا ، ولا تتوقّفْ في المصلحة على أمرى ،

(1) هي 21 حسب التقويم — 2) هو 8 حسب التقويم

وأنا أتوقف على رأيك » . وقال لاولاده : « أنْزِلوا هذا الرجل منزلة أب ، وتوقفوا على مشورته حتى في ركوبكم (I) » ، في كلام هذا محصّل معناه . سمعناه من شيوخ الدولة ، ومنهم سليمان كاهية ، على أنحاء تدور على هذا المعنى ، فأخذ الوزير الكلام على ظاهره ، وركض في ميادين المصلحة طلقَ العنان .

وفي اليوم الثاني من يوم البيعة العامة ، جمع الباي أبو الثناء محمود المجلس الشرعي ، وعقد للوزير أبي المحاسن يوسف صاحب الطابع على بنت عمه ، وللوزير سليمان كاهية على بنته ، ولابي المحاسن يوسف كاهية على بنت اسماعيل كاهية ، ولخير الدين آغة على أختها ، وأمّهما بنت الباشا علي باي . وخطيب العقد شيخنا أبو الفداء القاضي اسماعيل التميمي ، وكان يوما مشهودا .

وبعد أيام عُزِل الفقيه الامام ابن الامام أبو الثناء محمود بن باكير عن امامة مسجد بيت الباشا ، لمكان قربه وامتزاجه بعثمان باي ، ونقل الوُشَاةُ عنه أنباء الانكار على قتله ، فرحل الى داره بالحاضرة ، وقُدِّم للامامة عوضه الفقيه أبو الحسن علي الدرويش .

وأقبل الوزير أبو المحاسن يوسف على لوازم البناء بزوجته ، وصار يأتي كل يوم لتفقد إصلاح دار سكناه ، وما يلزم للوليمة من الاوطار ، والقدر يقول له : « الدار الآخرة هي الدار » .

الخبر عن

مقتل الوزير أبي المحاسن يوسف صاحب الطابع

واسباب ذلك

لمّا فوّض الباي لهذا الوزير وقرّبه نَجِيّا ، أخذ الامرَ على ظاهره ، من غير تدبُّرٍ في عاقبة ملك الاطلاق ، وأقبل على مصلحة المملكة من حيث هي مصلحة ، غيرَ مُبَالٍ بشيء ، على عادته مع صاحبه الاول ، فقد كان يجاهره بالنصيحة ، ويعارضه بما لا يسوِّغه الا فرط الصَّفْوِ في المحبة ، أو غلبةُ العقل على الهوى ، حتى كان يقول له : « يا يوسف لا تعيش بعدي نصف عام » ، كنايةً عن شدته ، وانه لا يتحمّلُه سواه ، فكانت كالجفر . وملك الايالة مطلق التصرف بلا حدٍّ ، كما تقدم في العقد الاول ؛

(I) اى خروجكم راكبين

وقد كان محمود باي رشح أخاه أبا الفداء اسماعيل باي لسفر المحالّ ، وأخذ في الاستعداد لذلك ، فقال له الوزير أبو المحاسن : « لا يخفى عليك حال أخيك ، واسترسالُه في شهواته ، مع عدم المبالاة ، ورفض جلباب الوقار ، معلومٌ في الحاضرة ، مع كِبَرِ سنّه ، ولا بدّ من وقار يحفظ مقام الدولة ، لا سيما مع العربان ، وقد كان ابن عمّك يقدم للمحالّ نائبا يقف عند الامر والنهي ، ويخشى عقاب المخالفة ، وهذا أخوك وقسيمك في النسب ، ان فوّضت له فحالتُه لا تحتمل التفويض ، وربما يكون سببا في جُرْأة الرعيّة ، والازدراء بالدولة ، وان قصّرت يده لا يرض ويراها نقيصة ، وبالامس ، أيام بني مراد وأيام جدّك ، كان باي المحالّ هو المتصرف ، وحسب الباشا سياسة الحاضرة ، وهو يعلم ذلك ، ويعلم سبب خروج علي باشا على عمّه ، فالاولى أن تقدّم أكبرَ بنيك ، على حدٍّ تجعله له لا يتعدّاه ، وابنك لا يأنف من الوقوف عند أمرك ، ويرى نفسه بين يديك كحالة الاتباع » .

فوجد من الباي الاذن الواعية ، وحبُّ الولد طبيعي في البشر ، فقال لاخيه : « أنا وأنت قد شِبْنَا ولا نستطيع فراقك ، فالاولى أن لا تفارقني ولا أفارقك كما تربّينا من الصغر ، وأولادنا يباشرون السفر ، وسنُّهم يحتمل المشقة » ، فاحتملها اسماعيل باي ، وازداد توغّر صدره على الوزير .

ومن الاسباب أنه ثَقّل على ولدَيْ الباي ، لانهما في عنفوان الشباب المثير لسلطان الشهوة ، والوزير يسلك بهما مسالك الشيخوخة ، من تقديم ما يقتضيه العقل على ما تقتضيه الشهوة ، وقد كانا مع أبيهما في شبه اعتقال ، منحجرين في دارهم ، والعيون وراءهم على من يخالطهم أو يخدمهم ، حتى إن أغلب الناس لا يعرف أشخاصهم ، شبهَ الحالة في آل عثمان قبل الولاية . وثقل عليهم انفراده بالدولة ، وقصر الناس على بابه ، وسيرهم خلف ركابه .

ومنها أنه تحدث مع الباي بأن « هؤلاء الناس الذين قاموا معك في هذه الثورة ، يجب إقصاؤهم وقطع آمالهم ، حتى لا يكون قربهم ذريعةً لمثلها ، وتتجاسرَ الناس على المنصب الواجب احترامه . وأيضا لا تَعْظُمُ في عيونهم لانهم يرون لانفسهم يدا عليك ، بأنّهم أولوك وخاطروا بدمائهم . وقد رأيتَ ما عاناه عمّك من الذين غَرّبُوا معه [للجزائر] (1) ،

(1) الزيادة عن ع .

حتى قال ، لما توفي رئيس الكتبة الوزير أبو العباس أحمد الاصرم ، : اليوم توليت الملك . وهذه عادة الدنيا ، ومن أضاع الحزم ندم » ، الى غير ذلك .

ولما بلغ هذا الحديثُ للوزير أبي عبد الله محمد العربي زرُّوق ، وهو متولّـي كِبْر الثورة ، علم أنه المعنيّ بهذا النصح ، فأخذ يحتاط لنفسه . وحقق له ذلك أن أبا عبد الله حسين باي ابنَ المتولي أعطى سكينا مرصَّعَ الغِمْد والقبضة ، كان صنع لحمودة باشا بتونس ، وربما حمله في حزامه ، لابي عبد الله محمد ابن الوزير العربي زرُّوق ، فلما رآه الوزير متحليا به قال له : « من أين هذا ؟ » فقال له : « أعطانيه سيدي حسين باي » فقال له الوزير : « ان مثل هذا لا نحمله أنا ولا أنت ، انما يحمله أهله » ، وأخذه من حزامه بعنف ، وجعله في حزام اسماعيل باي ، بمحضر الباي محمود ، رائما أن يمحو بهذه ، ما دبّره في تأخيره من السفر بالمحالّ ، فأحس العربي زرُّوق بمبادىء الشر ، وقوِيَ ما فهمه من الحديث السابق ، ولا يخفى ذلك عن مثله . لكن الاقدار تحجب الافكار .

وفي هذا الحال أتاه أولاد الباي ، وكان خالهما من الرضاعة ، لا تحتجب منه أمّهما ، وشاكَوْه من الضرب على أيديهما ، وقيد الحجر ، وأن الوجوه مصروفة لجهة يوسف صاحب الطابع ، وقالوا له : « أي فائده لنا في هذا الملك الذي بعنا فيه رؤوسنا ، اذا بقينا على حالنا السابق ؟ » ، الى غير ذلك ، فقال لهما : « أما القدوم على عقوق أبيكما ، أو القدوم على شيء يغاير رضاه ، فهو من المستحيل ، ولا يسعفكم على ذلك أحد ، ولكن نغزل له غزلا يقتضي أن والدكما يتنكر له ويبعده » ، وداخلهم الحاج حسن خزنه دار ، مملوك مصطفى خوجه ، الذي كان يباشر عمل كاهية دار الباشا وهو آغة ، وكان له حنق على هذا الوزير .

وأحكموا التدبير في قتله ، وباشر ذلك العربي زروق ، فدسّ الى ابن الداي أحمد الباوندي ، ودسّ الى أنفار من الجند أتوا الداي بمحابيب في أيديهم ، وقالوا له : « إن يوسف صاحب الطابع أرسل لجميعنا هذه الدراهم ، لنثور معه على الباي وأبنيه وأخيه » ، فقال لهم : « خذوا الدراهم ولا تفعلوا » ، فأتاه ابنه وقال له : « يجب عليك الآن أن تخبر الباي والا كنت خائنا » . وكتب على لسانه مكتوبا بختمه ، وكان هذا الداي مغفّلا طاعنا في السن ، وبعث المكتوب مع الترجمان . وقبل وصوله أتى الحاج حسن خزنه دار وطلب الخلوة بالباي وقال له : « اقتلني الآن ، فلأن أموت على أمرك خير لي

من الموت على أمر يوسف صاحب الطابع ، مملوك مشلي » ، فاستفهمه الباي ، فقال له : « ان الرجل يريد الفتك بك وبابنيك وأخيك ، ويقعد على كرسي الملك ، وجند الترك معه وأعيانهم ، وآغة باب باردو في يده ، وتواعدوا معه على ساعة من الليل يفتح لهم الباب ، وأنه لا يقفله قفلا حقيقيا » . وامتد الحاج حسن بين يدي الباي مثل الميت ، مادًّا عنقه للذبح .

سمعت من المشير أبي العباس أحمد باي رحمه الله قال : « كنت صغيرا بين يدي جدّي ، وأنا أتعجّب من استلقاء هذا الرجل ، وحرصه على القتل ، وهو من ذوي الهيئات ، وكأني الآن أراه » ، فلاطفه الباي وقال له : « نصيحتك مسموعة ، ونبحث عن هذا الامر » . ولمّا خرج جاء للباي مكتوب الداي يعلمه بما أخبره به بعض الجند ، فتحيّر . وفي إثْرِ ذلك جاء ابنه أبو عبد الله حسين باي وقال له : « بلغني ما حيّرني »، وقصّ عليه خبر الثورة المغزولة من الهواء ، وقال له : « اني بعثت عينا لتونس يرقب لنا حال الرجل ومن يأتيه » ، لانه كان بعلُوِّه في الحلفاوين وقتئذ ، فقال له أبوه : « هذا مكتوب الداي أتاني الآن في ذلك » . وبعث الى العربي زرُّوق وسأله ، فصدّق الخبر وقوّى التهمة . وبعث الى أبي الربيع سليمان كاهية ، فقال له : « والله لم يبلغني شيء من هذا الخبر ، واني أستبعده ، ولو رام هذا الامر لنفسه ليلة وفاة حمودة باشا ما صعب عليه » ، فقال له حسين باي : « لا نلق بأنفسنا » . فقال له : « نعم يا سيدي ، لا نلق بأنفسنا ولا نعجلْ ، والرجل بين أيديكم ، يلقى اليه ما بلغكم ، وينظر في جوابه ، وتُحرَّر هذه الاخبار ، وينظر باب باردو بعد أن يقفله الآغة ، الى غير ذلك ، فان ثبت عليه ما يقوّي التهمة فأنا أول من يغمس سيفه بدمه ، وان كانت الاخرى فلا تضيع رجالنا بالظنون » ، فراج هذا الكلام عند الباي ، وابنه أبي النخبة مصطفى باي ، ورأيا التثبت واحضاره لسماع جوابه .

ثم أتى الوزير يوسف الى باردو بعد الغروب ، ودخل الى الباي وحادثه ، ثم استأذنه وخرج لمسكنه ، ولا إحساسَ له بشيء مما وقع ، فدخل على الباي ابناه وأخوه والمتحدّثون معهم في شأن هذا الوزير ، ولم يزالوا به حتى أمر باحضاره ، وقال لهم : « ستندمون ان قتلتموه » ، فأتاه محمد كحل العيون ، رئيس المماليك ، وقال له : « ان سيدنا يدعوك » ، فقام ، ولما وصل باب بيت الباشا ، وكزه كحل العيون وشتمه ، فالتفت ، وكانت بيده موسى دقّه بها في وجهه ، والكاتب عبد الله الجندوبي كامن له داخل البيت ، فضربه بسيف على عرقوبيه ، فخرّ مناديا : « يا أهل بدر » ، وتشهد ، فاعتورته السيوف ، وذهب كأمس الدابر .

وهكـذا تموت الوزراء لملوك الاطلاق في الاسلام .

وجيء اثر ذلك بكاتبه الحاج بالضياف ، وكان يبيت معه من ليلة وفاة حمودة باشا ، فصدر الامر بقتله .

ولما جرّد للسيف ، وكان المباشر لتجريده محمد طوشانلي باش حانبة الترك ، ساق له الاجل المقدّر العربي زرّوق ، فصاح بهم أن ارفعوا أيديكم ، ان مات هذا الآن ضاعت أموال صاحب الطابع ، لانه العالم بزمامه . فأودعوه السجن .

وكان والدي يقول : « أنا صنيعة العربي زرّوق » .

وكان ذلك ليلة الاثنين الثاني عشر (1) من صفر سنة 1230 ، ثلاثين ومائتين وألف (29 جانفي 1815 م) .

ومن الغد أصبح شلو صاحب الطابع ، بل صاحب الخيرات ، طريحا بين جامعه وسبّالته . وأتى بعض السفهاء ، وكان جزّارا ، فقطع عورته . وصلب هذا الفاسق بعد سنين ، لكفر صدر منه ، وثبت بالمجلس الشرعي . وأتى آخر فقصّ من لحمه وشواه وأكله . وعاثت أيدي السفلة واليهود في بدنه المكرّم ، وجرّوه مثل جيف الدوابّ الى الكنيسة ، خارج باب قرطاجنة ، وعبثوا به .

وبلغت تلك الشناعة للباي فأرسل الحوانب من باردو ، لاستنقاذ ما بقي من جسده ، وزجر أولئك الاراذل .

ولم يجد غاسله ما يغسل ، وانما صب الماء على لحم مبدّد بدم :

تَرَدَّى ثيابَ الموت حُمْرا فما أتى لها الليل الا وهي من سُنْدُسٍ خُضْرْ

ودفن بتربته في جامعه ، حذو الوليّ سيدي عثمان بن كرم .

وأرّخه عالم العصر وبركة المصر ، شيخنا أبو اسحاق ابراهيم الرياحي ، كما تراه في ترجمته .

وحصّل ، رحمه الله ، مع الشهادة أجر ما ارتكبه غيره من الوزر .

---

(1) هو 11 حسب التقويم .

وبقيت هذه الاحدوثة الشنعاء هناة وشينا في وجه هذه الحاضرة ودولتها ، لان معروفه وإحسانه المشاهَد ، عمَّ جميع سكّانها عموما وخصوصا ، وان وقع مثلها في الاسلام كما تقدم ، لكن هذه أشنع باعتبار حال القتيل .

ومن الغريب أن كل من سعى في ضرر هذا الفاضل ، عوقب في الدنيا على قدر سعايته ، والله سريع الحساب .

وسيأتي له ذكر ان شاء الله تعالى في هذا الكتاب عند ذكر ترجمته .

وبعد موته شمل أصحابَه وأتباعَه الاعتقال ، والنكباتُ الثقال ، من قتل ونفي وسجن وأخذ مال .

فقتل صبيحة موته محمد اظربير (1) التركي آغة بيت المال ، ونفي حسن باش خوجة باردو ، ونفي حسن آغة الباب ، وسجن حسن ململّي وأخوه سليمان . وأما محمد اللوز الصفاقسي ، وقاسم البوّاب ، والشيخ علي مهاود ، وكاتبه الحاج بالضياف والد العبد الحقير ، فانهم مع السجن الطويل ، استصفيت أموالهم من جليل الاشياء وحقيرها ، بحيث لم يبق لاحدهم قوت يوم . وأخرجوا حرمهم من ديارهم ، وعاشوا أمد حبسهم ، بخبز المرحوم علي باي . وكنت يومئذ صبيا مميِّزا ، رأيته بدارنا عيانا ، وسمعت مثله في دور أمثالنا . لكن الشدة يتبعها الفرج .

وأصبح الساعون في نكبة هذا الوزير أمام الباي ، فدخل الكاتب أبو البقاء خالد الزهاني لتقبيل يد الباي على العادة ، فقال الحاج حسن خزنه دار : « وهذا بالامس رأيته في علوِّ صاحب الطابع » ، فتوقف الباي كالمستفهم ، فقال رئيس الكتّاب الوزير أبو عبد الله محمد الاصرم : « يا سيدنا ان هذا المقتول وزير ، وفي مفهوم الوزير إتيان الناس اليه ، فان أردت مؤاخذة من أتاه لمحلّه ، فآخِذْ جميع الناس ، حتى العربي زرُّوق ، فانه ربما يلزمه الاتيان له ، الا أنا والحاج أحمد بن عمّار باش حانبه ، لشيء بيننا وبينه » ، ثم قال للحاج حسن : « ان خالد الزهاني ليس من عظماء الدولة ، ولا من رجال الفتنة ، والوجوه التي تقتضي إتيانه للوزير كثيرة ، وأما أنت فلأي سبب أتيت

(1) كذا في خ ، وفي ع : « أظرمير » وفي ق : « أضرمير »

محل الوزير حتى رأيت هذا ، مع أنك من رجال الدولة ، ومرتب الجند يعطى على يدك ، فأنت أقرب للشك والتهمة » ، فعندها غضّ الباي طرفه .

وأقبل على جمع أموال الوزير وأصحابه ، وتوسع بها ، وأغنته برهة من الزمن .

*

وفي ذلك اليوم تولّى الحاج حسن كاهية بدار الباشا مع خطة خزنه دار ، وتولّى الاجلّ الوجيه فيضي آغة بيت المال ، وتولّى عوضه آغة بالقصبة عمر التركي ، وصار كل واحد منهم دايا بعد ذلك .

وفي يوم الاثنين رابع (1) ربيع الاول من السنة 1230 (13 فيفري 1815 م.) سلّم الحاج حسن ، بيده لا بيد عمرو ، في خطة خزنه دار ، وبقي في خطة دار الباشا ، وتولّى عوضه الوزير أبو عبد الله محمد العربي زرّوق خزنه دار .

وفي عاشر ربيع الاول من السنة 1230 (الاثنين 20 فيفري 1815 م.) سافر بمحلة الشتاء أبو عبد الله حسين باي ، ووصل الجريد واستوفى الجباية ، ورجع .

ثم سافر بمحلة الصيف ، ثم سافر بمحلة الشتاء يوم الخميس ثالث (2) ربيع الاول سنة احدى وثلاثين 1231 (1 فيفري 1816 م.) ، على طريق الساحل ، في يوم شديد البرد كثير المطر ، وأقام بالمحلة في شوشة رادس ثلاثة أيام . وصحبه في أسفاره الوزير سليمان كاهية ، وفوّض له أبوه ، فكان مطلق اليد ، نافذ التصرّف ، جاريا في ميادين الإمرة ملءَ عنانه .

واحتفل أهل تلك الناحية لتلقيه ، وتنافسوا في مهاداته . فمرّ على بلدان الساحل وصفاقس ، وأتى وطن الاعراض ، وعامله أبو العباس حميدة بن عيّاد ، فتفنّن في الاحتفال به بما لم يسمع نظيره ، وهاداه وأرضى من معه ، حتى خدمة الخيل . وسمعت منه ، رحمه الله ، جميل الثناء على هذا القايد ، حتى قال ان ابنه بالنسبة اليه لا يظهر .

---

(1) هو 3 حسب التقويم - 2) هو 2 حسب التقويم

ومن الاعراض أتى الجريد ، ثم آب محمود السيرة ، مملوء الحقائب والاحمال . وكانت المملكة يومئذ على غاية الثروة والعمران بحسب حالها . ووصل باردو في موكب مشهـــود .

وفي ربيع الثاني من سنة 1230 ، ثلاثين ومائتين وألف (مارس — افريل 1815 م.) ، قدّم الباي لخطة القضاء بالحاضرة شيخ الشيوخ العالم أبا العباس أحمد بوخريص ، وقدم للفتوى العلاّمة أبا الفداء اسماعيل التميمي ، ثم رجّعه لخطة القضاء لانعكاس نور بصر القاضي الى بصيرته بعد أشهر .

وفي ذي الحجّة من السنة 1230 (نوفمبر 1815 م.) توفي الحاج حسن كاهية دار الباشا ، وتولّى الخطّة عوضه أبو المحاسن يوسف آغة .

وفي يوم الخميس الثامن عشر (1) من رجب سنة 1231 ، احدى وثلاثين (13 جوان 1816 م.) ، تخلّى حسين باي عن السفر بالمحالّ لاخيه أبي النخبة مصطفى باي ، وخلع عليه أبوه الولاية ، وركب الى الحاضرة يوم ولايته ، ومعه الوزير أبو عبد الله محمد العربي زرّوق ، ورجال الدولة من الكواهي والاغوات وغيرهم ، ودار في البلاد وأسواقها. وقام حسين باي بين يدي أبيه مؤازرا له ، مباشرا لاموره ، خاطبا رضاه ، مثابرا على طاعته ، متزودا من دعواته ، ولابيه المرتبة الظاهرة وهي أعظم بغيته . وكان يقف عن يمينه بالمحكمة ، ويباشر الكلام في النوازل بمرأى ومسمع من أبيه ، ويحضر أخوه اذا كان في الحاضرة ، واقفا تِلْوَه . واذا تعذر على أبيه الخروج لمرضه ، جلس للنيابة عنه في بيت الباشا . ويكتب الاوامر باسم أبيه ، ويدخل بها اليه ليمضيها ، ويتأدب عن الجلوس بالمحكمة ، وكانوا يرونها هي الملكَ وسرَّه وشعارَه . وكان حمودة باشا يفعل بمخزن المراكيب ما يفعله بالمحكمة .

⁂

وفي هذه الايام وفدت على الحاضرة زوجة سلطان الانقليز في غرض النزهة والجولان في الاقطار ، فاحتفل لقدومها محمود باي على مقتضى مقامها ، وتفنن في تعظيم مقدمها

---

(1) هو 17 حسب التقويم

واكرامها ، بما لا عهد به ، حتى أنه قيّض أولاده على التناوب ، يركبون معها للاماكن التي تشتهي معرفتها .

وافتدت من مالها سائر من بالحاضرة من أسارى أهل الملّة النصرانية ، على اختلاف أجناسهم ، وبذلت في ذلك أموالا عظيمة حتى لم يبق في المملكة من النصارى الا من اختار المقام بها برضاه .

وسرّح لها الباي أسارى الدولة من غير فداء ، اكراما لها .

ثم سافرت ، وبعث الباي لتشييعها ابنه أبا النخبة مصطفى باي ، فشيعها الى حلق الوادي .

⁂

وفي التاسع عشر من جمادى الاولى سنة 1231 ، احدى وثلاثين ومائتين وألف (الاربعاء 17 افريل 1816 م.) ، كتب الباي للدولة الانقليزية بأنه اذا وقع حرب بينه وبين دولة من الدول ، فان أسارى الحرب لا يملكون ، ويعاملون معاملة المسجونين برفق ، حتى تضع الحرب أوزارها ، فيسرّحون من غير فداء .

وقد وقع فداء أسرى من النصارى على يد الانقليز ، أواخر دولة حمّودة باشا .

ولما ترشح أبو النخبة مصطفى باي للسفر بالمحال ، بلغه أن عمه اسماعيل باي تأثر من ذلك ، وقال ان أخي قدم أكبر بنيه للولاية بعده ، وقدم ابنه الصغير للسفر بالمحال ، ولم يعتبرني في الولاية ، فأخبر أباه بذلك ، فقال له : « لا تفتح أذنك لما يفسد ذات بيننا » . ثم تقوّى الخبر ، ثم فشا أن اسماعيل باي جمع طائفة من زواوة وغيرهم ، وكمّنهم في داره ، ليفتك بأخيه وابنيه ، وتقوّى هذا الخبر ، فقال الاولاد لابيهم : « لا نموتُ ببيوتنا على حين غفلة [ولا بدّ من ازالة هذا الشك بطروق دار عمّنا ليلا على حين غفلة] (1) ، فان وجدنا مصداق الخبر دافعنا عن أنفسنا ، والا فاعتذر أنت لاخيك » ، فقال لهما : « يدخل أحدكما الدار على صورة زائر ، ويبقى الآخر خارج الباب بمن معه ، فان وجد شبهة ، يخرج لاخيه ، ويدخلا معا ، بمن معهما من عسّة المخازنية

(1) الزيادة عن ق .

باردو » ، ففعلا ، ودخل مصطفى باي لانه أكثر من أخيه تردّدا على دار عمّه ، وفهم عمّه مراده ، فرحّب به ، ودار معه في سائر أماكن الدار ، ومظانّ الاختفاء ، وأخوه خارج الباب ينتظر . ولما لم يجد ما يريب ، خرج لاخيه وأتيا والدهما ، فلامهما على سوء الظن . ومن الغد جاء اسماعيل باي لائما متغيّرا متوجّعا ، وقال له : « أي شيء ظهر مني حتى تطرق داري ؟ » فاعتذر له أخوه بأن الاولاد تخوّفوا ، والنسج الذي بلغهم كان على منوالنا بالامس ، ولاطفه واسترضاه .

وحال اسماعيل باي من ضعف البنية وضعف الفكر ، يحيل هذه السعاية .

ولما تسامع جند الترك بهذا الخبر ، رأوه بارقة التخاذل المفضي الى زوال الدولة ، فانتهزوا الفرصة بالثورة .

الخبر عن

ثورة جند الترك

على الباي ابي الثناء محمود باشا

كانت هذه الثورة مدبّرة الاحكام ، وثيقة الإحكام ، طليعتها التظلم بالكلام .

وذلك أن الترك لمّا ثاروا في سنة ست وعشرين (I) ، ونهبوا أسواق البلاد ، وانحجروا في القصبة ، وألجأهم المدفع والجوع الى الخروج ، وأحاطت بهم الخيل ، وبقيت أشلاؤهم نهبة المفترس ، وعظامهم عبرة المعتبر ، تحدث الناس في شأنهم بأن الترك لم تحصل لهم الا عداوة أهل البلاد ، وتشدّق أهل البطالة في الاعتراض على صنيعهم ، وفي المقدمات المنتجة لو فعلوها ، فاهتمّ لذلك كبراؤهم وأهل الرأي منهم . والذي تولّى كبرها أبو العباس أحمد حافظ الازمرلي ، كاهية باش خوجة الديوان ، لمكان وجاهته في الجند وكرمه . وكان أهل النجدة من أعيانهم يسامرونه ، وحديث سمرهم الاعتراض على أفعال الدولة وحفظ مساوئها ، وتسفيه رأي الثورة الاولى . ومطمح أنظار القوم حال الجزائر يومئذ من تلقّف الامارة دولا بين أنجادهم كما تقدم . ووجدوا السبيل بقتل الوزير يوسف صاحب الطابع ، وما وقع بشلوه من الافعال المنكرة الشنيعة ، وقتل أظرْبير ، وغيره

(I) 22 شعبان 1226 على عهد حمودة باشا

ممـا تقدم ، وتسريـح الاسارى من غير فداء ، إكـراما لـرجينـّة الانقليز ، مع ما لاح لهم من بوارق التخاذل بالشك في حال اسماعيل باي وتفتيش داره ، وانـكسار زجاجة قلبه ، الى غير ذلك من الاسباب . واستقرّ رأيهم على ثورة أحكموا عقدها .

ولما كـانت ليلة الاربعاء رابع (1) جمادى الثانية من سنة احدى وثلاثين ومائتيـن وألف 1231 ، (1 مـاي 1816 م.) تنادوا ليلا واجتمعوا بحانوت في أعلى سوق الترك ، وبعثوا الى أهل المجلس الشرعـي وأعيان رجال الدولـة السا كـنين بالمدينة وأعيان البـلاد ، ولم يتخلف من المجلـس الشرعـي الا شيـخ الاسـلام أبـو عبد الله محمد بن محمد بيـرم لمكـان عجزه ، فدخل اليه أعيانهم وقالوا له : « تدخل فيما دخل فيه الناس » ، فأجابهم لذلك ، ولم يشددوا عليه في الحضور ، لما في النفوس من تعظيمه والتبرك به . وبعثوا الى محمد طوشانلي باش حانبة ، وكـان من حزب الباي ، فأزعجوه من داره ، فأنـكـر عليهم وقال لهم : « مقتلتـكـم بالامس لم ينشف دمها فأردتم أخرى» ، فقتلوه بالطريق ، وأتوا برأسه ، ووضع أمام الجماعة . وتـآمروا بأعلى صوت أنّ من يخالفهم ، كـائنا من كـان يـكـون رأسه هنا مع رأس طوشانلي . والذي تولى كـبرها مباشرة دالي باش ومحمد الشوبان ، وكـانا من أعيان حوانب الترك بباردو .

ولما تحقق خبر الثورة عند شيـخ المدينة الحاج حميدة الغماد ، طيّـر به ليلا الى ربض باب السويقة ، وشيخه يومئذ قاسم قرداح ، وكـان مغفلا بعيدا عن الحزم ، فتوقف ، فأتاه علي مهاود ، صاحب الخطة قبله ، وقال له : « ما سبب توقـّفك ؟ » قال : « لانه خبـر سوء » ، فانتهره وقال له : « ابعث الآن الى باردو واجمع المخازنية من ديارهم ، ومرهم بأخذ سلاحهم ، وركـوب خيلهم الى باردو ، وكسر قفل باب البلاد ، ليخرجوا منه الى باردو ، وتوعـّد من تخلـّف بالسجن » ، ففعل .

ولما بلغ الخبر للباي ، تحيـّر على ابنه حسين ، وكـان يتنزه بالمرناقية . فأركـب الوزير سليمان كـاهية بمن في باردو من العسـّة . ولما خرج ، وجد المخازنية الذين بعثهم شيـخ الربض أمام باردو ، فطار بهم الى المرناقية ، وأتى بابن الباي على غير الطريق المسلوك ، لانه خشـي أن الترك يبعثون له طائفة تترصده في الطريق ، ففعلوا ونجـّاه الله منهم .

---

(1) هـو 3 حسب التقـويم

ولما وصل باردو بعث السلاح الى علي مهاود ، وأمره بتفريقه على القادرين من أهل الربض ، وبعث الوزير أبا عبد الله محمد العربي زرّوق بصناديق البارود ، وأمره أن يمكث في الربض .

ولما أصبح الصباح نادى دالي باش : « يا أهل البلاد ، أنتم اخواننا ولا حرب بيننا وبينكم ، وكلامنا مع المتولي في مصلحتنا ومصلحتكم ، وعليكم الامان ، فافتحوا أسواقكم ولا توقفوا بلادكم » .

وبعث لكل سوق طائفة من الجند لحراسته ، وأمرهم بالدوران في البلاد على التناوب، وحراسة حارة اليهود ، حتى أن جنديا اختطف خبزة من محطّ خبّاز ، فأُتِيَ به اليه ، فسجنه ودفع للخباز أضعاف قيمة الخبزة .

وأبواب المدينة مغلقة ، عدا باب قرطاجنّة .

ولما اجتمع الاعيان منهم مع أهل المجلس الشرعي ، ومن في المدينة من رجال الدولة ، قالوا لهم : « ان هذه البلاد بلاد السلطان العثماني ، ونحن عسكره ورعيته ، وهذا الباي وابنه أهملا البلاد ، وقدّما من لا يستحق التقديم ، وعاثوا في الدماء والاموال ، وأعطوا أسارى أريقت فيهم دماؤنا ، ولم يكترثوا بنا » . ونسبوا لهم أمورا رسمت في مكتوب الخلع ، لا حاجة لنا بها الآن ، و« نطلب ولاية اسماعيل باي وابن أخيه مصطفى باي ، ونرفع في ذلك أمرنا بعرض حال لمولانا السلطان » . وانما اختاروا اسماعيل باي لاستضعافه وعجزه عن القيام بأعباء الامرة . وكان المؤازر لدالي باش في السرّ العدل علاّلة ابن الخوجة الحنفي ، ولم يحضر المجلس . ولما قال لاهل المجلس : « اكتبوا ذلك ليرفع لمولانا السلطان » ، توقّفوا . فقال لمن معه من أعيان الثورة : « لا يتمّ لنا أمر بدون اضافة رؤوس كبار الى رأس طوشانلي » ، يشير الى عمائم الفقهاء . ثم قال للقاضي اسماعيل التميمي : « اكتب أنت » ، فاعتذر بمرض يشهد له حاله ، وقال : « يكتب غيري وأنا أملي عليه » ، فباشر الكتابة الشيخ الفقيه أبو العباس أحمد بن سلامة ، شاهد الحرمين الشريفين ، باملاء الشيخ القاضي ، وختم المكتوب بطوابع سائر الحاضرين على اختلافهم . ثم قال للقاضي اسماعيل : « لم لا تطبع ؟ » فقال له : « علماء المالكية لا طوابع لهم » ، ثم لقّنه سرًّا علاّلة بن الخوجة الى أن الخنفوسة ، وهي العلامة ، تقوم مقام الطابع ، فأتاه وقال له : « اضربوا خنفوس » ، فوضعوا عقودهم .

واختار الجند الشيخ أبا عبد الله محمد ابن الشيخ الامام عبد الكبير الشريف ، وكان شاهد الديوان ، فبعثوه بالمكتوب الى باردو ليراه اسماعيل باي وابن أخيه ، بعد أن قال له دالي باش : « دارك — وأولادك معنا بالمدينة ، فأسرع بالرجوع » ، فتوجه بالمكتوب الى باردو ، وقرأه على الباي وأخيه وابنيه ، وكشف لهم ما علمه من حال القوم ، من أنّ مرادهم ايقاد نار الفتنة في البيت ، فقال له اسماعيل باي : « أنا أموت بين يدي أخي ، وأولاده أولادي ، ولا أقبل هذا الاختيار » . وقال مصطفى باي : « الموت أهون علي من عقوق أبي وأخي » ونهض بأمر أخيه الى أبراج الجبل الاخضر وأبراج البلاد ، وتكلم مع زواوة وبيّن لهم مكيدة القوم .

ورجع الشريف للترك بما آسفهم وقطع آمالهم ، بعد أن قال للباي : « يبقى هذا المكتوب عند سيادتكم ، خشية الاحتجاج به » ، فتخوفوا على الشيخ من سطوتهم ، وقالوا له : « يمكن لهم ، والحالة هذه ، كتب غيره ، ولا نأمن عليك الضرر منهم » .

ولما بلغهم خروج مصطفى باي للأبراج وكثرة من معه ، سقط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلّوا .

ثم نهض دالي باش من سوق الترك بجميع من معه من أهل المجلس والاعيان الى ديوان المدافعية ، وكان أمام باب القصبة ، ولم يسرّح أحدا منهم ، والشوبان بين يديه مؤازرا له . فبعثه الى الداي وقال له : « أنت شيخ كبير ولا نتعبك للحضور معنا ، فكن بمحلك آمنا ، الا اذا ظهر لنا خلاف منك ، فان رأسك يكون على السبّالة مع رأس طوشانلي » . ثم أمر أبا محمد حمّودة الاصرم ، خوجة زواوة ، أن يأتي الابراج ، ويخبر من بها من زواوة « بأنكم عسكر مثلنا ، ولا يسعكم الخروج عن عهدة اخوانكم ، فافتحوا لنا الابراج ليعمرها من الترك مثل عددكم » ، وبعث معه طائفة من الجند ، فكلّمهم فأبوا . ويقال انه قال لهم برطانتهم ، وكان يعلم شيئا منها : « اثبتوا في محلكم ولا تفتحوا أبوابكم ، فأنتم خارج المدينة ، ومددكم من باردو ومن الرّبض » . وقالوا له : « نفتح لك من الباب ما يدخلك الى البرج وحدك ، لتفهمنا المقصود » ، فمنعته الطائفة المعيّنة معه ، وتخوف هو على داره وأولاده بالمدينة . ولما رجع الى دالي باش ، اتّهمه واغتاظ عليه وأمر بقتله ، فقال له الفقهاء والاعيان : « لا وجه لقتله ، وقد أعطيتم الامان لسائر الناس عموما وخصوصا ، الا من خالفكم ، وهذا لم يخالفكم ، وللأمان

في الدنيا اعتبار حتى عند الخوارج والثوار » ، فرفع عنه السيف وسجنه بحبس القصبة حتى يستثبت حـاله .

ووقت الظهر أمر بأهل المجلس الشرعـي أن يتوجهوا الى الداي ، ويكـونوا معه في علو داره ، اجلالا لهم . ولما قاموا قام معهم الشيـخ محمد الاصرم باش كـاتب ، فأمر بردّه وقال له : « أنت من المخازنية لا من أهل المجلس الشرعـي » ، ثم وجّهه مع سائر المخازنية الى معتقل القصبة .

وجلس على كـرسـي بسلاحه أمام ديوان المدافعية ، وجعل يشرب في مستقطر الخمر ، متجاهرا بها . ولما انتشى صار ينادي : « أنا باي ، أنا داي ، أنا باشا » ، وجعل يـكـررها بمحضر الشوبان ، وقد كـان الاتفاق بينهما على أن يضرب معه بسهم في هذه المراتب ، لان الشوبان له عصبية من الترك ، فأتاه وقال له : « يا سيدي ، ليس هذا وقت شرب ، وحاجتنا الآن بعقلك لا بشجاعتك » ، فانتهره . ولما رأى الحاج حميدة الغماد ، شيـخ المدينة ، وكـان مع الجند في البطحاء ، بارقة انحلال ، مع علمه بأن عقلاء الجند انما أتوا خوفا ، داخل أعيانهم كـأبـي العباس أحمد آغة الذي توفي دايا ، ومصطفى بلهوان الذي توفي آغة بيت المال ، وغيرهما ، ووعدهم الامان والامانـي ، وقرّر لهم أن حـال الرجل تفضـي الى سفك دمه ودمائهم ، ولا زال يسرّ بذلك الى العقلاء .

ثم أتاه الشوبان وقال له : « اما أن تـكـفّ عن الشرب ، والاّ فانا فارّ بمن معـي لمحل نجاتـي » ، فانتهره وعيّره بالجبن ، وكـان ذلك قرب الاصفرار ، فأخذ صنجقـا وصاح بشيعته : « ان الرجل قاتل نفسه وقاتلـكم ، ومن أراد النجاة فليتبعنـي » ، فتبعه نحو الاربعمائة ، فأتى شيـخ المدينة لاحمد آغة وقال له : « انتهز الفرصة فان الامر انحـلّ » فأتى الى دالي باش ووقف عند كـتفه يلاطفه وهو في عربدته ، وخاتله حتى اختطف سلاحه من حزامه ، وتقبض عليه ، وألقاه الى الارض . فصاح الحاج حميدة الغمّاد ببقية الجند : « عليـكم الامـان من سيدنـا ، وان وقع عليـكـم شـيء فأنـا وداري وأولادي في وسطـكم ، وكـلنا في القيام سواء ، انصرفوا الى قشلاتـكم آمنين ، وجميـع النـاس يعلمون أن رأس طوشانلي هو الذي أتى بنا وبـكم حتى كـتبنا ما كـتبنا» ، فتفرّقوا الى أماكنهـم . وأمر أحمد آغة بسجن دالي باش ، ومعه مصطفى قاره قلقجـي ، في محبس القصبة ، وسرّح سائر المخازنية المسجونين ، وطار الخبر الى الباي .

ولما بلغ ذلك أهلَ المجلس الشرعي ، قاموا الى ديارهم بغير استئذان من الداي .

وبات الحاج حميدة الغماد مع عقلاء الجند يحرسون البلاد ليلتهم كلها .

وفي الصباح بعث الباي الحوانب الى دالي باش ومصطفى قاره قلقجي ، وأوقفهما بين يديه ، بمحضر أخيه وابنيه ، وسألهما عن سبب قيامهم ، واستدعى بحالة الاطناب في الجواب ، ليعلم ما دار في رؤوس القوم من جهات الانكار ، وتجلّد لسوء الادب باشارة نصحائه .

فتكلم دالي باش بما دلّ على ثبات لبٍّ وحضور قلب ، وعدّد للباي ما نقمه الجند من الاستكفاء بغير أهل النجدة والكفاية ، وصرف أموال المملكة فيما لا يعني ولا يعود بنفع ، واحتقار الجند حتى أن الاسارى الذين تحصلوا بدمائهم تسرحوا ، ولم يكن لاحد من كبرائهم شعور ، وقدح في وزراء الباي وبطانته بما عدّده عليهم من المساوىء بمحضرهم ، وأفحش في المقال المقذع ، وقال لسليمان كاهية : « يا دُمُزْ (أي خنزير) ، أنت السبب في منجاة حسين باي من المرناقية ، وسيكون جزاؤك القتلَ ، والجرَّ الى الكنيسة مثل صاحبك » . ولم يتلعثم في مقاله ، وأنياب المنيّة كاشرة في وجهه . ثم قال : « أين تريدون أن أذهب الى الخنق ؟ » ودار وحده . فأمر الباي بخنقه ، وخنق صاحبه قاره قلقجي ، في بيت حوانب الترك . وسجن العدل علاّلة بن الخوجة ثم نفاه الى باجة .

سمعت ذلك من الوزير سليمان كاهية وغيره ممن حضر الموطن ، وسمعته أيضا من شيخنا أبي الفداء اسماعيل التميمي ، وقد شهد الموطن من حين استدعائه الى أن أتى مع الجماعة علوَّ الداي .

وأولى الباي في اليوم احمد آغة باش حانبه ، عوض طوشانلي ، واستخلصه وأدنى منزلته وحفظ مزيته ، وبعثه في اليوم الى قشلات العسكر ، جبرا لقلوبهم وتأنيسا لوحشتهم .

وبلّغ لهم عنه ما اطمأنّوا به ، واستعمل الصفح الجميل على من ثار أو دبّر أو أعان أو استحسن ، كأن لم يبلغه شيء . وطوى بساط النازلة بما فيه ، سياسة نَفَعَتْه ، والى القلوب حبّبَتْه .

وفي اليوم أولى الشريف علي باش حانبه بدريبة الداي ، لكفايته وحزمه والوثوق به في حراسة البلاد .

وأولى علي مهاود شيخ ربض باب السويقة ، عوض قاسم قرداح ، والحاج علي بوعصيدة شيخ ربض باب الجزيرة ، عوض محمد الغفاري .

وأما الشوبان فانه لما أخذ الصنجق وتبعه من تبعه ، قصد حلق الوادي ، لما يعلم أن به خمسة مراكب حاضرة لسفر الغزو . وبعث الى ديار الرؤساء ، ومنهم أبو عبد الله حسن المورالي ، وأكرههم على الخروج ، وساروا أمامه راجلين ، ولا تمرّن للمساكين على المشي ، فكان الواحد منهم اذا أجهده نقل الخطى ، يخرّ الى الارض جاثيا على ركبتيه، فينخسه الموكّلون به ، بذباب سيوفهم . ودخلوا حلق الوادي من باب رادس ، وعاثوا في منزل الكاهية بالنهب ، وأخذوا من خزائنه لوازم السفر ، وسمّروا المدافع ، ولاذ الكاهية بالاختفاء . وركبوا تلك المراكب الحاضرة ، وأقلعوا ليلة الجمعة السادس من جمادى الثانية (السبت 4 ماي 1816 م.) ، قاصدين الدولة العثمانية ، ومعهم ذلك الكتاب المصحّح من أهل المجلس الشرعي وأعيان رجال الدولة والعسكر ، يحمله رأس عصبتهم الشوبان .

وانقشع سحاب هذه الثورة عن أمان لسائر أهل البلد من العسكر وغيرهم ، حتى إن أبا عبد الله حسين باي نهى عن التحدث بها ، وبما يتعلق بها في مجالسه ، ونبذها ظهريا ، وجعلها نسيا منسيا .

وبعد الثورة بنحو الاسبوع ، سافر أبو النجاة سليم خوجة بمكاتيب للدولة العلية في تقرير الحال ، وللاتيان بالمراكب التي هرب فيها الشوبان ومن معه . فأعطته الدولة العسكر ليرجع بهم ، فأبى الا القدوم بالمراكب وبحريتها والرؤساء فقط ، وشردت الدولة تلك الطائفة . وقدم سليم خوجة بالمراكب منتصف شعبان السنة 1231 (الخميس 11 جويلية 1816 م.) .

واستكثر الباي محمود باشا من جند زواوة ، وجعل لهم المرتب ، واعتنى بشأنهم ، واعتضد بشوكتهم ، وأقامهم شجىً في حلق الترك ، فكانوا عند الظن .

وقبيلة زواوة من أعظم قبائل البربر وأشدهم بأسا ، حتى أن جبلهم لم تصله يد الترك بالجزائر ، وفيه ما يحتاجونه من الضروريات والمزارع والسلاح والبارود ، ولهم تعظيم

قوي لاهل الشرف والفضل والصلاح ، حتى إن زوايا سيدي البشير بتونس هي مناخ رحالهم ، ومحط أثقالهم ، والواحد منهم اذا حلف بحق سيدي البشير لا يكاد يحنث ، وسبحته الى الآن يتبركون بها ويتعاهدون عليها ، الا أنهم أبعد الناس عن أخلاق الحضارة من السياسة وحسن الترتيب وطاعة الامراء ، مع أن شجاعتهم لا يستطيع المنكر جحدها .

وبعد هذه الثورة بأيام قدم الحاج مصطفى التركي من اسلامبول ، ومعه رسول الدولة العلية ، بالفرمان السلطاني والحلة الملوكية ، فاحتفل الباي لقبولها بديوان حافل وموكب مشهود ، حضره أهل المجلس الشرعي والداي وأعيان الجند من الترك وزواوة وغيرهم ممن يشار اليه ، وكان يوما مشهودا بصحن البرج من باردو .

وبعد خمسة أيام لبس ابنه حسين باي حلّة التشريف الواردة له في صحن البرج ، مثل ديوان أبيه ، وكان ذلك أواسط جمادى الثانية من السنة 1231 (اواسط ماي 1816 م.)

ثم جمع الباي هدية حافلة للدولة العلية ، توجّه بها أبو عبد الله محمد أمين باش خوجة الديوان ، ومعه أعيان من جند الترك ، وأبو الحسن علي بن حمزة ، وكان سفرهم في شعبان السنة 1231 (جوان — جويلية) . فوصلوا القسطنطينية ، وقابلتهم الدولة بجزيل العناية ووافر الاكرام ، وأتوا بعدد وافر من متطوعي الترك للخدمة بالجند عوض الفارّين .

وابتدأ أبو النخبة مصطفى باي السفر بالمحالّ ، وأول سفره لباجة ، وكان يوم الاثنين عاشر (1) شوال السنة 1231 (2 سبتمبر 1816 م.) . ولم يزل يسافر بالمحالّ الى وفاة أخيه ، واقفا عند الامر والنهي .

وتوفي أبو الفداء اسماعيل باي يوم الاحد الثالث عشر(2) من ذي الحجة موفى سنة 1231 ، احدى وثلاثين ومائتين وألف (3 نوفمبر 1816 م.) ، ودفن من الغد بتربة عمّه في موكب مشهود ، وكانت وفاته بمرض أصابه ، قوّاه الهرم .

وفي سنة 1232 اثنتين وثلاثين (1816/17 م.) ، أتى الوزير أبو عبد الله محمد العربي زرّوق الى جامع الزيتونة ، بعد أن وصّى بحضور أعيان المدرّسين ، وبعد صلاة العصر

---

(1) هو 9 حسب التقويم — 2) هو 12 حسب التقويم .

دخل مقصورة الامام ، وهو يومئذ شيخ العصر أبو محمد حسن الشريف ، وقال له : « ان سيدنا يقرئك السلام ويقول لك : هذا الجامع الاعظم هو وجه الحاضرة ، ومحط رحال الوافدين لطلب العلم ، ودروسُ العلم به قليلة ، وأعيانُ العلماء يدرِّسون بجامع صاحب الطابع ، وهو في طرف الحاضرة ، بعيد عن مدارس الطلبة ، فلو ندبتهم لنقل دروسهم لهذا البيت العتيق لكان أولى ، لا سيما ولهم فيه مرتب من الجزية » ، فقال له الشيخ الامام : « ان المشائخ هنا ، فتكلّم معهم » ، فبعث لهم ، وقام لاجلالهم وخاطبهم برسالته ، فأجابه الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد الفاسي بالامتناع ، وقال له : « لا يحلُّ أن أفعل ذلك ولا تحتمله المروءة ، فان هذا المحبّس رفع من شأني ، ولم تزل دنانيره أنفق منها ، وأرجو الله أن يكون تمامها بتمام عمري ، (وصدق الله رجاءه فمات في ربيع الثاني من السنة 1232 (فيفري — مارس 1817 م.) نعم ، أقرىء بالجامع الاعظم بقدر مرتّبي فيه ، ولا أنقل دروسي من جامع صاحب الطابع ، ولسيدنا أن يعزلني عن أخذ مرتبها ، ويعطيه لمن يدرِّس بالجامع الاعظم ، لكن ليس له أن يمنعني من بث العلم في مسجد لله » . وقال له شيخنا العلامة أبو العباس أحمد الأُبِّي : « أنا إمام الخمس بجامع صاحب الطابع ، ويتعذر عليَّ نقل دروسي الى الجامع الاعظم ، نعم ، أقرىء به درسا في مقابلة مرتبي ، ثم ان صاحب الطابع أظهرني من زوايا الاهمال ، وملأ يدي ، وغالب ما علي الآن من الثياب صلة من صِلاته ، وأرجو الله أن تصحبني ملابسه الى قبري » . وحقق الله رجاءه ، فكان عنده طيلسان أبيض من أعزِّ الكشمير ، وهو من صِلات الوزير ، غُطِّيَ به جسده على نعشه الى قبره لما توفي في رمضان من سنة 1274 ، أربع وسبعين ومائتين وألف (افريل — ماي 1858 م) . وقال له شيخنا أبو اسحاق ابراهيم الرياحي : « أنا رجل مكثت بهذه الحاضرة عشرين سنة حتى عزمت على الخروج منها لابتغاء رزقي ، فقيَّدني بدار وأهل وأولاد ، ولم أزل أتقلب في نعمته ، ولولاه ما عرف الباي اسمي ، واني شيخ مدرسة الجامع وداري قربه ، وأي فائدة شرعية في هذا النقل ، والعلم يؤتى اليه ولا يأتي ، مع الاجر لطالبه على قدر خُطاه ، وان أردتم إطفاء ذكر هذا الرجل فلك ذلك بمقتضى المنافسة في الرئاسة ، لكن لا يكون ذلك الا بخراب أكثر المباني في هذه الحاضرة ، والأَوْلَى أن المنافسة تنتهي بالموت ، هذا ما يليق بشرفك ، وعلي أن أقرىء درسا بالجامع الاعظم ، مع بقاء دروسي في محلّها ، أخذت عليها المرتب أو لم آخذ » ، فقال لهم الشيخ الامام الشريف : « جزاكم الله عن الوفاء

خيرا ، وهو المظنون بكم » . وقال للوزير : « حصل مراد سيدنا ، حيث التزموا بالتدريس في الجامع الاعظم » . وكان شيخنا رحمه الله يذكر هذه الحكاية ، وسمعتها منه .

وفي العشرين من ربيع الثاني 1232 (الاحد 9 مارس 1817 م.) تأخر الفقيه أبو النخبة مصطفى دنقزلي عن خطة القضاء بالمذهب الحنفي ، لعجزه عن القيام بأعبائها ، وبقي إماما بجامع يوسف داي ، وتولى القضاء عوضه الشيخ الفقيه أبو الحسن علي الدرويش ، وتولى عوضه إمامة مسجد بيت الباشا الشيخ أبو العباس أحمد ابن الشيخ الامام المفتي محمد ابن الشيخ الامام المفتي الحاج حسين البارودي .

وفي ذي القعدة من السنة 1232 (سبتمبر 1817 م.) توفي الشيخ العالم الفاضل أبو العباس أحمد سويسي المفتي ، وله من العمر ما يقرب من مائة سنة ، وشهد أبو عبد الله حسين باي جنازته في موكب مشهود . وقام مقامه في خطة الفتوى الشيخ الامام العلاّمة أبو محمد حسن الشريف .

وفي هذه السنة وفد على الحاضرة النحرير الفهامة أبو العباس أحمد السناري ، مهاجرا لطلب العلم . وهو ابن أخي أمير سنار ، من أرض الحبشة .

حكي أنه كان والعا بالقنص والخيل والرماية ، مستغرق الاوقات في ذلك ، فقال له عمه يوما : « اذا افتخر الناس بما حصلوا في الدنيا من المزايا ، تفتخر أنت بعدد ما اقتنصته من الصيد ، وأخلاق ما ركبته من الخيل ، واصابتك الهدف في الرماية ، أين أنت عن العلم الذي هو الفخر ؟ » ، فصادف ذلك سويداء قلبه ، ورفض ما كان فيه ، ورحل لطلب العلم ، وأعانه على ذلك اليسار ، ونعم العون على المروءة الجدة . وأتى مصر وأخذ عن مشيختها وفضلائها ، وتاقت نفسه الى كيفية التدريس بتونس ، وملأ سمعه خبر شيخنا العلامة أبي اسحاق ابراهيم الرياحي ، فأتاه من مصر ومعه حرمه ، وقال له : « ما قادني لهذه الحاضرة الا اسمك ، فاختر لي من طلبتك من يؤنس غربتي بالمذاكرة معه » ، فاختار له تلميذه شيخنا أبا عبد الله محمد البحري بن عبد الستّار ، فاكترى له دارا قرب داره ، ولازمه ورافقه في دروسه ، وانتفع كل منهما بصاحبه ، ونبّهه الشيخ ابراهيم الى مشائخه ، فأخذ عن الشيخ الامام أبي محمد حسن الشريف مقدارا صالحا من صحيح مسلم بشرح الابّي ، وعن الشيخ اسماعيل التميمي مقدارا وافرا من شرح

المحلّـي لجمع الجوامع ، وأخذ عن الشيـخ الطاهر بن مسعود شرح القطب على الشمسية ، وأخذ عن الشيـخ الذي قصده شرح السعد عليها . وله يد طولى في علم الـكـلام . وخالط علماء تونس وامتزج بهم ، شأن الاذكـياء ، وأعجب بتونس وبأخلاق أهلها مع الواردين اليها . وكـان شافعـيَّ المذهب ، سُنِّـيَّ العقيدة ، مع تشيّع في حب آل البيت .

اتفق أن كـانت عنده مكحلة غريبة الصنع ، وبلغ خبرها للوزير أبـي عبد الله محمد العربـي زرُّوق ، فبعث اليه تابعـه المسمى ونيس ذهب ، الاضة باشـي ، وقال له : « ان الوزير يسلّـم عليك ، ويطلب منك أن تبيـع له المـكحلة — ووصفها له — بما يرضيك من الثمن » ، فقال له : « سلم عليه وقل له انـي أتيت بلادكم طالب علم لا طالب دنيا ، ولست بتاجر ، وان احتقرتم سوادي فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه » . وبقـي متغيرا ، وشاكـى الشيـخ البحري ، فقال له : « لم يقصد احتقارك ، وانك قدمت لهذه الحاضرة كـعامة الراحلين في طلب العلم ، ولذلك لم تقصد ملـكـها كـعادة أبناء الملوك ، وهذا الوزير شريف النسب وله في أهل العلم محبة وتعظيم » ، فارتاع لما سمع لفظ الشريف ، وقال : « أخشى أن يبيت هذا الشريف وفي قلبه وحشة منـي » . وطلب من الشيـخ البحري أن يحضر له رسولا ، وكـاتبه متلطفا معتذرا ، وبعث له بالمـكحلة وأخرى معها هدية ، على شرط أن لا يجازى عليها الا بالرضى ، فوصل اليه الرسول وقبل الهديـّة . ومن الغد أتـاه زائرا ، وجامله وشكـر صنعه ، وأحاله على ثواب الله ورسولـه ، وان هاداه بعد ذلك .

ولما بلغ خبره لابـي عبد الله حسين باي ، هاداه بمركـوب وسرج محلًّى ونفائس من الثياب والطيب ، على يد كبير الطّواشية ، سرور آغة ، فقبل الهدية وهادى الباي بأضعافها، من سلاح وقطع من التبر ، وأوانٍ من الذهـب ، صنعها بمصر .

ولم يجتمع به لما علم أنه لا يقوم لتلقيه على عادة البلاد يومئذ .

وسافر الى القيروان فزار السيد الصاحب رضـي الله عنه ، وتبرَّك بـآثار الصحابة رضـي الله عنهم ، وأخذ عن عالمهـا أبـي عبد الله محمـد بن بـكـّار صـدّام ، واستجـازه فأجازه ، ثم رجع الى تونس .

وكـان عالي الهمـّة ، كـريم النفس ، حسن اللقاء ، ممـتع المحاضرة ، حديد الفهم ، صائب السهم ، فصيـح اللسان ، قوي الجنان ، له شغف بمعالي الامور .

استضاف أعيانا من العلماء بداره ، واحتفل في ضيافتهم احتفال الملوك . واشترى غالب التآليف التونسية ، وبذل في أثمانها الاموال الجزيلة . وهاداه بعض الطلبة بشرح التسهيل لعلي باشا بن محمد ، فأثابه بصرّة من التّبر .

ثم سافر ، وسافر معه من أذكياء الحاضرة أبو العباس أحمد بن محمد الزهاني ، وافترقا من مصر .

وكان شيخنا سيدي ابراهيم اذا رأى شهامته وإقدامه ، يقول : « يغلب على ظني أن هذا الذكي يموت قتيلا » . وصدق ظنّه ، فانه لما رجع لسنار استعان به عمّه في أمره وبعثه أمير جيش في حرب انجلت عن قتله . واجتمعت به وأنا في مبادىء التعلم عند شيخنا البحري ، وحفظت ترجمته من شيخنا المذكور . وكانت بينهما مكاتبات ودادية الى أن توفي ، رحم الله الجميع .

وفي محرم من سنة 1232 ، ثلاث وثلاثين (نوفمبر — ديسمبر 1817 م.) ، كثرت الشهود المنتصبون للشهادة بالبلدان ونواجع الاعراب ، وعمّت البلوى بأهل الزور منهم ، لانّ ولايتهم بالشفاعة مرة ، وبالرشوة أخرى ، فوقع التثبت في انتخاب الاشبه ، وعزل المجروح منهم . ووقعت منافسة من أجل ذلك بين العلاّمة الحافظ أبي محمد حسن الهدة كبير المفتين بسوسة ، والشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد الريغي القاضي بها ، وكادت أن تتعطل الاحكام الشرعية بتلك الجهة ، فأمر الباي أبو الثناء محمود باشا أن يصدر لهما مكتوب من أهل المجلس الشرعي عن إذنه ، فصدر ذلك من انشاء العلاّمة الاكتب أبي الفداء القاضي اسماعيل التميمي ، ونصه بعد صدره : أما بعد فان المنافسة التي وقعت بينكم قد تفاقم أمرها ، وعظم على الناس ضررها ، وعمّ أهل عملكم شررها ، فتعطل بينكم الانصاف ، وكثر بسبب ذلك الاعتساف ، وصار من يطلب حقّه متطلبا لما هو أعزّ من الابلق العقوق ، وأمنع من بيض الانوق . ولقد كنا عاجلناها من قبل هذا بصلح فلم ينجع ، وأمهلناكم عسى أن تراجعوا أنفسكم فلم ينفع . وما ذاك الاّ لصَغْوِكم لسماسرة الفتن وأهل الوشاية ، وعدم احتراسكم من عقارب السّعاية ، حتى أوبقوكم خبالا ، وضرب الناس بكم أمثالا ، بينما نحن ندبّر في حسم ذلك ، واغلاق أبواب تلك المسالك ، باقامة ثالث يكون ناظرا للشريعة ، اذ فجأنا أمر هذه الواقعة الاخيرة الشنيعة . فتبيّن لولي النعم ، ومنصف المظلوم ممّن ظلم ، سدّد الله أحواله ، وبلّغه من

نصرة دعوة الاسلام آماله ، بعد أن تحقق أمرها ، وعرف عجرها وبجرها ، أن الخرق اتّسع ، وأن السكوت عن ذلك لا يسع ، اذ قد انقسمتم طائفتين ، وتفرّقت عدولكم شعبتين ، وجاوز الحزام الطُّبْيَيْنِ ، وصارت الخطّتان في المعنى شاغرتين ، وتعسّر تمييز الحق من ضدّه . فاتّبع الطريق الاقوم ، وحاد عمّا يفضي الى التحكم . وتوجّهت همّته الزكية ، وفكرته القدسية ، الى حسم هذه القضية ، باقامة غيركم للأحكام الشرعية ، أداء لما يجب عليه لاقامة المراسم الدينية ، قائلا ان من لا ينقاد اليها ، كيف يؤمّن عليها ، أم كيف يتيسّر له اجراؤها في مجاريها . ودبّر أيّده الله في ذلك فأصاب، لولا أن الله تداركـكم بمفاوضة مع جماعتنا وقعت ، وشفاعات منهم بعد التي واللتيّا قبلت . فانثنى عمّا همّ به عزمه ، وغلبه والحمد لله حلمه . فاختار أيسر الطريقين ، لعلّ الله يصلح بين الفريقين . وتقدم لكم بالانذار ، مبالغة في الاعذار . فأمركم على لساننا أوامر يساعدها الشرع ، ويوافقها الطبع ، منها أن تلزموا أن لا تعودوا الى ما نهيتم عنه ، وأن يقوم كلٌّ بخطّته ويعرف ما ولي عليه ، فلا يتجاوز ذلك ولا ينتزي أحدكم على ما في ولاية الآخر . وأن تجتنبوا الخلاف المذموم الذي لا سبب له الا اتّباع الهوى ، فاذا اختلفتم في شيء فردّوه الى الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، بمراجعة موادّ الاحكام ، فان اهتديتم في ذلك والا فاعرضوه علينا ، عساكمَ أن تجدوا جوابه بنعمة الله لدينا . وأن تلتزموا حضور مجلس يوم الخميس على الوجه القديم ، ولتعطوا المجلس ما يستحقه من التعظيم ، فلا يباشر أحدكم صاحبه ، الاّ بما يقتضيه مقامه ويلائم منصبه . وأن تصرفوا الوشاة عن أبوابكم ، وتحرسوا من عقارب السعايات حوزة أعتابكم ، الى غير ذلك من الصفات المناسبة لمقامكم . اللهَ اللهَ في أنفسكم بادروا علاجها ، وأصلحوا مزاجها . فاتقوا الله وأصلحوا ذات البين ، وقابلوا تلك الاوامر المطاعة ، بالسمع والطاعة . فان رجعتم الى الحقيقة ، واستقمتم على الطريقة ، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، والا فربّما يسبق السيف العذل ، ويقع على الوجه الشنيع البشيع العزل ، بلا شفاعة شافع ، ولا يصغي اليه سامع . ويعود الامر الى ما كان ، وما شاء الله كان . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وكتب في ربيع الانور سنة 1233 (جانفي — فيفري 1818 م.) .

وفي شوال من السنة 1233 (اوت 1818 م.) ، وقع في الحاضرة طاعون . وأول من تنبه له حكيم من مسلمة الافرنج اسمه رجب الطبيب . ولما أخبر الباي بذلك ، أمر بضربه

وسجنه كالمجرمين ، فامتحن بسبب علمه . ولم يلبث أن فشا خطبه . ومات به أعيان من أهل العلم . ووصل عدد الموتى به في الحاضرة ، أكثر من الالف في بعض الايام ، ودام نحو العامين . وفيه استغاثة شيخنا :

يا الاهي وأنت نعم اللّجاء	عافنا واشفنا فمنك الشفاء
ان هذا الطاعون نار تلظّى	لقلوب التوحيد منها اصطلاء
كم جموع تمزقت وكبود	وسرور طارت به العنقاء
ذاك من ذنبنا العظيم كما قد	جاءنا عن نبيّنا الانباء
يغضب الله بالذنوب فتسطو	حين تطغى بوخزها الاعداء
هو لا شكّ رحمة غير أنّا	يا قوي عن حملها ضعفاء
كم وكم رحمة لديك وتعطيها	بلا محنة اذا ما تشاء
ربّنا ربّنا اليك التجأنا	ما لنا ربّنا سواك التجاء
بافتقار منا وذلّ أتينا	ما لنا عزّة ولا استغناء
نقرع الباب بالدعاء ونرجو	فَلَنِعْمَ الدُّعا ونعم الرجاء
ضاق أمر الورى وأنت المرجّى	وسطا ذا الوبا وعزّ الدواء
والكتاب العزيز بشّر باليسرين	في عسرنا ومنك الوفاء

وهي طويلة ، نحا فيها مناحي الشاذلي رضي الله عنه فيما اختاره من خزائن الدعاء .

وافترق الناس في هذا الطاعون الى قسمين : قسم يرى الاحتفاظ وعدم الخلطة بالعمل المسمى بالكرنتينة ، وربما ساعدته بعض ظواهر من الشرع ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا عدوى ولا طيرة » و « فرّ من المجذوم فرارك من الاسد » ، أي لا عدوى مؤثرة ، نفى تأثيرها فبقي أصلها ، مع دليل التجربة ، فان غالب من تحفّظ حفظه الله . مع اعتقاد أن المؤثّر هو الفاعل المختار الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد سبحانه . وكأن هذا ينظر الى رأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وعلى هذا جماعة كشيخنا أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد بيرم . وقسم لا يرى هذا الاحتفاظ ويرى التسليم الى مجاري القدر ، ومن المقدور لا يغني الحذر ، كشيخنا الكاتب العالم أبي

عبد الله محمد بن سليمان المنّاعي . وهذا رأي أبي عبيدة عامر بن الجرّاح ، عارض به رأي عمر رضي الله عنهما .

وألّف كل منهما رسالة حافلة في الاستدلال على رأيه بالنصوص الفقهية .

ومن القسم الثاني أبو عبد الله حسين باي ، فقد كان يسخر بأصحاب الكرنتينة ويقول لهم : « لا مفرّ من القدر » ، ويدور أزقّة الحاضرة وحارة اليهود ، لكثرة المرض بها . وقوّى بذلك قلوب سكّان البلاد .

وممن أصيب بهذا الوباء العلامة الصالح الامام الشيخ الطاهر بن مسعود ، أصيب في صلاة الصبح وهو بالمحراب وبقي ثلاثة أيام ، وتوفي في السادس والعشرين من صفر سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف (يوم الجمعة 25 ديسمبر 1818 م.) ، وصار لجنازته موكب حافل بعد العهد بمثله ، بحيث لم يتخلف عن الجنازة من المسلمين الا من أقعده عذر البدن . وتقدم الشيخ الفقيه الشريف أبو الثناء محمود ابن الامام سيدي علي محسن اماما ثالثا بالجامع الاعظم بعد وفاته .

وهذا الطاعون هو أول التراجع الذي وقع في هذه الايالة بعد وفاة المرحوم أبي محمد حمّودة باشا ، لانه نقص به من الايالة قدر النصف ، وبقيت غالب المزارع معطلة لا أنيس بها .

وفي ربيع الثاني من السنة 1234 (جانفي — فيفري 1819 م.) ، قدّم الباي للحسبة أبا الربيع سليمان مَلَمَلّي ، وهي من الخطط الاسلامية التي زال مسمّاها وبقي اسمها . ودار مساجد الحاضرة ، ومعه مشايخها الثلاثة ، وعدول وأمناء ، ووقفوا على سائر عقار الاحباس العامة بالحاضرة ، وميّزوا مستقيمها ومهملها ، وأحصوا ما على المساجد وأمثالها من الاحباس رَبْعا وعقارا . ودفعوا دفتر ذلك الى الباي ، فأمر الوكلاء باقامة غير المستقيم ، وأمر القاضي بحساب الجميع على يد المحتسب .

وفي شعبان من السنة 1234 (ماي — جوان 1819 م.) تمّ انشاء الكرويطة التي ابتدأ عملها أبو محمد حمودة باشا في أواخر أمره ، وحضر أبو عبد الله حسين باي يوم جذبها للبحر في أبّهة (1) ملكيّة . وكان يوما مشهودا وموكبا معدودا ، وسماها المحفوظة.

(1) كذا في خ ، وفي ع وق : اهبة .

وفي ليلة السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة من السنة 1234 (18 سبتمبر 1819 م.) توفي عالم العصر وشيخ الشيوخ ، الجامع بين شرفي النسب والاكتساب ، أبو محمد حسن ابن الشيخ الامام عبد الكبير الشريف ، امام الجامع الاعظم ، بمرض الوباء . وحزن المصر لفقده ، وحضر جنازته أبو عبد الله حسين باي وأبناؤه ورجال دولته وسائر أهل الحاضرة . وتزاحمت الاكابر على حمل نعشه بالتناوب ، وأكثرهم حملا حسين باي ، ونزل الى قبره بنفسه ، وحمل جسمه الشريف عند مواراته . وتولى عوضه اماما أولا بجامع الزيتونة أخوه الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد الشريف . وقام مقامه في خطة الفتوى عالم المالكية أبو الفداء اسماعيل التميمي ، وقام مقامه في خطة القضاء الشيخ أبو النجاة سالم المحجوب ، وذلك يوم عيد الاضحى . وقام بخطة القضاء بباردو الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد السنوسي الكافي ، وكان قاضيا ببنزرت فَأُتِيَ به ، وتولى عوضه فيها الفقيه عبد القادر التميمي .

وفي سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف 1235 (1819/20 م.) ، جاء نعي أبي العباس أحمد خوجة كاهية بنزرت ، وكان عالما فقيها ذكيا ، وجّهه الباي سفيرا عنه للشريف مولانا سليمان سلطان المغرب ، فتوفي بفاس ، وأولى أخاه عوضه في بنزرت .

وفي محرم من السنة 1235 (اكتوبر — نوفمبر 1819 م.) ، ظهر للباي الزام أهل الساحل بأداء العشر على زيت زيوتهم .

وقد كانوا يؤدون على كل شجرة منه نزرا يسيرا من النواصر (1) ، أثمر أو لم يثمر ، يسمى القانون . وذلك على عهد عثمان داي . وعدّ سائر شجره ، وكل ما غرسوه بعد القانون لا قانون عليه . وبذلك كثرت الشجرة المباركة في الساحل ، وبها نما عمرانه ، فضجّ أهل الساحل من العشر ، وتعللوا بما لا يجوز شرعا ولا عقلا ، فأمر باحضار أعيانهم ، وألزمهم الحجّة بأن لا فرق بين الصلاة والزكاة في الملّة الاسلامية . وكتب لهم أوامر من انشاء شيخنا الكاتب أبي عبد الله محمد المنّاعي ، نصّها : « الى من يقف على أمرنا هذا من العلماء الاعلام ، والفقهاء الكرام ، والمفتين والقضاة ، والكواهي والاغوات ، والقواد والمخازنية ، والمشايخ والرعية ، والخاص والعام ، من ذوي الاحكام ،

(1) ناصري ج نواصر : « الناصرى الذى هو جزء من تجزئة الريال الى اثنين وخمسين » . الصفوة 2 : 59 .

سدّد الله أحوال الجميع ، ووفّق الكلّ لصالح العمل وحسن الصنيع . وبعد فاننا أسقطنا عن كافّة أهل سوسة وكافّة عملها القانون المرتّب على الزيتون بغابة سوسة والغيّب (1) التي بوطنها ، بحسب كل زيتونة أربعة نواصر ، في مقابلة عشر الزيت الذي التزموا بأدائه ، لنصرفه في مصارفه الشرعية ، التي بيّنتها الآية الكريمة وأوضحت تفاصيلها السنّة المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة وازكى التحية ، نيابة عن المسلمين، لان الله سبحانه قلّدنا أمورهم وكلّفنا النظر في مصالحهم ، والقيام بحماية حوزتهم ، واقامة الفروض الشرعية ، واحياء المعالم الدينية ، اسقاطا تامّا ، فلا يطالبون بشيء من القانون المذكور . وأذنّاهم يلتقطون حب الريح ويعصرونه ولا يؤدّون لنا عشره ، وانما يؤدّون ذلك بأنفسهم لمستحقّيه ، موكول ذلك لامانتهم وديانتهم كزكاة العين ، الى أن يدخل شهر أكتوبر الاعجمي ، فاذا دخل اكتوبر فلا يلتقطون شيئا من حب الريح ، ويلحق بغير حبّ الريح . وأذنّاهم يتصرفون في غابتهم كعادتهم السابقة ، بحيث يحتطبون منها الحطب ، وتسرح فيها مواشيهم ، ودوابّهم ترعى العشب النابت بها . وحكمنا لهم بأنهم يأخذون البليّة والفيتورة (2) ، بعد أن يعصر الزيت ، ويعطوه حقّه في العصر ، ولا يتعرض لهم أحد في ذلك ، وبأن قايد الوطن لا يتعاطى شيئا من أحوال العشر ، ولا يدخل فيه بوجه من الوجوه ، وانما أمر العشر مفوض لمن نوكّله على قبضه منهم وجمعه ، وعلى رعي مصالحه ، فهو الذي يدفعون له العشر ، ويتولّى قبضه منهم ، ولا يأخذ منهم أجرا على ذلك ولا خدمة ، لا قليلا ولا كثيرا ، لاننا نحن نعطيه أجره على جمعه لذلك ، لان أجر العامل على الزكاة من الزكاة أو من بيت المال ، حكما تامّا أمضيناه ، وألزمنا كلّ من يقف عليه العمل بموجبه ومقتضاه ، وعليه لا يخالف سبيله ولا يتعدّاه ، والامر كلّه بعد هذا وقبله لله ، والسلام . وكتب في موفى ثلاثين من محرم الحرام سنة 1235 ، خمس وثلاثين (18 نوفمبر 1819 م.) .

وسترى ان شاء الله تعالى في هذا الوضوع ، ما طرأ على هذا الزيتون من الحوادث المتنوعة ، وبه ترى عيانا أسباب الوهن والنقص في الممالك الاسلامية .

---

(1) غيب : غابات (دوزي)

(2) البلبة : تفل الزيتون المعصور بانيد (Marc) والفيتورة : التفل الذي يحصل عند ما يسحق الزيتون بالمعصرة ويعصر منه الزيت (Grignon)

وفي الثامن والعشرين من جمادى الثانية من السنة 1235 (الاربعاء 12 افريل 1820م) صنع الحاج أحمد باش حانبة ضيافة لابي عبد الله حسين باي في بستانه بالعبدلية ، وبالغ في السرور والاحتفال ، ولما رجع في العشيّ طاحت به الكروسة ، وكان معه فيها وزيره حسين خوجة باش مملوك ، وحفّتهما الالطاف ، وفرحت البلاد بعافيته ، وكان محبّبا الى أهلها ، وزيّنت أسواقها ، وتنافس الناس في ذلك .

وفي هذه السنة كان نبأ امتحان عالم المالكية الشيخ المفتي أبي الفداء اسماعيل التميمي ، بسبب أن بعض الوشاة نقل عنه أنه استخرج من جفر أن دولة الباي قرب انقراضها ، وأنه يطعن فيما لا يوافق الشرع من تصرّف الدولة .

ولما بلغ هذا النبأ للباي من قائله ، عزم قبل التبيّن على نكبته .

فلما كان يوم الاحد الحادي عشر من ذي القعدة سنة 1235 (20 أوت 1820 م) أتى الفقهاء للمجلس ، واجتمعوا في بيت الضياف على العادة ، ينتظرون الاذن في الدخول ، ولما خرج لهم باش حانبة بالاذن ، أوصاه الباي أن لا يُدخل معهم الشيخ اسماعيل ، ويُبقيه في البيت .

ولما أتاهم قاموا ، والشيخ من جملتهم ، فقال له باش حانبه : « لا اذن لك في الدخول ، واجلس هنا » .

ودخل أهل المجلس ، فقرر لهم الباي ما بلغه عن الشيخ ، ولم يعيّن الناقل ، ولا طلب من المدّعى عليه بهذا الذنب الموبق جوابا ، وأمر بنفيه الى بلد ماطر .

فوجم أهل المجلس ، ولم يفه واحد منهم ببنت شفة . وأحضرت له كريّطة فركبها من باردو الى محلّ نفيه ، وهو بلد ماطر . ونفي العدل الذي كان يستعين به في الكتابة ، وهو الفقيه الموثق أبو عبد الله الحاج محمد بن يونس ، الى منزل تميم . وسجن أتباع هذا العالم بالكرّاكة ، وكانوا من أماثل الناس ، وهم محمد العوفي ، والحاج محمد القلاّل ، وحسن الطبّاخ ، والحاج حسن بن عياد وشقيقه محمد ، وتشفع المجذوب الشريف أبو عبد الله محمد بن المهدي في شقيقه العربي . وتسرحوا بعد ثلاثة أيام من السجن ، ولا سبب لسجن هؤلاء الا اتّباع الشهوة المطلقة الملكية .

وتقدم لخطة الفتوى بعد هذا العالم ، الفقيه أبو عبد الله محمد ابن الشيخ المفتي أبي عبد الله محمد المحجوب .

وبعد هذا ندم الباي ، ولات حين ندم ، وسرّح الشيخ من نفيه في الثامن عشر من ذي الحجة (الثلاثاء 26 سبتمبر) ، فكانت مدة نفيه شهرا .

ورجع لاولاده وآله ، رافلا في الذاتيّ من كماله . وأقبلت العلماء والمدرسون على الاخذ عنه في علوّ داره . وصار بابه مناخ طالبي العلوم ، بعد أن كان مجمع تشاجر الخصوم . وزاده النفي رفعة ، والهضم سمعة ، ولله درّ القائل :

ان الامير هو الذي   يضحي أميرا بعد عزله
ان زال سلطان الولاية   فهو في سلطان فضله

وفي هذه السنة 1235 (1819/20 م.) أمر الباي باصلاح ساقية الجبل الاحمر ، ووصّل الماء من عين قصة لسقايات تونس كما كان . وأمر يهود الحاضرة بتنظيف فسقية الملاّسين ، وألزمهم الخدمة فيها بأنفسهم ، وجيههم وخاملهم ، والعاجز في بدنه يدفع عوضا للقادر منهم .

وقدّم لمباشرة ذلك الفقيه الوجيه ، مؤدب حفدته ، أبا محمد حسن ابن الفقيه العدل أبي عبد الله محمد التطاوني .

ودام العمل فيها مدّة ، واليهود في شدة ، لتخصيصهم بمباشرة العمل ، ومشاركة غيرهم في الانتفاع بالماء .

وما هكذا شأن ذمة الاسلام التي أخبر الصادق صلوات الله عليه بأن انتهاكها مؤذن بالذلّ والصغار .

ومن أسباب ذلك ضعف القوة ، ومن أسبابه ضياع الحامية وآلات الدفاع . ومصداق ذلك أنه في محرم من سنة 1236 ، ست وثلاثين ومائتين وألف (اكتوبر — نوفمبر 1820 م.) أمر الباي باخراج المراكب الحربية من مرسى غار الملح ، لوقوع ردم بباب البوغاز ، فجذبت بمشقّة ، وكادت أن لا تخرج .

ولما وصلت لحلق الوادي ، وقد أثّر فيها الجرّ خللا ، أمر باصلاحها وشحنها بالآلات والعسكر ، وكانت ثمانية : الفرقاطة الزهراء ، والفرقاطة الهجينة ، والفرقاطة المحرزية ،

والقرقاطة الاسلامبولية ، والكرويطة الجديدة ، والكرويطة الاسبنيورية ، والبريك الكبير ، والسكونة الكبيرة . وأمير الاسطول المذكور أبو النخبة مصطفى رايس ، والرؤساء محمد لازاغلي ، ومصطفى تكرور ، ومحمد رايس ، وسليمان رايس الارنووط ، وماميش رايس ، ومصطفى قاره قلقجي ، وكشك محمد ، ومحمد رايس طاطسز .

وكان استعدادها لحرب الجزيريين لمّا نكثوا الصلح المنعقد في سنة 1232 ، اثنين وثلاثين (1816/17 م.) ، بأخذ مراكب لبعض تجار تونس في رمضان سنة 1235 ، خمس وثلاثين (جوان — جويلية 1820 م.) . ولما تم تعميرها ، ونشر الرايةَ أميرُها ، أقلعت للجزائر . فردّها الريح الى حلق الوادي ، وأرست أمامه .

ولما كان يوم الاربعاء الرابع من جمادى الاولى في السنة 1236 (7 فيفري 1821 م) الموافق للسادس والعشرين من يناير (1) ، في الايام المعروفة عند العامة بالعزارة ، قوي الريح الشرقي ، وتعذّر عليها الخروج ، فألقاها الى ساحل حمّام الانف ، ولم ينج الا كشك محمد ، لصغر مركبه ، وحزمه وتحيّله على الخروج في المبادىء ، وأصبح الاسطول صريعا بحمام الانف ، وتوالت أيدي الامواج في فصله بعد وصله ، فأركب الباي وزيره أبا عبد الله محمد العربي زرُّوق ، وخير الدين آغة وغيرهم من الاعيان ، وطارت بهم عقبان الخيل في ذلك المطر ، وحملوا الثياب وما يلزم لنجاة من يخرج بالسبح ، ونصبوا أخبية على ذلك الساحل . فسلم من دافع عنه الاجل المقدّر ، ومات ما ينيف على خمس عشرة مائة . وانكسر أكثر ما بحلق الوادي من مراكب التجّار ، ودامت هذه الريح أيّاما ، ورعود الامواج تسمع بالحاضرة من ثمانية عشر ميلا كأنّها عند سور البلاد . وضاع هذا الاسطول بما فيه من المدافع والسلاح وآلات الدفاع ، وحصل لتونس أمام الجزائر ذل وصغار .

ثم ان الدولة العلية العثمانية وجّهت رسولا لعقد الصلح بين الجزائر وتونس ، فانعقد يوم الثلاثاء منتصف جمادى الثانية (20 مارس 1821 م) ، على رد جميع ما أخذ للتونسيين ، ونادت باعلانه أفواه المدافع في يومه صباحا ومساء ، وكفى الله المؤمنين القتال . وكان ذلك في السنة 1236 . وارتجل بعض الادباء في اليوم قوله مؤرخا : « لَمْ يُلْفَ في الحسن تاريخ كتاريخه (2) » .

---

(1) اى يناير العجمي

(2) ك ت ا ر ي خ ه = 1236 بحساب الجمل

ولما ضاعت هذه الشقوف بما فيها ، وانشاء عوضها بحلق الوادي يستدعي طول زمان ، وجّه الباي الرئيس أبا محمد حسونة المورالي وأبا العباس حميدة عزيز لانشاء شقوف بمرسيلية ، في هذه السنة التي خرج فيها القريق عن طاعة الدولة العثمانية في زمن معيّن ، تآمروا فيه للثورة في كل بلد ، وحمى الله قاعدة الاسلام ، وانكشف أمرهم قبيل الزمن المعيّن بيسير ، وقتل أكبر البطارقة بالقسطنطينية .

وفي هذه الحرب وجّه الباي أسطولا ممّا حضر بمرسيلية ، ومما اشترى به سبعة مراكب حربية ، أميره أحمد قبطان المورالي ، اعانة للدولة .

وركب أبو عبد الله حسين باي الى حلق الوادي يوم خروجها ، وكان في غرة محرّم من سنة 1237 ، سبع وثلاثين ، (الجمعة 20 سبتمبر 1821 م) وأردفه بمركبين حربيين .

وفي هذه الحرب كاتبت الدولة سائر ممالكها الاسلامية في التحريض على حماية الدين وجمع عصابة المسلمين ، وكاتب علماؤها علماء الاسلام ، فأتى الباي محمود باشا مكتوبٌ من الدولة ، ومكتوب من شيخ الاسلام الى رئيس المجلس الشرعي بتونس أبي عبد الله محمد بن أبي عبد الله محمد بيرم وجميع العلماء .

وكان هذا المكتوب باللغة التركية ، وعرّبه الكاتب صالح خوجة بيت المال ، وأجاب عنه الشيخ بيرم بما نصه :

« رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكافرين. ان أحسن ما تشرّفت به الامة المحمدية ، وتجمّلت به العصابة الاحمدية ، اتّباع أوامر الله ونواهيه ، وبذل الجهد في اعلاء هذا الدين وتشييد مبانيه ، اقتداء بصدرها الاول ، وعملا بسنّة نبيّها المرسل . ولعمري ان هذا في العبارة وان كان سهلا بيّنا ، ففي ابرازه للوجود ليس هيّنا ، لتوقفه على إمدادات الاهية ، وهداية ربّانية ، وداع الى الله بلسانه ، وعامل عليه برمحه وسنانه . وقد تطابقت جملة الانباء في سائر البلاد ، من جميع العباد ، ان القائم بهذا الشان ، والحائز قصب السبق في هذا الميدان ، ومجدّد الدين بعد الاندراس ، ومظهر أعلامه بعد الانطماس ، هو الدولة العثمانية ، أعلى الله منارها ، وضاعف اقتدارها ، وأنام الانام في ظلّها ، وأعاد عليهم من فضل فضلها ، فلم تخل — والحمد لله — من أمام يهدى الى الحق والى الصراط المستقيم ، ناهجين في نصح العباد مناهج الاصفياء . وقد

ورد علينا من حضرة مولانا شيخ الاسلام ، وامام العلماء الاعلام ، ومرجع الحكّام في الاحكام ، لا زالت أقلامه في بحار العلم سابحة ، ومواعظه للقلوب جارحة ، وتجاراته عند الله رابحة ، كتاب كريم ، هادٍ بأوامره ونواهيه الى الصراط المستقيم ، لا يقابله كلُّ مؤمن الا بالقبول والتسليم ، وكيفَ لا ؟ وقد جاء بالذكرى التي تنفع المؤمنين ، المأمور بها في الكتاب المبين ، حاثّا على الجهاد ، والتشمير عن ساق الاجتهاد ، بتعاطي أسبابه، وطرح الامور الصارفة عن بابه . فاجتمع لقراءته أعيان بلدنا من العلماء وغيرهم بمحضر الامير جمعا ، وفتحوا له قلبا وسمعا ، وتلقّوه بالقبول ، والمبادرة الى امتثال وعظه بالفعل والقول . والله تعالى يؤيد مولانا السلطان بمدد نصره ، ويجعل أعداء الدين تحت قهره ، ويعلي رايته الشامخة في البر والبحر ، ويكتب على صفحاتها سورة الفتح والنصر . والسلام اللائق بجلالكم من العبد الفقير محمد بيرم » . نقلتها من خطه رحمه الله .

ثم ان الشيخ أمر خوجات الجوامع الحنفية بالدعاء جهرا عقب كلّ صلاة بما نصّه : « اللهمّ أيّد سلطاننا بالنصر والفتح المبين ، وانصر عساكر الاسلام الموحّدين ، على أعدائنا القوم الكافرين ، بحرمة سيد الاولين ، صلّ اللهم وسلّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين » ، ثم يؤمّن على الدعاء .

واستمرت هذه العادة من يومئذ الى يومنا هذا .

وأيمّة المالكية يدعون سرا بالمحاريب اذ لا خوجات بها .

وأقول ان جواب الشيخ هو ما يقتضيه حال الوقت . وانظر قوله في شأن الاقتداء بالصدر الاول : « ان هذا في العبارة وان كان سهلا بيّنا ، ففي ابرازه للوجود ليس هيّنا » ، تر الاشارة الى الواقع . وليت هؤلاء « العلماء العاملين ، ورثة الانبياء ، الناهجين في النصح مناهج الاصفياء » نصحوا سلطانهم ، والدين النصيحة لله ورسوله وأيمة المسلمين وعامتهم ، بما يجب من الرعي لذمة الاسلام ، ووصاية المرسل لهدي الانام ، من النظر في أهل الذمّة بما أمر الله به من العدل في عباده ، بسائر أرضه وبلاده ، سواء في ذلك المسلم وغيره . ومن النصح أن يبيّنوا لهم ما بَيْن صَغَار الجزية والظلم من الفرق ، اذ بينهما ما بين الغرب والشرق . والصّغار ربّما يقود الى الجنة بالايمان ، والظلم يلجىء الى نار الفتن والخروج على السلطان . وقد وقع من التواتر ما أفاد اليقين وملأ البقاع ، ما كان عليه هؤلاء اليونان أيام عسكر الينجرية من العسف والضرر والبؤس ، وسلب الاموال

واتلاف النفوس ، لا سيما أوقات خلاص الجزية والخراج ، فان الشدة تقوى بما ينبو عنه الطبع وينفره السمع وتقشعرّ منه الجلود ، وهو الذي ألجأهم الى القاء أنفسهم في نار الحرب، واستعذبوا فيها طعم الموت . وللمسلم أن يدافع عن نفسه وماله أخاه المسلم ، ولو أدّى الى القتل ، وان مات فهو من الشهداء . وغير المسلم اذا اضطرّ ، يلجئه الطبع البشري الى ما يلجئه ، والله لا يظلم مثقال ذرّة ولا يهدي القوم الظالمين .

ولقد سمعت في اسلامبول من بعض علمائها العالمين بالشريعة تحققا لها واتّصافا بها ، أقسم بالله أنه كان يتوقع ما وقع ، لان الحال يقتضيه ، وأقوال الرسول واردة فيه ، والامر لله وحده .

هذا في ذلك الزمان ، أما هذا الزمن الذي أشرق والحمد لله بالتنظيمات الخيرية ، والتسوية التي هي بجلب المصالح ودرء المفاسد حريّة ، والتكاليف مشروطة بالامكان ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ، وفي غزوة الحديبية ما يوسع المضيق ، ويهدي الى الطريق ، فالخروج — والحالة هذه — غير متعيّن ، بل هو ظلم بيّن ، لما ينشأ عنه من إتلاف النفوس وضياع الاموال وتعطيل موادّ الاعمال بين الفريقين ، والله لا يصلح عمل المفسدين .

وفي الرابع من محرم سنة 1237 ، سبع وثلاثين ومائتين وألف (الاحد 1 اكتوبر 1821 م) ، عجز الداي أبو العباس أحمد الباوندي عن القيام بالخطّة لعجز الكبر ، ولزم تأخره . وقدّم الباي للخطة الداي فيضي ، وكان خيرا عفيفا حازما ، ليّن العريكة، ممتزجا بأهل البلاد ، عارفا بمنازل الناس ومقامات أعيانهم ، محبّبا فيهم ، محمود السيرة الدالة على حسن السريرة . تنقّل في الخطط ، وتقدم عوضه في بيت المال الحاج مصطفى التركي . وتوفي أحمد الباوندي بعد تأخّره بخمسة أيام .

وفي ربيع الاول من هذه السنة 1237 (نوفمبر — ديسمبر 1821 م) ، كانت ولائم أعراس أبي الفداء اسماعيل كاهية ، وكان يومئذ آغة ، على حفيدة الباي بنت ابنه أبي عبد الله حسين باي ، وأبي الحسن علاّلة قايجي ربيب الباي حسين ، على أختها ، والعقد على أختها لابي عبد الله حسين خوجة .

وفي غرة محرم من سنة 1238 ، ثمان وثلاثين (18 سبتمبر 1822 م.) ، وجّه الباي هدية من خيل البلاد وفارِه بغالها وجيّد نسجها ووحوش فلاتها ، الى عزيز مصر أبي

عبد الله محمد علي باشا ، مع الكاتب باللغة التركية أبي العباس أحمد حافظ خوجة ، فقابلهم العزيز باكرام واحتفال وإقبال .

الخبـر عن

مقتل الوزير أبي عبد الله محمد العربي زروق خزندار

السبب في نكبة هذا الوزير أنه كان مُدِلاً على الباي باعانته على الفتك بابن عمّه عثمان باي ، كما تقدم ، حتى امتطى صهوة الولاية . ويمُتُّ لاولاد الباي بخُؤُولة الرَّضاع . وكانت له نفس أبيّة ، ورام السير على قدم من تقدَّمه حذوَ النّعل بالنعل . وحجب القدر بصيرته عن سبب نكبة السابق ، وأتى ما كان ينقمه على غيره ، فتوجهت الآمال الى بابه ، معرِضةً عن غيره ، وانفرد بأمر المملكة ، وكَبَحَ عنها من سواه . وازدرى بأولاد الباي ، لِمَا يمتُّ به اليهم ، مع أن أكبرَهما هو الباي حقيقة ، ونسبة الامور الى والده نسبةٌ مجازية . وثقل ذلك عليهما وآسَفهما ، كما آسفهما حالُ يوسف صاحب الطابع ، فاجتبى أبو عبد الله حسين باي صهرَه وثقتَه المقرَّبَ حسين خوجه باش مملوك ، أحدَ مماليك الوزير يوسف صاحب الطابع وابنَ تربيته ، وأرخى له عنان التصرف في مشارطة العمّال والمداخيل التي كانت تقيّد بزمام الصرايا ، وأعان شراعه بنواسم عنايته ، فسار في لجج الرئاسة ، وزاحم الوزير الشريف حتى غصّ به ، وصارت تصدر منه فلتات تدلُّ على تنغُّصه ، الى غير ذلك مما تنتجه قضايا الغيرة والمنافسة بين المتعارضين من الاكْفَاء . وظهر للعيان ميلُ حسين باي الى حسين خوجة . ومع هذا فلم يزل الوزير العربي زروق يدعو حسين خوجة باسمه مثل ما يدعو ابنه ، غيبة وحضورا ، على ما اعتاده حالَ صغره ، وهو بين يدي سيده صاحب الطابع ، وباش مملوك يتنفّس الصعداء من ذلك ويراه تنقّصا وازدراء . وبذلك وجد حسّاد الوزير العربي زروق السبيل الى الوشاية به ، والتزلف لضدِّه بما يذكرونه من مساوئه ، لِمَا يجدون من الاذن الواعية .

ووجد حسين خوجة الفرصة لطلب ثأر سيّده والانفراد بالرئاسة ، فأعمل الفكر في نكبته ، وأسرَّ الى سيّده أبي عبد الله حسين باي ، ما يسمعه من الوشايات التي منها أن الوزير بالغ في استمالة جند الترك على يد صهره الحاج مصطفى ، وكان من أعيان

الترك . وأذكى العيون على باب داره بالحاضرة ، فأخبروه أن أعيان الجند يأتون لمسامرته . وأُتِيَ برجل من طرابلس يزعم أن عنده أثارةً من علم الرّمل ، ونقل عنه أن العربي زرُّوق يسأله عن أمد انقراض الدولة ، الى غير ذلك من حديث خرافة .

وحسين باي لا يكتم شيئا عن أخيه مصطفى باي ، فأتيا والدَهما وأخبراه الخبر ، مع ما في نفوسهما على الرجل من معارضته شهوتَهما ، ونظرِهما بالعين التي كان ينظرهما بها أيامَ الصغر ، وما في نفس الباي من نكيره على ابنه الكبير ، وهو الذي فوّض له في التصرف ، وحبُّ الولد طبيعي في كل حيٍّ ، فقال لهما : « نعلم أكثر من هذا وكما قام معنا لاخذ الملك يقوم مع غيرنا » . وأمر ابنه باعتقاله حتى تقوم عليه حجّة .

ولما كان يوم الاحد الحادي عشر (1) من صفر السنة 1238 (27 اكتوبر 1822 م)، أمر حسين باي يوسف كاهية دار الباشا أن يقف عند باب النحاس ، وقال له : « اذا مرَّ العربي زرُّوق خارجا لداره ، فتقبَّضْ عليه واسجنه في بيت المماليك » . واستحيَى أن يواجهه بذلك مشافهة .

ولما خرج تعرَّض له يوسف كاهية وقال له : « ان سيدنا أمرني بسجنك في بيت المماليك » . وكان ذلك على حين غفلة ، من غير تشاور ، ولا احضاره للجواب عمّا نسب اليه ، شأن الملك المطلق ، فتوجه للسجن وحده والكاهية خلفه ، ولم يتغير من وقاره ولا من حاله شيء .

وانما أخّر قتله رجاءَ أن يتقرب أحد بما يقوّي شبهة التهمة ، فلم يأت أحد .

ولما كانت ليلة الثلاثاء الثالث عشر (2) من صفر 1238 (29 اكتوبر 1822 م) ، أمر الباي بقتله ، فأتاه يوسف كاهية دار الباشا بعد العشاء ، ومعه رجال من أعيان المماليك بالسرايا بسلاحهم ، وأخرجه من محبسه ، فأخذ طريق السرايا ، ظنّا منه أن المراد إحضارُه بين يدي الباي ، فردّه يوسف كاهية ، فعلم المراد ، وتقدّم ماشيا ، وبيده سُبحة من المرجان يسبّح بها ، ولم يزل ماشيا بوقاره وقِناع تجمّله . ولما وصل الزندالة عدل وحده الى موضع الخنق ، وجلس على حصير به ، وجعل حبل المنية بيده في رقبته ، وقال

(1) هو 10 حسب التقويم
(2) هي 12 حسب التقويم

متعجبا : « الله أكبر ، أي شيء فعلت ؟ » فقال له يوسف كاهية ، على غلظته ، : « أنت تعرف ما فعلت » ، فقال له : « ليس الخطاب معك يا رأس البغل » . ونفذ فيه أمر الله ، وذهب مع أمثاله كأس الدابر .

وبعث الباي بشلوه الى تربته بالجلاّز ، فغسل بها ودفن ، خشية عبث السفهاء بجسده الشريف ، كما وقع لابي المحاسن يوسف صاحب الطابع .

واعتقل ابنَه واستصفى أموالَهما ، وعمّت النكبة أصحابه وأتباعه (1) ، كالفقيه أبي العباس أحمد بن رجب ، لتهمته بأنه ينظر له في النجوم ، والقائد الوجيه أبي العباس أحمد العيّاري ، فضربا خمسمائة سوط ، وسجنا بالكرّاكة . ونفى صهره الحاج

---

(1) بهامش ق ، ج 2 ص 139 بخط مغاير ، صورة خطاب من العربى زروق الى صهره الحاج مصطفى عشى باشى ، هذا نصه :

الحمد لله — وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم . حفظكم الله تعالى ورعاكم ، وكان لكم بمنه وكرمه وتولاكم . المكرم الاجل المرعى المبجل الامثل الاكمل الموقر المحترم ، صديقنا وصهرنا سيدى الحاج مصطفى عشي باشى ، اكرمه الله ورعاه ، وحفظه ووقاه . السلام الاتم ، الطيب المبارك الاعم ، عليكم ورحمة الله وبركاته ورضوانه وسعادته . وبعد فالواجب به اعلامكم خيرا ، هو أنك لما سافرت من عندنا ، تركتنا عندنا بعض تشويش ، وعندك علينا الخشية من مكر يوسف خوجة الذى كان خزنه دار ، وقد زاد بعدكم فى التشديد واظهار المكائد ، ويتلون بكل وجه من وجوه الخديعة ، وسعى بنا للموت مرارا فلم يساعده القدر ، وحاق به ما كان به فكر ، وظهرت عليه الخيانة والسعي بالفساد ، فى العباد والبلاد . وانكشفت سريرته لساداتنا ولاة افريقية المحميين بحماية الواحد الحي ، الكهف مولانا وسيدنا محمود باشا باى ، ولابنائه الرشداء ، وانجاله السعداء ، وان مراده يستقل بالملك دونهم ، فخسر الدنيا والآخرة . ولما تبين لهم ، أدام الله سعادتهم ، تحقيق مكره وغائلته بوجه لا شك فيه ، بلغهم من عدة طرق ، أقواها جواب من السيد الدولاتلى ، خديم مقامهم الشريف ، أجمعوا على قتله . فكان أول من باشره بضد ما كان يأمله فينا ، العبد الفقير وابننا سيدى محمد صهركم . وأثقلناه جراحا ، وذبحناه صراحا ، بحضرة ولى النعم المولى محمود باشا أعزه الله . وأرسلناه لتونس فى شريول ، فكان من قدر الله أن سلط الله عليه العامة وأخرجوه من الشريول غصبا ، وجروه عريانا طافوا به مدينة تونس ، من غير اختيار لاحد . وبعد هذا وشبهه من تلويث حاله ، تفضل علينا المولى الاعز ، سيدنا نصره الله ، بولاية وظيف خزنه دار ، عوضا عنه ، وألزمنا لذلك حتما علينا . وألقى علينا حله الولاية ، ونظر بعين الرضا التام الذى كان فى حياة المصاب يخفيه . وقامت لنا أهل البلاد عامة وخاصة بالبشائر . أدام الله علينا هذا الفضل العظيم ، بمنه وكرمه آمين . والسلام من صهركم محمد العربى زروق خزنه دار ، عفى عنه ، آمين . فى 14 ربيع الاول سنة 1230 (الجمعة 24 فيفرى 1815 م.)

استدراك مبارك ان شاء الله : ان داركم ودارنا وابننا وجملة الاحباب كلهم بخير ، يسلمون عليكم . وايضا فان جميع تباعه ، مثل اللوز ومن له به علاقة ، أحطنا بهم أخذا ونهبا لديارهم وأموالهم ، ولا زالوا الآن مسجونين ، مطلوبين فى المال والرقاب ، والله شديد العقاب . والمؤكد به عليكم أنك تصنع لنا طابع (كذا) عظيم القدر ، فى حجر يمانى جليل الوصف ، تكتب فى دوره أسماء أهل الكهف ، وفى وسطه محمد العربى زروق خزنه دار ، وتأتي به فى يدك ان شاء الله تعالى ، واليكن (كذا) مثمن الشكل ، قدر دورته فى مقدار دورة المرحوم بالله سيدنا حمودة (باشا) باى ، المسمى طابع الشون ، وتصلكم تذكرة بها الطابع المذكور ليقاس عليه . وأيضا تأتى لنا بمحبرة آبنوس عظيمة ، شغل اسلامبول ، عمل أهل الظرف منهم ، أطرافها فضة ، لكاتبنا الفقيه سى محمد المسعود ، وهو يسلم عليكم كثيرا . ولا زائد الا خيرا . والسلام ختام .

(هذه نسخة مطابقة لاصلها المختوم بختم صاحبه)

مصطفى آغة بيت المال الى القلعة الصغرى ، وتولى آغة عوضه انجا باش حانبه ، وتولّى باش حانبة عوض انجا مصطفى البلهوان ، وتولى وكالة أبنية باردو زهير أحد مماليك اسماعيل باي ، وكان وكيلا بقرنْبالية . وتنوعت بخواصّه النكبات ، وتفنّنت الحساد بعد موته بمقالات يتزلفون بها الى الباي والوزير بعده ، حتى إنهم نسبوه الى الكفر ، وادّعَوْا أنهم وجدوا صليبا في عمامته ، وهو لوح من فضة به حروف ، صنعه له بعض من يدّعي سرّ الحرف في طالع الزهرة ، ورأيته عند الوزير أبي عبد الله حسين خوجة بعد موته ، حتى قال بعض جهّال المماليك لحسين باي ، بمحضر جمع من الاعيان : « لا يبعد في حق هذا الرجل أن يقوم على دولة ، لانه يعرف كلّ حاجة ، حتى العوم في الماء » ، وصار يكرّرها ، ووجد الاذن الصاغية لهذا الهذَيان ، الذي عُدّ من الادلّة على ثبوت ما في نفسه من القيام ، الى غير ذلك من مقالات يستحي الناقل من ذكرها ، حتى قال بعض الناس : « الاعتماد على عفو الله ورحمته بالقدوم على نفس محرّمة شريفة بالقتل ، وأخذ المال عمدا وعدوانا لغرض الشاهية ، والتجاهر بذلك أنسب من التعلق بهذا الهباء المنثور ، من الافك والزور ، ولا سيما في الملك المطلق الذي لا يسأل صاحبه عمّا يفعل الاّ في الآخرة » .

وسيأتي ، ان شاء الله تعالى ، لهذا الوزير مزيد خبر في ترجمته .

ولما مات أوصى الباي بكتمان موته عن أخته من الرّضاع ، السيدة آمنة زوج الباي وأم أولاده وبنت عمّه ، لمرضها المخوف . وقد كانت تواليه ويتوجه معها للتداوي بحمام الانف ، مع وجود مَحْرَمها زوج بنتها أبي الربيع سليمان كاهية . وتوفيت بعده بنحو الخمسة والاربعين يوما ، ليلة الثلاثاء ثالث ربيع الثاني من السنة 1238 (18ديسمبر 1822 م) . وحزن لفقدها أولادها حزنا لم يعهد مثله ، ووضعت على النعش أمام باردو ، وأولادها وراءها راجلين الى تربة أبيها . وأُعتِق عليها ما يُنيف على المائتي رقبة ، وسار نعشها مظلّلا بصحف حرّيتهم . وأفاض زوجها الصدقات ، وسرّح المساجين . وحزنت لفقدها المملكة سنة كاملة ، لكمالها الذي صيّرها في الحاضرة بمنزلة الام الشفيقة الرفيقة . وكان أخوها حمّودة باشا يَبرّها بُرور أمّه . وهي من المعدودات في أفراد النسوة من جهة حسب النسب ، أبوها الباشا علي باي ، وجدّها باني البيت حسين بن علي ، وعمّها وحموها محمد باي ابن حسين باي ، وأخواها حمّودة باشا وعثمان باي ،

وزوجها الباشا محمود باي ، وولداها الباشا حسين باي والباشا مصطفى باي . والى ذلك يشير شيخنا العلاّمة أبو اسحاق ابراهيم الرياحي في تاريخها بقوله :

سكنتْ فسيحا في الجنان ظليلا ... وقطوفها قد ذُلّلت تذليلا

لا تحسبوها في الثرى ومَقيلها ... يهوى الثريّا أن يكون مَقيلا

سِرٌّ الهمام ابن الحسين عليٍّ الْـ ... ـملكِ الذي اتّخذ الصّلاح خليلا

أم الملوك وأختهم وكفى بمحـ ... ـمودٍ أميرِ المؤمنين حليلا

وفي يوم الاحد الثامن والعشرين (1) من جمادى الاولى من السنة 1238 (9 فيفري 1822م)، رسم الباي برجا جديدا قرب مقام السيدة المنّوبية ، في الموضع الذي اختاره حمّودة باشا وذكره في رسم حبسه على الابراج ، مع برج الموضع المعروف بالمنيْزه ، خارج باب الخضراء ، وعاقته المنية عن بنائهما . وكان في موضع هذا البرج الذي رسمه ، مطحن يدور بالريح ، لابي الثناء محمود الجَلّولي . وأشرف هذا البرج على التمام ، ولم يبق فيه الا جعل الابواب والمدافع ، وهو على حالته الى الآن ، لتطيّر بعض الملوك الاسلامية باكمال ما ابتدأه غيره ، ولا دليل على ذلك في خبر ولا أثر .

وفي منتصف شعبان السنة 1238 (الاحد 27 افريل 1823 م) ، توفي الداي فيضي ، ودفن بتربة ابراهيم داي ، قرب سيدي علي بن زياد رضي الله عنه ، لانه خدم معه باش حانبة ، وساء أهلَ البلاد موتُه . وولي عوضه عمر داي ، وكان آغة القصبة ، وتولى كاهية عوضه ، وتولى حسن كاهية له .

وفي الثاني عشر من شوال السنة 1238 (الاحد 22 جوان 1823 م) ، منع أبو عبد الله حسين باي أولاد عثمان باي من الخروج ، وحبسهم مع أمّهم بالمحل المعدّ لاعتقالهم بالدار الكبيرة ، وذلك لمّا توجّه والده للنزهة بالعبدلية ، وقد كانوا عنده بمنزلة الابناء .

وفي هذه السنة 1238 (1822/23 م) ، سقط جدار متداعٍ على امرأتين بالطريق فماتتا ، وتداعى أولياؤهما مع رب الجدار الى الحكم الشرعي ، فادّعى صحة الجدار وأنه لم يُتقدّم له بانذار في شأن تداعيه ، فأمر الباي أمناء البناء بالحاضرة بالدوران فيها مع

(1) هو 27 حسب التقويم

المشايخ وعدلين ، فاذا وجدوا حائطا يُخشى سقوطه ، وضعوا عليه علامة بطين المَغْرَة ، وأمروه بازالة الضرر . وتلك العلامة هي التقدم بالانذار ، بحيث تلزمه دية من يموت بسببه . واستمرّ هذا العمل من يومئذ الى يومنا هذا .

وفي الثاني عشر من ذي الحجة 1238 (الاربعاء 20 أوت 1823 م) ، ظهرت مراكب من القريق في سواحل ثغور تونس ، تقطع الطريق على مراكب المتجر ، وهي المسماة بالزبنطوط (1) ، أي عارية عن النسبة . واشتدت وطأتهم بأخذ الاموال ، والتمثيل بقتل أصحاب المراكب وتغريقها ، وتعطلت التجارة بسبب ذلك ، فجهّز الباي ثلاثة مراكب حربية ، أمّر عليها حسونة المورالي ، فشرّدهم من بحار المملكة . وقطع الله عموم ضررهم بسطوة الدول العظام .

وفي يوم عيد الاضحى من السنة (الاثنين 18 أوت 1823 م) ، عين الباي أميرا على الحجّاج ، وهو السيد الشريف الماجد أبو عبد الله محمد بن عبد الملك العواني القيرواني ، وضرب التارية في صحن جامع الزيتونة ، بعد صلاة العيد ، وطلع بها الى باردو ، ودار بها الاماكن المعظمة ، ومعها صناجق من مقامات بعض الاولياء . والتارية في العرف طبل من نحاس على شكل قصعة ، يضربه الضارب بعقال بعير ، ويترنم بنغمة حجازية بأبيات موزونة ، في التشوق الى بيت الله وحرم رسوله ، ويذكر تلك المعالم المعظمة والمنازل الكريمة . فاذا سمعها من لبّى عند أذان الخليل صلوات الله عليه ، يحنّ ويشتاق ويستعدّ للحج ، ان استطاع اليه سبيلا . ولما سمعها الباي وأبناؤه ، ظهرت عليهم الرقّة والخشوع ، وذرفت عيونهم بالدموع ، كغيرهم من الناس ،والاعمال بالنيات .

وهذه عادة قديمة في هذا القطر ، حين كانت المشقّة في سفر البحر ولا وجود للسفن البخارية . فكان الغني من أهل المملكة اذا أراد السفر لقضاء فرضه في البر ، يستأذن الباي ، ويكتب له منشورا في إمارته على رفقته . فيضرب هذا الطبل تشويقا للناس ، لتكثر رفقته . وتوجهت هذه التارية الى الباشا أبي الثناء محمود باي ، وهو في

---

(1) زبنطوط من الايطالية Sbandito : المنفى ، المبعد . وتوسع فى استعمالها فصارت تطلق على المتشرد ، والصعلوك ، واللص ، والقرصان (دوزى) . وتستعمل فى العاميه التونسية بمعنى الفقير المعدم .

متنزهه بالعبدلية . وشأن هؤلاء الاغنياء في شيخوخة (1) ركاب الحاج ، اعانة الضعفاء من الحجّاج ، وحمل كَلّهم ، ومواساتهم مما رزقهم الله ، ترغيبا في الحج . ومنهم من يحج بما يأخذه من الاجر على عمل بدنه في الطريق . ومنهم من يموت فيأتي أمير الحج بمخلّفه لورثته ، الى غير ذلك مما يلزم له الوازع .

وقد خرج صالح زيد أميرَ حجٍّ من تونس ، وخرج معه العالم الحاج حمّودة بن عبد العزيز قاضيا (2) . وخرج الحاج عمر المرابط أميرَ حجٍّ أيام الباشا علي باي ، وذلك في رجب من سنة ثمانين ومائة وألف (ديسمبر 1766 م) ، كما رأيته في منشور ولايته بخط الوزير العالم الاكتب أبي عبد الله محمد بوعتّور .

وسافر الشريف العواني الى الحجاز بالركب ، وقضى بمن معه من المسلمين فريضتهم ، وتوفي بالمدينة المنوَّرة خامس محرَّم من سنة أربعين (الاثنين 30 أوت 1824 م) ، ودفن بالبقيع في حمى جدّه صلوات الله عليه .

وفي محرم من سنة 1239 ، تسع وثلاثين ومائتين وألف (سبتمبر 1823 م) ، أمر الباي عدول الحاضرة المنتصبين للشهادة بلبس عمائم (3) الفقهاء والتزيّي بزيّهم ، وتوعّد من خالف هذا الامر بالعزل والعقاب ، ومن العدول شبّان وجَهَلة ثَقُل عليهم هذا الزيّ ، ورأوه من التمثيل بهم ، باعتبار حالهم .

ويوم المولد النبوي من السنة 1239 (الاحد 16 نوفمبر 1823 م) ، قتل الباي أبو عبد الله حسين باي ، نيابة عن أبيه لمرضه ، نصرانيا بالسيف في بطحاء القصبة . وامرأة بالغرق في ماء البحيرة ، ومُكَاريا على حماره بالشنق في المشنقة ، قتل ثلاثتهم في يوم واحد . والسبب أن المزوار (4) اشتكى بأن حمّالا حمل امرأة على حماره الى نصراني بالمرسى ، وبذكر المزوار أمر باحضارهم وقتلهم . وقال له بعض الجهّال : « هنيئا لك

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : مشيخ ، ويعبر بهذه الصيغة – هنا وفي مواضع أخرى – عن منصب الشيخ ووظيفته .

(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : شبه قاض

(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : عمائم مثل المفتين والقضاة

(4) كذا في ع و ق ، وفي خ : « المزوال » ، وهو تحريف . فقد جاء في « الذيل » لحسين خوجة ص 186 ان المزوار هو صاحب الشرطة . وفي دوزي انها من البربرية « أمزوار » . أما المزوال فهو من وظائف الحفظة بجامع الزيتونة انظر الرزنامة التونسية 1320 هـ تاليف محمد بن الخوجة ص 65 .

يا سيدنا ، غيّرت هذا المنكر في هذا المولد الشريف » ، فالتفت الى شيخنا الكاتب أبي عبد الله محمد المنّاعي كالمستفهم ، فقال له : « يا سيدنا ان شريعة صاحب هذا المولد لا تبيح قتل واحد من هؤلاء الثلاثة ، بل أمرت في مثل هذا بالستر » ، فعارضه بعض الجهلة بأنه حد من حدود الله ، فقال له : « أين شروط اقامة الحد في مثل هذا ؟ على أن الكافر لا يقام عليه الحدّ ، لانه لم يدخل في الملّة ، وحسبه التعزير بما دون الحدّ . وأي حد على الحمّال صاحب الحمار ؟ » ، فاستحى وقال : « حملتني الغيرة لدين الله »، والله الغفور الرحيم .

وهذه خطة المزوار في الحاضرة ، كانت على عهد الملوك من بني أبي حفص ، وهي الحِسبة على تغيير المنكر ، ثم صارت الى ضدها في زمن الترك ، يتولاها الواحد على مشارطة مال معلوم ، ويحصي عدد العاهرات ويسرّحهن للتزوج بأنفسهن ممّن يرتضينه ، على بعض فتاوى المذهب الحنفي ، وفي اختلافهم رحمة . ثم اتّسع الخرق على الراقع وتفاحش الامر ، حتى أبطل هذه الوظيفة الشنعاء الباشا أبو النخبة مصطفى باي لمّا آل الامر اليه ، كما تراه في الباب الخامس ان شاء الله تعالى .

وفي الخامس والعشرين من ربيع الاول(1) (السبت 25 ربيع الاول 1239 ـ 29 نوفمبر 1823م) ، توفي الولي المجذوب صاحب الكرامات المتواترة (2) أبو المحاسن يوسف عريفات ، ودفن بمقام الولي سيدي مصطفى الجزيري ، على يسار الداخل من باب جامع صاحب الطابع . وهرع أهل الحاضرة للتبرّك بمشهد جنازته ، وتبركوا حتى بماء غسله . وكان هذا السيد على درجة من الزهد ، يمشي حافيا مكشوف الرأس حليق الذقن والشارب ، يميط الاذى عن الطريق ويأخذ الدراهم من الناس ويفرّقها على الصبيان والفقراء ، يلتحف برداء صوف ليس بينه وبين بدنه شيء ، صادقا في المعاملات يشتري السِفساري (3) نسيئة بعشرين ريالا ويقطعه ثلاث قطع أو أربع ، يبيع القطعة لعملة البرادع ونحوهم بريال فأقلّ ، ويقول : « المتجر يقطع سلاسل الفقر » ، حتى صار حاله مثلا في البلاد لمن يجهل حال التجارة ، ويقولون : « هذا متجر سيدي عريفات » .

(1) فى ع بزيادة : « من السنة » ، وفى ق بزيادة : « من السنة 1238 »

(2) فى ع و ق : الشائعة

(3) سفسارى ج سفاسر : رداء من قطعة واحدة غير مخيط تلتحف بـه المرأة اذا خرجت من البيت .

ويدفع ثمن السفساري لربّه بما اشتراه ، الى غير ذلك من حالات المجاذيب ، ولله في خلقه أسرار . سمعت من العالم الصالح بلسان الشرع ، أبي المحاسن يوسف بن ذي النّون الزوابي (1) الشريف ، وكان يسكن ببيت في صحن جامع يوسف صاحب الطابع ، منقطعا لعبادة الله ، وكان هذا المجذوب يبيت غالبا في صحن هذا الجامع تحت أديم السماء ، أنه سمعه يتلو القرآن داخل الجامع ، أمام المحراب في جوف الليل ، من حفظه بترتيل وأداء . ولما وقف عليه ، ناشده الله في كتمان ذلك ما دام حيّا ، ولما توفي نشر هذا الخبر . وأهل الحاضرة يذكرون له من الكرامات عددا كثيرا . والله يخلق ما يشاء ويختار . وهو من أبناء جند الترك المتأصلين في الحاضرة ، رحمه الله .

وفي رجب من السنة 1239 (مارس 1824 م) ، رجع العلاّمة أبو الفداء اسماعيل التميمي لخطّة الفتوى ، وتقدم على الفقيه أبي عبد الله محمد ابن الشيخ أبي عبد الله محمد المحجوب .

هذا ما تتوق له النفس من الحوادث في دولة الباشا أبي الثناء محمود باي .

حال هذا الباي

كان غرًّا كريما ، والمؤمن غِرٌّ كريم ، حليما ذا همة عالية ونفس ملوكية .

سمعت من ابنه أبي النخبة مصطفى باي ، قال : « قبضت دراهم من جهة سراح (2) زيت وكانت ذهبا ، فجعلتها على مَعَدٍّ وشرعت في عدّها في بيتي ، فدخل والدي وأنكر علي ذلك وجعل يقول : أولاد حسين بن علي متاع عقاب الزمان (3) ، يعدّون الدراهم بأيديهم على المعدّ مثل القُبّاض » (4) بهذا اللفظ ، وجعل يكرر ذلك مبالغة في الانكار .

[وكان] رقيق القلب ، سخيّ الطبع ، فكانت العملة من البنّائين والنجارين والخدمة يفرحون اذا كان له عمل بداره ، لكثرة ما يعطيهم من الذهب ، ويصنع لهم

---

(1) كذا في خ ، وفي ع وق : الزوالي
(2) سراح ج سراحات : الاداء على ما يخرج من القطر من الحبوب والزيت والتمر والصوف والصابون (الصفوة 2 : 56)
(3) متاع عقاب الزمان : أهل آخر الزمان (في طور انحطاطه وفساده) عامية تونسية
(4) كذا في ع وق وفي خ : بأيديهم مثل القابض .

ألوانَ الاطعمة الفاخرة ، ويأمرهم بالراحة اذا مرَّ عليهم في الخدمة زمن من النهار . وكان وزيره أبو عبد الله محمد العربي زرُّوق يقول له : « أفسدت علينا الخدَمة يا سيدي » ، فيقول له : « الشأن أن المحتاج حقُّه أن يفرح بالخدمة في أماكن الملوك » .

له مشاركة علمية اكتسبها أيام عمّه من الشيخ الامام أبي محمّد حمودة باكير. وربما نظم الشعر ، وكان ابنه حسين لما أتم العمل في بيته الكبرى بداره ، مدحها بأبيات بقي في حفظي طالعها ، وهو :

علوت يا بيت كل البيوت   وحزت من بينها كل زين

يحب الخير لسائر عبيد الله عموما ولرعيته خصوصا ، ويتغافل عن مسيئهم ويُقيل عثرته ، ويتمدح باحتمال الهفوة .

وله شغف بأهل الحاضرة حتى إنه كان يتوجه للنزهة في الصيف بالعبدلية الصغرى (1) وقصره بها مشرف على الصفصافة ، موضع نزهة العامّة (2) من أهل البلاد ، فكانوا يتحاشون الجلوس والاجتماع والالعاب (3) من حيث يراهم ، إعظاما له ومهابة ، فبعث اليهم قائلا : « إن لم تفعلوا ما اعتدتم فعله من اللعب بالنرد ونحوه (4) وسماع آلات الطرب واستعمال الدخان ، رحلت من هذا القصر . لانّي أتيت للنزهة بالبحر ، وأعظم منها نزهتي بسروركم . وبودي أن أكون معكم ، لولا مانع المنصب » .

يغلب عليه الخير في أحواله ، حتى إن ابنه اذا عاقب أحدا بذنب ، يبعث له ويطلب منه أن لا يدعو على ابنه ، وربما تحلّله بالمال سرا .

يحبُّ الطِّيب واظهار نعمة الله عليه . ربّى نفسه ، زمن شبابه في دولة ابن عمّه ، بالانكماش في بيته ، فتطبّع بذلك ، حتى في أيام ولايته لا يخرج الا لحاجة . وكان لمحبّته في الطّيب يشغل نفسه باستخراج أرواح الرياحين ، وتصعيد أبخرتها وخلط بعضها ببعض ، وبرع في ذلك . وفي حاضرتنا عطر يسمّى « الفَشْوُش » ، هو الذي اخترعه وسمّاه .

(1) « الصغرى » ساقطة من غ ، مثبتة في ع وق .

(2) « العامة من » ساقطة من غ ، مثبتة في ع و ق .

(3) « والالعاب » ساقطة من غ ، مثبتة في ع وق .

(4) « بالنرد ونحوه » ساقطة من غ ، مثبتة في ع وق .

وله من المباني الانيقة ، البيت المعروف ببيت البلاّر (1) في قصر باردو ، وأبدع فيها (كذا) ما شاء من كسو حيطانها بالمرمر ، وتزيين سقفها بالصنعة المعروفة « بالعربي » مثل النقش ووراءه مرائي البلار ، ولطخ أخشابها بخالص الذهب . رأى أحد الموكّلين بالعملة يفتش في ثياب أحد الخدمة ، فقال له : « ما تفعل ؟ » ، فقال له الموكل : « أخشى أن يكون سرق من أوراق الذهب » ، فقال له : « عليه بالسرقة وعليك بالعسّة ، واذا لم يسرق من هذه الدار فمن أي دار يسرق ؟ » ، ونهى عن تفتيش الصنّاع وهتك أستارهم . وجعل مصاطب هذا البيت مثل سقفه . وهي موجودة الى الآن من أفخر البيوت بباردو ، وهي الآن المعدّة لقبول أهل المجلس الشرعي والمدرّسين يوم العيد ، وقناصل الدول وأعيان الناس .

وهذا الباي هو الذي فتح باب السرف في الترّف من الملابس والحلل وغير ذلك مما تتعلق به الشهوات الملوكية ، غافلا عمّا يقتضيه حال المملكة . ووزيره أبو عبد الله محمد العربي زرّوق يعاني شدائد السياسة في معارضته ومعارضة بنيه ، حتى كانت من أسباب نكبته .

أتاه فقير الى المحكمة يطلب صدقة ، فاستدناه وقال له : « أنا فقير مثلك ، ولو أعطوني أعطيتك » ، فأعطاه ابنه مصطفى باي . وخرج الوزير فأتاه بزمام القبض والدفع ، وقال له : « صدقت يا سيدي في أنك فقير ، وزمامك يشهد لك في قدر المقبوض والمصروف » ، فلم يلتفت للزمام ولا نظره . وكان الحال مستورا بمخلّف الوزير يوسف صاحب الطابع ، من النّاضّ والاموال المفرقة عند الناس للقراض وغير ذلك ، وبما غنم من أموال أتباعه ، وبكسب العربي زرّوق لمّا صاح به صائح الدهر .

وفي هذه السنة اشتد بالباي أبي الثناء محمود باشا مرض موته النقرس المصاحب له ، مع مرض السن (2) ، ولزم الفراش . وقبل وفاته بثلاثة أيام دفع خاتمه لابنه حسين باي ، فبكى وامتنع من قبوله ، إكبارا لابيه ، فقال له : « آلمني حمله في مضجعي ، ولا نأمن عليه غيرك ، فاحتفظ به » .

---

(1) بلار : بلور (دوزى)

(2) كذا في ق وع ، وفي خ : واشتد به مرض النقرس المصاحب له مع السن الخ ....

ولم يزل هذا الباي محبّبا الى الناس ، على اختلاف الاجناس ، يرفل في حلل الثناء الضافية ، والمملكة في مهد أمن وعافية ، وثروة كافية ، وأبناؤه يتسابقون في طاعته ، الى آخر ساعته . وكانت ليلةَ الاحد الثامن والعشرين من رجب سنة 1239 ، تسع وثلاثين ومائتين وألف ، وإمامه في الصلاة عند رأسه يتلو القرآن ، وهو يتشهّد . واتفق أن كان ابنه مصطفى باي غائبا بمحلّة الجريد ، لم يشهد وفاته . ودفن كأمثاله في تربة عمّه ، وما عبس المحزون بدفنه حتى تبسّم بولاية ابنه .

الباب الرابع

في دولة

الباي أبي عبد الله حسين باشا

ابن محمود بن محمد بن حسين بن علي

مولد هذا الباي يوم الخميس الثاني عشر (1) من ربيع الثاني سنة ثمان وتسعين ومائة وألف 1198 (4 مارس 1784 م.) ، وأمّه بنت عمّ أبيه المتقدم ذكر وفاتها .

بويع البيعة العامة صبيحة يوم الاحد الثامن والعشرين (2) من رجب سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف 1239 (28 مارس 1824 م.) ، وطيّر لاخيه بمحلة الجريد (3) بنعي والدهما ، وأمره بأخذ البيعة عن الناس ، وسدّ ذرائع الفساد والفتن ، وتأمين السبل ، واستعمال الحزم . فقام بامتثال أمره ، وتمّم خلاص الجباية ، وقفل راجعا . وكان وصوله يوم الخميس السادس عشر (4) من شعبان السنة (15 افريل 1824 م.) . وقال لاخيه : « أنا لم أفقد بوجودك أبي ، فأنت الآن أبي » . وذهب الى التربة فزار قبر والده . وقام بطاعة أخيه ، واقفا عند أمره ونهيه . وكان بينهما من المحبة والالفة والوصلة ما لم يسمع بمثله ، أحكمت عَقْدَ ذلك أمّهما .

وافتتح الباي أمره بالعفو عن المذنبين ، واطلاق المسجونين والمنفيين . فسرح الشريف أبا عبد الله محمد ابن الوزير أبي عبد الله محمد العربي زرّوق من اعتقاله ، بعد أن لبث في السجن عاما ونصفا ، ثم رجّع اليه ما بقي من رَبعه وعقاره ، وقد فات المنقول . ورجّعه لوكالة أبنية باردو ، واختصه لمؤانسته ومجالسته ، وأدنى منزلته .

وسرّح الحاج يونس بن يونس وابنه من السجن ، لتهمتهما بضرب السكة . وسرح الحاج مصطفى التركي من النفي .

وأقرّ رجال الدولة والعمّال على مراتبهم ، وهم في الحقيقة رجاله وشيعته ، لان دولة أبيه محسوبة من دولته ، كما تقدم . وأيامه أيام صفو وراحة وأمن وسرور .

ووزيره أبو عبد الله حسين خوجة هو القائم بأحوال مملكته ، واقفا عند أمر سيده ونهيه ، محترسا من ذنب المراجعة لانه رأى نتيجتها . ومع ذلك لم يستغن الباي عن آراء بقية الوزراء ، كأبي الربيع سليمان كاهية ، وأبي عبد الله محمد الاصرم باش كاتب

---

(1) هو 11 حسب التقويم

(2) هو 27 حسب التقويم

(3) « بمحلة الجريد » ساقطة من خ ، مثبتة في ع و ق

(4) هو 15 حسب التقويم

[وكانا يعارضانه بابداء رأيهما] (1) ، وأبي عبد الله محمد خوجة أمين (2) الترسخانة ، وعبد الوهاب باش حانبة وغيرهم . ثم أردفه بالوزير شاكير صاحب الطابع .

وفي الخامس والعشرين من صفر سنة أربعين ومائتين وألف 1240 (الثلاثاء 19 اكتوبر 1824 م.) ، توفي آخر ذرية علي باشا بمحبسه ، واسمه يوسف ، ودفن بتربة جدّه الباشية قرب مدرسته . وقد زاره هذا الباي في محبسه ولاطفه وآنسه ، وأهدى له أنواعا من التحف والطيب ، وقال له : « المنافسة زالت بزوال أجدادنا ، ومهما أردت لقائي فلك ذلك » ، فقال له وكان شيخا مسنا : « قد ألفت هذا المحلّ [وتأنّست فيه بالعزلة] (3) مع ما ترى من ضعف البدن » . وكان يقضي حوائجه ويجيب مطالبه ، [ويهاديه بأنواع المطاعم في رمضان والمواسم ، قبل وفاة أبيه وبعدها] (4) .

وفي آخر ربيع الثاني من السنة 1240 (الثلاثاء 21 ديسمبر 1824 م.) ، فرّ الى جبل باجة رجل من حوانب الترك اسمه علي بن مصطفى ، معروف بتونس ، وادّعى أنه من ذرية الباشا علي بن محمد ، فالتفّت عليه أوغاد الجبل ، وانضمّ اليهم من يطلب الرزق بالفتنة ، وشنّوا الغارات ، واستاقوا الانعام من مراتعها ، وقتلوا من دافع عن ماله . فجهّز الباي محلة بالعسكر والمخازنية ، ومحلة بعسكر زواوة ، لنظر أخيه أبي النخبة مصطفى باي، وكاتب سائر المزارقية بالعروش ان يلتفوا على المحلة . وكانت المملكة يومئذ على قوّتها وثروتها بما يقتضيه حالها .

وخرجت المحلة يوم الخميس الثامن (5) والعشرين من ذي القعدة (14 جويلية 1825 م) . وسار مصطفى باي بجنوده ، والتفّ عليه المزارقية ، وقصد الجهة التي بها علي ابن مصطفى من الجبل ، وأنكى في القائمين بدعوته ، ودوّخ الشيحيّة وماكنة وعمدون وغيرهم ، حتى شرّده ومات بالجزائر طريدا .

وأغرم الجبلَ أموالا استاق فيها أنعامهم ، وخضد شوكتهم . وأبلى في هذه الواقعة زواوة والمخازنية بما بَعُد العهد بمثله من الصبر والشجاعة واقتحام الاوعار . وظهر فيها من ثبات خير الدين آغة ومصطفى صاحب الطابع ما لا يستطيع الجاحد جحده .

---

(1) هذه الجملة ساقطة من خ ، مثبتة فى ع و ق

(2) فى خ : « أمين » وفى ع و ق : أمير

(3) هذه الجملة ساقطة من خ ، مثبتة فى ع و ق .

(4) هذه الجملة ساقطة من خ ، مثبتة فى ع و ق .

(5) فى خ : الثانى ، وفى ع و ق : الثامن ، وهو الموافق لما جاء بعد ذلك عن تاريخ رجوع المحلة ومدة مغيبها .

ورجع مصطفى باي بالمحلة مظفّرا منصورا ، في الثامن والعشرين من صفر سنة احدى وأربعين ومائتين وألف 1241 (الثلاثاء 12 اكتوبر 1825 م) ، وكانت مدة مغيبه ثلاثة أشهر.

وفي أواخر ربيع الثاني من السنة 1241 (أوائل ديسمبر 1825 م.) ، وجد يهودي في حفرة قربَ الدبّاغين ، ينتظر أفرادا منهم له عليهم دين ، وبالقرب منه عجوز شوهاء مختلطة العقل لا إرْبة (1) فيها ، فتمكن (2) المدينون بغريمهم اليهودي ، واتّهموه بأنهم وجدوه مع هذه العجوز ، قياما لله ، وهو قيام لمصلحتهم في ضياع دين اليهودي . ولما رجعت (3) النازلة بالمحكمة أمر بقتل اليهودي في ذلك الموضع ، فأسلم فلم يدرأ عنه اسلامه ذلك القتل الذي سمّي حدًّا . وجرُّوه من ذلك الموضع الى حارة اليهود ، وورثه بيت المال . وقتلت المسكينة المختبلة العقل بالغرق في البحيرة .

ولما اشتد النكير على الباي من بعض وزرائه في الاستعجال بالقتل من غير تأنٍّ ، والعجلة من الشيطان ، رام استفتاء العلماء في ذلك ، فثبّطه الوزير أبو عبد الله محمد خوجة أمين الترسخانة سرًّا ، فقال له : « سبحان الله ، لا يغار المؤمن لله ولدين الاسلام ؟ » فقال : « لا يغار بأكثر مما غار الله تعالى » .

وفي رجب من سنة 1240 (فيفري — مارس 1825 م.) ، اقتضى حال المملكة وقتئذ تبديل السكة بتنقيصٍ من فضتها ، لان التجار اذا لم يساعدهم شراء نتائج المملكة ، يُخرِجون أعيان السكة . وبسبب ذلك قلّت في المملكة ، مع ما في تبديلها من ربح عاجل للدولة يؤول إلى ضررها بنقص ثروة المملكة الذي هو عمود الجباية . لان التجار لا يعتبرون في تجارتهم الا الريال الدُّورُو (4) الخالص . فجمع الباي ما أمكنه من ريالات المملكة ، وأعاد ضربها على هذا الوزن الموجود الآن ، وهو تنقيص ثُمُن أوقية من فضة الريال وإبداله بالنحاس .

وكانت زِنَة الريال خمسة أثمان الاوقية ، منها ثلاثة من خالص الفضة واثنان من النحاس ، فصار ثلاثة أثمان من النحاس وثمنين من الفضة . وضرب الريال الذي صرفه

(1) كذا في خ و ع ، وفي ق : لا ارب فيها للرجال .
(2) تمكن به : قبض عليه (عامية تونسية) .
(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : رفعت .
(4) من الاسبانية Duro ، ومنه Douro الفرنسية .

ريالان ، ولا زال يتبع السكة السابقة ، وحَجَّر على أهل المملكة بيعَها للتجار ، ولا زال مُحَجَّرا في دولته ، حتى إن محمد بن احمد بن يوسف الوِسْلاتي ، أحد التجار من أعيان الوسالتية بتونس ، باع ريالات كانت عنده لغير الدولة ، ووقعت السعاية به أيام تصرف الوزير شاكير صاحب الطابع ، فعوقب بالضرب المبرح .

وهذا التبديل في السكة لم يحصّل به الباي من ظاهر الربح العاجل الا نزرا يسيرا لا عبرة له ، وغايته أنه أدخل ضررا عظيما على المملكة بضياع مقدار وافر من رؤوس أموالهم ، ذهب من حيث لا يشعرون . وصار بعض التجار من الافرنج يضربونها خارج المملكة ويأتون بها ، لارتفاع حرمة السكّة عنها وصيرورتها بضاعة متجر .

وسمعت من شيخنا عالم العصر وبركة المصر أبي اسحاق ابراهيم الرياحي ، أن أوّل ضرر عامٍّ وقع في الاسلام غلث السكّة ، وقال : « ان السبب في نقش اسم السلطان عليها ، أو صورته عند غير الاسلام ، قائم مقام الشهادة من السلطان بخلوصها ، فلا يحتاج قابضها الى تعيير نقدها » . وانظر مدن العمران تجد سكّتها في غاية الخلوص ، بحسب الحال . وقد تقدم الكلام على ذلك في العقد الاول من المقدمة .

وفي السنة 1240 (1824/25 م.) ، قدم أحمد قبطان الموراللي ، وقد وجّهه سفيرا للدولة العثمانية ، فأتى بحلّة سلطانية وفرمان الولاية وخنجر مرصّع ، فاحتفل الباي لذلك ، وجمع موكبا حافلا بأهل العلم والداي وأعيان العسكر والبلاد بصحن البرج ، وقرأ باش خوجة(1) الفرمان على رؤوس الاشهاد على العادة ، ولبس الحلّة فوق فروته . وذلك يوم الخميس خامس (2) شعبان 1240 (24 ما س 1825 م.) ، وأعلنت المدافع بالسرور ثلاثة أيام .

وفي دولة هذا الباي قدم للحاضرة أبو عبد الله محمد ابن الولي العارف بالله صاحب الطريقة المسلوكة أبي العباس سيدي أحمد التجّاني رضي الله عنه ، مجتازا الى الحج ، ونزل بدار العلامة أبي اسحاق ابراهيم الرياحي ، لمكان تقدمه في الطريقة . وعظّم الباي مقدمه ، الا أنه لم يجتمع به . وسافر للحج ، وبعد أداء الفريضة رجع لتونس . وبلغ صاحب الجزائر خبرُه ، وكان يتربص به وبأخيه ، فكاتب الباي يطلب اعتقاله

---

(1) « باش خوجة » ساقطة من غ ، مثبتة في ع و ق .

(2) هو 4 حسب التقويم .

بتونس أو إرساله الى الجزائر ، فأنف لذلك (1) ، وبعث بهذا الخبر الى ابن الشيخ التجاني ، مع خاصته عبد الوهاب باش حانبه ، وقال له : « لا بأس عليك ، امكث بتونس ما شئت ، ومهما أردت السفر فعليَّ أن نبلّغك الى مأمنك محروسا معظما مكرما » ، فاختار تعجيل السفر ، وبعث معه عقدا من الخيل ، وكاتب أعيان الهمامّة وقفصة والجريد وغيرهم ممن يمرُّ بهم ، باجلاله واكرامه ، الى أن وصل لزاويته بعين ماضي بتماسين ، وذلك في أواسط السنة 1240 (أوائل سنة 1825 م.) .

وفي هذه السنة (1240) وقع احتفال بباريس لتتويج سلطانهم من آل البُربُون ، واستدعى حضور أعيان من أحبابه الملوك ، ومنهم الباي ، فاختار لهذه السفارة أبا الثناء محمود ابن الوزير أبي عبد الله محمد خوجة كاهية حلق الوادي ، فسافر في رجب 1240 (فيفري — مارس 1825 م.) ، ووقع له إكرام ، وشاهد موكب التاج ، ونزّه بصره في عجائب فرانسة ، ورجع مكرما في فرقاطة فرنسيس أواخر ذي الحجة (أواسط أوت 1825م)

وفي جمادى الاولى من سنة احدى وأربعين ومائتين وألف 1241 (ديسمبر 1825 — جانفي 1826 م.) ، وقع في المملكة نزول ثلج بعد العهد بمثله ، ودام أياما ، ونشأ منه خصب في الحبوب والزيتون ، يؤرخ به عامة المملكة ، يقولون : عام الثلجة (2) .

وفي السادس والعشرين من شعبان السنة 1241 (الاربعاء 5 افريل 1826 م.) توفي العلامة الفاضل المفتي أبو العباس حميدة بن الخوجة ، وقام مقامه في خطة الفتوى الفقيه الماجد أبو عبد الله حسين ابن الشيخ المفتي الحاج حسين البارودي .

وفي الثامن والعشرين من رمضان 1241 (السبت 6 ماي 1826 م.) توفيت خالة الباي ، زوج الوزير يوسف صاحب الطابع الذي عاقه عن البناء بها محتوم الاجل ، ودفنت بتربة أبيها بموكب مشهود . وحزنت البلاد أياما لموتها ، وارتفع الحزن يوم الخميس الثامن عشر (3) من شوال (25 ماي) ، لما توجه الباي في أبهة وفخامة لحلق الوادي في البحيرة ،

---

(1) فى ع و ق : فابت همته هذا الصغار .

(2) بهامش ق توجد الزيادة الآتية بخط مغاير : « وجد بدفتر الدولة احسان لخدمة السطوح يوم الثلج فى جمادى الثانية سنة 1241 ريالات 18 ، واحسان لزوج حوانب عساسة ليلة الثلج ريالات 20 » .

(3) هو 17 حسب التقويم .

والنوبة تدق خلفه [والرؤساء يجذبون زورقه بالمقاذيف] (1) ، وَجَذَبَ كرويطةً من الترسخانة الى الجابية ، وكان يوما مشهودا .

وفي أيامه رفعت شكاية من أهل المجلس الشرعي بقاضي الحضرة أبي النجاة سالم المحجوب بعدم رجوعه الى أقوال أهل العلم المفتين ، وتصميمه على ما يظهر له وان خالف النص . ومن لفظ مكتوب الشكاية : « هذا وان قاضيك الذي قدّمته لفصل الخصام ، قد غيّر الاحكام ، تارة عمدا وأخرى لاتّباع الاوهام ، وحسبنا إنهاء ذلك لحضرتكم والسلام » . فعزله رابع ذي القعدة من السنة 1241 (السبت 10 جوان 1826 م.) ، وأولى عوضه العالم الفاضل الشيخ الشاذلي ابن الامام الشيخ الحاج عمر بن المؤدب .

وجهّز هذا الباي أسطولا لاعانة الدولة العلية العثمانية على حرب القريق ، أميره الاجل كشلك محمد ، وكان من أعيان دولته . وأقلع ثالث محرّم فاتح سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف 1242 ، (الاثنين 7 أوت 1826 م.) ، وركب الباي بفخامة الملك لشهود اقلاعه ومشايعته . واتفق أن هرب من مماليكه اثنان ومعهما نصراني في ذلك اليوم، بأسلحة وأمتعة لها بال . وبعث الباي في أثرهم ، فدافع احدهم عن نفسه وهو النصراني فقُطع رأسه وأتِيَ به وبالباقين ، فأمر بقطع رؤوسهما أمام باردو من الغد . وتطيّر الناس بسبب السفك لهذه الدماء المحرّمة اثر سفر الاسطول ، لان الله المرجوّ منه النصر ، أمر بقطع يد السارق لا رأسه . فاتّفق أنه حُرِقَ بتمامه مع مراكب الدولة في واقعة أورين (2) المشهورة ، ولم ينج الا أمير الاسطول ومن دافع عنه الاجل ، وقليل ما هم .

ولهذا الباي شغف بالبحر لو ساعده البخت فيه .

وفي يوم الاحد الثالث عشر من ربيع الانور من السنة 1242 (15 اكتوبر 1826م.) وقع العقد لابناء الباي ، وجمع لذلك مشهدا حضره المجلس الشرعي والوزراء والاعيان ، وعقد فيه لابنه أبي عبد الله محَمد باي على بنت شيخ الاسلام أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد بيرم ، ولابنه أبي عبد الله محمد الصادق باي ، ملك هذا العصر ، على ابنة خاله أبي العباس أحمد المنستيري ، ولابنه أبي محمد حمّودة باي على جارية تبنّاها

---

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(2) كذا في خ ، وفي ع : آرين ، وفي ق ، كانت (ارين) فشطبت وكتب فوقها : « نافارين » ، وهو الصواب.

أبوه أبو الثناء محمود باي ، وعلى بنته لوزيره شاكير صاحب الطابع . وخطيب العقد أبو الفداء الشيخ اسماعيل التميمي ، والقاضي الشيخ الشاذلي بن المؤدب ، وكان ذلك مخصوصا بالفُقهاء المالكية . ووقع لذلك احتفال ، وتوسّع في الانفال ، وعيون الدهر نائمة ، والآمال في مراتع السعادة سائمة .

وفي عشية يوم الجمعة ، الخامس والعشرين (1) من شعبان سنة 1242 (23 مارس 1827 م.) ، توفيت زوجة الباي وأم بنيه وطليعة يمنه ، حفيدة عثمان داي صاحب القانون المتقدم ذكره في العقد الثاني من المقدمة ، بمرض أصابها عقب الولادة ، ودفنت من الغد بموكب عظيم في التربة (2) . وحزن الباي لفقدها ، ورؤية صغار ولدها من بعدها ، وزعزع المصاب طود ثباته ، ورآه من فجائع الدهر ونكباته . ولبس هو ورجال دولته ثياب الحزن عاما . ويحقّ لها ذلك ، فقد كانت من الكرم وعلوّ الهمّة وجلب القلوب لمحبة زوجها بالمكانة المكينة ، ترى نفسها كعامة نساء المدينة ، توقر الكبير ، وترحم الصغير ، وتجهز الايتام ، وتعين على النوائب وتعرف للناس أقدارهم . اذا وقعت وليمة عند أحد من أعيان الحاضرة ولم يبعث اليها في استعارة مصوغ ونحوه مما يلزم عادة في الولائم ، تبعث اليه بعد تمام الوليمة احدى خَدَمَتِها مهنِّئة ، وتقول له : « عادة بلدنا أنّ صاحب الوليمة يستعين بأقاربه في لوازمها ، ويقال في المثل : « صاحب التاج يحتاج » ، وساءني حيث لم أحرُك في وليمتك بشيء » ، الى غير ذلك من الكمال المنظوم في مثل هذا الاسلوب ، المالك لاحرار القلوب . ترى الفضل لمن زارها ، وأمّ دارها . قابلها الله بجزيل إحسانه ورحمته .

وفي أوائل شوال من هذه السنة ، 1242 (أواخر افريل 1827 م.) ، نظمني الباي ، على كره من أبي ، في ديوان الانشاء بمحكمته ، واختصني بكتابة سرّه ، مضافا للوزير شاكير صاحب الطابع على صغر سن وضعف في البضاعة :

ولكن البلاد اذا اقشعرّت وصوّح نبتها ، رعي الهشيم

وفي السابع عشر من شوال السنة 1242 (الاثنين 14 ماي 1827 م.) ، توفي العالم الولي السالك العارف بالله الشريف الحسني سيدي البشير ، وغسله القاضي الشيخ الشاذلي

(1) هو 24 حسب التقويم .

(2) كذا في خ ، وفي ق و ع : في تربة عم ابيه .

وصلى عليه ، ودفن بزاويته التي بناها له هذا الباي ، ذات المسجد والبيوت (1) للطلبة ، المعروفة الآن باسمه . وحضر جنازته الباي وبنوه ورجال الدولة ، وتبركوا بحمل جسده الشريف . ولهذا الباي وأبيه وآله في هذا الولي محبّة واعتقاد . وكان يقول : « ان والدي حجرني (2) مع أخي لسيدي البشير » . وكاد أن لا يتخلف عن جنازته أحد . وأخباره رضي الله عنه في ألسن الحاضرة ، تحسن بها المحاضرة . وسيأتي لترجمته بسط ذكر .

وفي غرة ربيع الاول من سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف 1243 (السبت 22 سبتمبر 1827 م) ، أبطل الباي حزر الزروع ، وتقدير زكاة حبوبها بالحدس ، وجعل بالبلدان وكلاء يستخلصون الجزء العاشر من كل فلاّح بمكيال أُدخل في ظرفه ما اعتيد من توفية الكيل ، ويسمح المكيال بعد امتلائه . ونادى مناديه بذلك في [أسواق] (2) الحاضرة ومجامعها ثلاثة أيام ، وهو شاوش القبجية بدريبة (4) الداي ، ولفظ المنادى به : « يا فلاّحة ، أمر سيدنا أن لا تؤدوا من زرعكم الا العشر » اهـ . وأصدر مناشيره بذلك في بلدان المملكة من انشاء العبد الفقير ، ونصّها : « أما بعد فان الله استرعانا جماعتكم، ووهب لنا طاعتكم ، أفنرضى اضاعتكم ؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته » . والراعي اذا لم يقصد بسائمته المراعي الطيّبة ، وينتجعْ مساقط الغَمامِ الصَّيِّبة ، ويصلحْ خللها ، ويداوِ بالعدل عللها ، قلَّ عددها ، وعدمت (5) غلّتها وولدها . وقد نظرنا في زكاتكم فوجدناها على غير وجهها الشرعي ، حسبما أفتانا بذلك من تعيّن للفتوى من الراسخين في العلم ، وهما الشيخ العلم ، وركن العلم المستلّم ، محبّنا الشيخ سي اسماعيل التميمي ، والشيخ العلاّمة المحقق الفاضل محبنا سي محمد بيرم ، وسطر كل واحد منهما فتواه برسالة مفصحة بأن الله لم يشرع خارصا (6) ولا حازرا للحبوب ، وانه بدعة ومنكر يجب على من قام بأمور المسلمين تغييره فورا ، مع ما ينضّم الى ذلك من جهل القيّاسة (7) واتّباعهم لاغراضهم ،

---

(1) يستعمل لفظ البيت فى تونس بمعنى الغرفة والحجرة .

(2) حجره لـ.... : جعله فى كنفه وحمايته وحفظه .

(3) « اسواق » ساقطة من خ ، مثبتة فى ع و ق .

(4) الدريبة : المحكمة .

(5) علم : فسد ، تلف ، هلك (عامية تونسية) وانظر دوزى .

(6) الحرص : التقدير بظن ، يقال : كم خرص ارضك وكم خرص نخلك ؟ فاعله خارص والجمع خراص — لسان العرب —

(7) قياسة مفردة قياس ، اى قياس الاراضى .

فربّما كلّفوا الفقير فوق طوقه ، ونقّصوا للغني من حقّه ، وحابَوْا أرباب المناصب والهيآت ، ونغّصوا على الضعفاء الحياة . فبعث الله منّا نفسا بحكم الشرع سامحة ، ولامتثال أوامره جانحة ، وحكمنا بابطال هؤلاء القيّاسة ، حكما أوثق الحقُّ أساسه ، وزيّن فصوله وأجناسه . ولنقدّم لاخذ العشر من تُرضى ديانته ، وتُعلم أمانته ، يأخذ الجزء العاشر مما يتحصّل لدى كلّ واحد من فلاحته ، تطهيرا وزكاة لساحته ، بكيل عدل لا حيف فيه ، ولا مظلمة تعتريه ، بالوَيْبَةِ التي أمرنا بانشائها . ولا يُقبَل المكيلُ بها الا مرطا (1) ، ولا يأخذ من الفلاّحة شيئا ولو قلّ ، وأجره من عندنا ، وأمرنا (2) له بمقدار يأخذه من العامل .

والزكاة من قواعد الاسلام ، لا يمتنع المؤمن من أدائها ، لانها وجبت عليه في ماله ، بوصف الايمان لا بغيره ، فعليه أن يوفي حقّ الله شكرا على خيره » اهـ .

وبذلك ألزم سائر سكان المملكة من قاص ودان أداء العشر من غير استثناء . ورام رحمه الله ، اخراجه من حيّز المَغرم الى حيّز الزكاة الشرعية ، لانّ المغرم لا تدين له جفاة الاعراب ، لا سيما سكان الاطراف ، ويحاشى منه أهل الفضل كالعلماء والصالحين .

وقبل إتمام هذا الترتيب في غالب المملكة ، رجع المكيال الاول على عادته السابقة في ذي القعدة من سنة أربع وأربعين 1244 (ماي 1829 م.) ، بحيث إن غالب عروش المملكة لم يصل اليها هذا المنشور . ولا أقول كما يقولون ان سبب ذلك انعدام الامانة ، فالخير لا ينقطع من هذه الامة الى قيام الساعة ، وانما أقول لعدم تقديم الامناء ، لانهم تقدموا باختيار العمال ، والعامل لا يختار الاّ من يعين على سلب الاموال . فجعلوا ذلك المكيال أصلا وزادوا عليه تطفيفهم ، وويل للمطفّفين . ورجع جور العشر الى معتاده ، وأخذ التطفيف في ازدياده ، وما ربك بغافل عمّا يعمل الظالمون من عباده . وهذا من أعظم أسباب نقص العمران ، في كل مكان وزمان .

وفي ربيع الثاني من السنة 1243 (اكتوبر — نوفمبر 1827 م.) ، توفي الوزير الشيخ أبو عبد الله محمد الاصرم باش كاتب ، وتقدّم للرئاسة كاهيته وأخوه أبو الثناء

---

(1) اى مملوءا الى اصباره (Mesure rase)

(2) بهامش ق : « فى المحرم سنة 1244 انشا هذا الباى دار السكة وصرف عليها ريالات 12613 » .

محمود الاصرم ، واغتبط الباي بوزارته ، وقرّبه نجيّا وفتح الاذن ظاهرا (1) لتدبيره واشارته . وتقدم كـاهية له ابن أخيه الاديب الكـاتب المشارك أبو عبد الله محمد بن محمد الاصرم ، متخطيا أعناق من تقدّمه من الكـتبة كـالشيـخ العالم الفاضل أبـي عبد الله محمد بـن سليمان المنّاعـي .

وفي غرة شوال من السنة 1243 (الاربعاء 16 افريل 1828 م.) ، توفي العالم الفقيـه الحـافظ ، صدر المالـكـية أبو عبد الله محمـد ابن صدر المالـكـيـة أبـي الفضـل قـاسم المحجوب ، وتولى عوضه رئاسة الفتوى بالمذهب المالـكـي العالم المحقق المجتهد أبو الفداء اسماعيل التميمـي . وانتقل الشيـخ العالم الشاذلي بن المؤدب من خطة القضاء الى خطـة الفتوى ، وأنتقل شيخنا العالم المحقق أبو عبد الله محمد البحري بن عبد الستار من خطـة القضاء بالمحلّة الى القضاء بالحاضرة ، وتولى عوضه قاضيا بالمحلة الفقيه الاديب أبو العباس أحمد زرّوق الكـافي .

وحضر الباي جنازة الشيـخ المحجوب ، وحمل نعشه ، وأعتق عنه أربـع رقاب .

وفي صفر من سنـة أربـع وأربعيـن 1244 (أوت — سبتمبر 1828 م.) ، امتحـن الوجيه الحازم الخليق للرئاسـة أبو عبـد الله محمـد العروسـي الاندلسـي ، أميـن التجّار والشواشية وسجن ، ولم يسرّح إلا بعد التزامه بأداء مال على يد الوزير شاكير صاحب الطابع . وعزل وبعزله أخذت هذه الخطة في القهقرى . وتولى عوضه في مجلس المتجر الوجيه أبو عبد الله محمد التومـي ، وفي أمـانة الشوّاشية الوجيه الحـاج حمدان سيضّة ، وفي مشيخة الاندلس الوجيه أبو عبد الله محمد شلبـي ، وكـان لمشيخة لاندلس في هذه الحاضرة شأن .

وفي رجب من السنة 1244 (جانفـي — فيفري 1829 م.) ، وقعت سرقة من بيت خزنه دار ، والباي بحمام الانف ، وامتحن بسببها جمع من الناس بالضرب المؤلم ، ولم يظهر منها شيء . وكـانت في عدد قليل ، نحو العشرة آلاف ، وعظّمها التجاسر على المحل .

وفي شوال من السنة 1244 (افريل — ماي 1829 م.) ، وقع إمساك في الغيث جزعت بسببه الناس وطاشت أفكـارهم ، فأمر الباي علماء العصر بقراءة صحيـح البخـاري في

(1) كـذا في خ ، وفي ع وق : « وفتح اذنه لسماع تدبيره » .

الجامع الاعظم ، جامع الزيتونة ، وفرقوا أسفاره في جماعتهم ، وختموه في يومهم ، وذلك يوم الاحد آخر شوّال (28 شوال — 3 ماي 1829 م.) . ورحم الله عباده ببلل من قطر .

وفي هذه السنة الشهباء ، شمّر الباي عن ساعده واستجلب الميرة في البحر من خالص ماله ، وباعها لاهل المملكة بأثمان لا تجحف (1) ، ولم يربح فيها سوى ما أمّله من كرم الله . وكان ذلك على يد خديمه المقرّب جوزاب رافو ، سرًّا بينهما . وذلك أنه دفع له تسعين ألف محبوب ، سكة مصر ، وطلب منه أن يرجعها له من تلك السكة ، ولا يبتغي في الحبوب ربحا . فأراد جوزاب أن يكتب خطّه في ذلك ، فانتهره الباي ولم يقبل ذلك منه . فعند ذلك طلب رافو مكتوبا في يده في المقدار وشرط عدم الفائدة ، [فأمرني بكتابته] (2) ، واجتهد في الاتيان بالقمح على يد التاجر الصادق الوجيه ، صهره جومين . ورجع له الدراهم بعد أن فرّج الله عن عباده ، وكانت من أعزّ حسناته.

وفي صفر من سنة خمس وأربعين 1245 (أوت 1829م) ، توفي الشيخ المجذوب المعروف بالشبعان ، وبنى له الوزير أبو عبد الله حسين خوجة زاوية بجبل المنار مطلة على البحر .

وفي جمادى الاولى من السنة 1245 (اكتوبر — نوفمبر 1829 م.) ، توفي الشيخ الفقيه أبو حفص الحاج عمر بن المؤدب ، الامام الثاني بجامع الزيتونة ، وتقدم عوضه للامامة الشيخ الشريف الفقيه الذكي أبو الثناء محمود محسن ، وتقدم اماما ثالثا الشيخ المفتي الشاذلي بن المؤدب .

وفي ثامن شوال السنة 1245 (الجمعة 2 افريل 1830 م.) ، توفي الشيخ الحاج محمد الصفّار ، امام التراويح وشيخ القرّاء بالجامع الاعظم ، وتولى عوضه الشيخ القارىء المعلم ، أبو محمد حسن بن عمر .

[حرب الفرنسيس للجزائر]

وفي ذي القعدة من السنة 1245 (افريل — ماي 1830 م.) ، قدم لحلق الوادي طاهر باشا ، لما وقع بين الفرنسيس وصاحب الجزائر حسين باشا من أسباب حربها وأخذها .

---

(1) كذا في خ ، وفي ع وق : « باقل من أثمانها عند التجار » .

(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

ولابـأس بايضاح النازلـة . وقد سمعت مضمونها (1) ممن بـاشر الترجمة في النازلـة بين الداي والقنصل وغير واحد من أهلها .

ومحصّل (2) ذلك أن أحد أعيـان اليهود من أهل الجـزائر اسمه بقري بوجنـاح ، له خلطة مـع تجار من أهل فرانسة في قمح ، وبقيت له عند التجار أموال من جرّاء ذلك ، وهم يـدّعون عليه بـأموال وخسائر وغير ذلك . وتـكـلم البـاشا في حـق رعيتـه ، وآل الامر الى الصلـح بين الفريقين برضاهمـا على عـدد من المـال تدفعـه التجـار الفرنسيس لبقري . ثمّ ان تجـّارا آخرين من الفرنسيس استظهروا بدين على بقري ، عرقلوا بمقتضاه دراهم الصلح حتى يقـع الخلاص . وقد رام البـاشا أن يستولي عـلى تلك الـدراهم ، لانها مال رجل غني يهودي من رعيته ، وقد كـانت العادة القهرية يومئذ تسوغ هذا وأعظم منه . ولما وقع تعَرْقيلُها (3) آسفه ذلك ، ورآه مالا ضاع من يده ، فـكـلّم القنصـل ، طالبا رفـع التعَرْقيل ، وان هؤلاء الغرماء يتبعون ذمة بقري ، فأجابه القنصل بأن مال الصلح من حقوق بقري لا محالـة ، وللغرمـاء وجه في إيقافـه ، لاحتمال إفـلاسه ، الا اذا وجدوا ضامنا مليّا يرضون بذمّته ، فأعرض عن القنصل ، وكـاتب الدولة الفرنساوية في ذلك ، فبعثت الدولة نسخة ذلك المـكـتوب الى القنصل وأمرته بالجواب عنه . واستبطأ الباشا الجواب ، فأتاه القنصل في غرض من الاغراض ، فـكـلّمه في جواب مـكـتوبه ، فقال له القنصل : « ان نسخة مـكـتوبك عندي ، وأنا المأمور بالجواب ، وتربّصت أنتظر وقتا مناسبا » ، فقال له : « لِمَ لَمْ تجبني الدولة ؟ » ، فاعتذر القنصل بـكـلام فهم منه الباشا احتقارا وعدم اكـتراث ، وكـانت بيده مِنَشّة يطرد بها الذباب ، فضربه بها على وجهه ، وقام وشتمه وطرده ، وكـان هذا القنصل على ما قيل ، يتكـلم باللغة التركـية ، فخرج ، وبقـي الباشا على عُتُوِّه ، آسفا على ما فاته من مال بقري ، معجبا بنفسه ، وما درى المسكـين أنه في جهالة بالوقت ، مع أن عصبيته انحلّت ، وأيّامه أدبرت وولّت ، بسكـناه في القصبـة وشحنهـا بما يـلزم من العـدّة للمدافعـة ، وانفصالـه من التحـام الجنـد ، وتـوغّر صدورهـم .

---

(1) « مضمونهـا » ساقطة من خ ، مثبتة في ع و ق .

(2) كـذا في ع و ق ، وفي خ : ومضمون .

(3) التعرقيل : العرقلة (عـامية تـونسية بمعنى الايقـاف والتـاخير) .

وكـاتب القنصل دولته بالخبر ، فأنفت لمقامها ، لـكـنّها مع ذلك لم تترك السياسة (1) التي كـادت الافرنـج أن تنفـرد بها . فبعثت رجلا من الاعيـان في مركـب حـربـي ، يستفهم من الباشا حال النازلة ، فاعترف بفَعْلته . فقال له الرسول : « ان الغلط من لوازم الانسان ، والغضب من لوازم الطبيعة البشرية ، ولعل القنصل أساء الادب بما حرّك غضبك . وحسم المادّة ان شئته سهل ، وهو أن ترفع صنجق الفرنسيس ، وتطلق عليه مائة مدفع ومدفعا ، وتبعث أعيانا من عندك الى دولة فرانسا ، يبلغون على لسانك أنك لم تقصد بضرب القنصل إهانته ولا الاستخفاف بدولته ، ويطلبون التجاوز عن هذا الغلط » ، فقال له : « ننظـر في ذلك » ، فخرج الرسول وحمل القنصلَ من البلاد الى مركبه .

وجمع الباشا اعيانه ورجاله وشاورهم ، فقالوا له بلسان واحد : « هذا لطف من الله ، والواجب أن نفعل ذلك » ، فاستهزأ بهم وسفّه أحلامهم ووصفهم بالجبن ، فقالوا له : « لا قدرة لنا الآن على الحرب ، وأحوال عسكرنا لا تخفاك ، فانك بسكنى القصبة أفسدت قلوبهم ، وصيّـرت زوالـك مرغوبـهم ، ونحن بطانتك النصحاء » ، فلم يلتفت لرأيهم ، لامر قدّره الله ، وقال لهم : « ان الصبنيول أتى الجزائر ونزل أرضها وخرج منها مهزوما »، فقالوا له : « ليس حال الصبنيول في ذلك الوقت كـحال الفرنسيس الآن ، وليس حـال الجزائر في ذلك الوقت كـحالها الآن ، وان عزمت على الحرب ولا بدّ ، فحصّن البـلاد واجعل العدّة في الاماكـن المخوف منها ، وتألّف العسكـر وأهل المملـكـة » ، فانتهرهم وعيّرهم بالجبن ، فخرجوا متوقعين قضاء الله .

وبعث الى رسول الفرنسيس يأمره بالاقلاع ، وأن لا جواب له . فتأخّر ينتظر طيب الهواء ، فأطلق عليه مدفعا بالـكـور ، اشارة الى أنه ان لم يقلع يتوالى عليه الـكـور من البرج . فسافر بالخبر للدولة ، فاستعدت لقتال الجزائر . لـكـنها لم تترك السياسة أيضا ، على مقتضى الشروط العثمانية . فـكـاتبت الدولة العثمانية بذلك ، وبأنها ان لم تحصـّل على جزاء ، تطلب حقها بنفسها ، وبذلك لا يـكـون الفرنسيس متعديا على مقام الدولة ولا رافضا لشروطها . وأخبرت الدولَ بأنها أحضرت أسطولا يحصر مرسى الجزائر ، وأعلمت بذلك أبا عبد الله الباشا حسين باي صاحب تونس ، وفي إعلامها [حذرته وخوفته وقالت

(1) كـذا فى غ ، وفى ع و ق : « سياسة التـأنى » .

له] (1) : « ان أردت الامان على بلادك فكن في هذه النازلة حبيبا للفريقين ، وان أعنت الجزائر من البرّ تَكُنْ حربا لنا مثلها » .

وخرج الاسطول لحصرها ، وفي خلال ذلك أتى لتونس طاهر باشا في جفن (2) حربي عثماني ، ورام النزول الى البرّ ليتوجه الى الجزائر لخلع الباشا ، وبزواله تزول النازلة في رأيه ، فبالغ الباي في إكرامه وتعظيم مقدمه ، واعتذر له بمانع الكرنتينة ، فبقي بجفنه .

وكان هذا الباشا خوجة بالجزائر ومن أعيان رجالها ، يتكلم بالعربية ذا رأي وحزم وشجاعة ، ثم لحق بخدمة الدولة العلية العثمانية وترقّى في مناصبها الى أن صار معدودا لان يكون قبطان باشا (3) في ذلك الوقت .

ثم ان الباي جمع رجال دولته واستشارهم في نزول هذا الباشا للبر ليتوجه الى الجزائر ، وهي محصورة بمقدمة جيش الفرنسيس ، وبقية الجيش في أثره ، فأجمعت كلمتهم على أنه لا ينزل الى البر ، واختلفوا في سبب ذلك . فقال الوزير شاكير صاحب الطابع ، وهو زعيم الدولة يومئذ : « ان هذا الرجل في منصب باشا يأنف من تقبيل يد سيدنا عند ملاقاته ، ولا يمكن أن سيدنا يقوم له ويتقبله قبول الاكفاء » ، اعتبارا للعادات في ذلك الوقت ، وهو عذر أوهى من بيت العنكبوت . وقال الوزير محمد كاهية : « ان هذا الرجل يريد السفر في البر ، ولا يمكن ارساله في مهامه القفار بدون حامية على قدر مقامه ، وأقلها محلة صغيرة ، وبذلك ربما يظهر للفرنسيس أنها إعانة بتحيّل » . وقال الوزير سليمان كاهية ، العالم بأخلاق الاعراب : « نخشى أن عربان البلاد اذا سمعت بباشا من برّ التّرك ، يقع فيهم خبال يكون سببا في الهرج والنهب ، لا سيما والجهة الغربية مضطربة » . ولعمري إنه أصاب المرمى ، لان آذان الرعايا للملوك الاطلاق سمّاعة ، لما عسى أن يكون سببا لفتنة وعصيان . أما القبطان حسونة المورالي فانّه قال : « هذه الاسباب معقولة ، والمناسب الاذن له في النزول الى البر ، واكرامه والاحتفال لضيافته ، والاعتذار له بما ظهر لكم من الاسباب ، ولا ينقص من مقام سيدنا ان قام وتعرّض للقائه ، اكراما لشيبته ، وهو ضيف وعن قريب سيكون قبطان باشا ، واصطناع الرجال

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(2) جفن ج جفون وأجفان : سفينة كبيرة (دوزى) .

(3) قبطان باشا : القائد الاعلى للاسطول وحاكم الايالة .

مما لا غنى للملوك عنه » ، فعنّفه الوزير شاكير وازدرى برأيه . وبعث له الباي من اعتذر له ، وبيّن له الاسباب المقررة ، وأجزل في مهاداته واكرامه . فسافر في البحر الى الجزائر ، وتعذر عليه اتمام ما أراد ، ولا رادّ لامر من له في خلقه المراد . ولا زالت في نفسه ، حاقدا بها على الباي ، يرددها لكل من يأتي من تونس ، سمعتها منه مشافهة باسلامبول وهو يومئذ قبطان باشا ، قال لي : « ما يكون جوابكم لله عن تعطيلي الذي عطلتم به مصلحة جمهور من المسلمين ؟ لكن المقدّر كائن » ، فأجبته بما لم يقنعه .

ثم ان الفرنسيس أتى الجزائر بجنود لا قِبَل لهم بها ، ونزل من مرسى سيدي فرج [بلا تعب] (1) ، وشقوفه تحمي بمدافعها النازلين ، حتى تمّ نزولهم وحصّنوا مضربهم . هذا ، والباشا لم يعظم عنده نزولهم للبرّ ، وسوّلت له الاطماع أخذهمْ بلا مشقة ، كما سولت لغيره مع الصان لويز المتقدم ذكره في العقد الثاني من هذا الكتاب (2) ، واغترّ بحصون الجزائر ، ولله درُّ القائل :

اذا صدق الحسام ومنتَضِيه ... فكلُّ قرارة حصن حصين

وما ليث العرين بذي امتناع ... اذا لم يحمه الاَّ العرين

وما درى المسكين أنه في جمع قِلّة ، وعُصبة منحلّة ، وطاعة مختلّة . لان أهل الجزائر وأعرابها ، وهم السواد الاعظم ، سئموا سطوة جند الترك . وبلغ السّيل الرُّبى (3) ، وزهّدهم ذلك في الوطن ، وضاق منهم العطن . والمظالم الفظيعة ، ربما تفضي الى مخالفة الشريعة . وجند الترك لما انحجر الباشا في القصبة وحصنها ، سقط ما بأيديهم من تداول ملكها لمن غلب ، فكان همّهم بزوال الباشا أشدّ منه بالمدافعة عن الدار . وبذلك سهل على الفرنسيس التقدُّم من مَنَعَة الى أخرى ، وكل مَنَعَة ينزلها يُحكم حصنها . وناوشه بعض المسلمين القتال ، ملقين بأنفسهم ، الى أن نزل بربوة مطلّة على البلد وجعل بها المدافع ، فأيقن أهل البلاد بالاخذ ، فبعث لهم أمير الجيش الفرنساوي ، وهو الجنرال مرمون (4) ، بالانذار والاعذار ، ومحصّله : « ان ألقيتم القياد وسلّمتم البلاد ، فلكم

---

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

(2) انظر صفحة 162 ج 1 .

(3) كذا فى خ و ع و ق ، والمعروف الزبى (بالزاى) .

(4) كذا فى خ و ع و ق ، والمراد : (Bourmont)

الامان على أنفسكم وأموالكم ، اذ لا حاجة لنا في سفك الدماء ، وفيها الصبيان والنساء ، ولا في هدم الابنية . وان كانت الاخرى ، فقد ألقيتم بأنفسكم وعرّضتم بلادكم للهدم ، فاني لا أنفكُّ عن ضربها أو تصيرَ دكّا » . فهرعوا الى الباشا فوجدوه أسرعهم الى الاجابة، فكتب لهم أمير الجيش الامان ، ودخل البلاد ، ووفّى لهم وللباشا بأمانه ، كما هو الواجب عقلا وشرعا في كل ملة ، وذلك يوم الاثنين ثالث عشر (1) محرم فاتح شهور سنة ست وأربعين ومائتين وألف 1246 (5 جويلية 1830 م.) . وركب الباشا بأهله وماله في مركب فرنسيس الى فرانسا ، ثم الى الاسكندرية ومات بها ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

وهذه ثمرة اضاعة الحزم وتنافر القلوب بين الراعي والرعية . رأيت مضمون ذلك مقيّدا في كنّش (2) لبعض أعيان الجزائر ممن شهدوا الواقعة . وكان الباي قد وجّه مركبا حربيا الى مرسى الجزائر فيه القبطان حسونة المورالي ، وأمير آلاي سليم ، وأمره أن وجد تونسيا يريد الرجوع الى وطنه يحمله . فرجع الشقف يوم الخميس الرابع والعشرين من محرّم السنة (15 جويلية) ، وهو الذي حقّق الخبر في تونس .

فانظر أيها المعتبر الى حال هذا الباشا ، وقد أتى الجزائر جنديا من عامّة الجند ، كان أبوه ببلد شنا قلعة يحترف بغسل الاموات ، وترقّى بعصبيته الى منصب الباشا ، ولم يكن له في البلد منزل ورثه من أبيه ، ولا مقبرة لسلفه وذويه ، ولا ما يقتضي حبَّ الوطن وبنيه ، ولا سياسة يعرف بها نفسه والحال وما يقتضيه ، كيف لم يفكّر أولا في عاقبته ، ولما ناداه المدفع أسرع الى اجابته ، وكان الامان على ماله ، أوّل آماله . لانه دخل البلاد صفر اليدين ، وخرج منها فائزا بغنيمة النقدين . ولو كان من أبناء ترابها ما سهل عليه ذلك ، ولا استهان بطرق المهالك . ولذلك كانت بيوت الملوك في البلدان لها التأثير النافع في مصلحة الحوزة والاحتفاظ عليها غالبا . والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وبعد أخذ الجزائر أتت مراكب حربية من أسطول الفرنسيس ، وفيها رسول من عظمائهم ، لزيادة في الشروط المؤسسة بين فرانسا وتونس ، التي منها ان الدولة التونسية لا تتّجر ولا تختص بمتجر في شيء [بحيث تكون التجارة مباحة لكل أحد] (3) ، وان

---

(1) هو 14 حسب التقويم .

(2) كنش وكناش وكناشة (بتشديد النون فى الجميع) ج كنانيش : هو عند المغاربة مجموعة (دفتر) تدرج فيها قواعد وفوائد (دوزى) .

(3) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

التجار الفرنسيس يتعاملون (1) في البلاد معاملة أهلهـا التوانسة ، وابطـال القـرصان عـلى شقوف المتجر مطلقا ، وابطال ملك الاسرى ، وما اعتيد من الهدايا ، وغير ذلك كما هـي محرَّرة بين الباي وكـارلو العاشر سلطان فرانسا ، على يد المفوض له في ذلك ، الـكـوليير (2) ماتيو دي لسبس (3) ، القنصل العام والمكـلف بأمور سلطان فرانسا بتونس ، وذلك في السابـع والعشرين من صفر السنة 1246 (الثلاثاء 17 اوت 1830 م.) ، وهـي مكـتتبة باللغة العربية ، وما قبلها من الشروط باللغة التركية .

وبعد أن تمّم الباي هذا العقد ، سَجَّل وأَوْدع بـأنه مغصوب على إتمام ما أريد منه [بالقوة على حين غفلة] (4) ، وبعث بذلك المكـتوب أبا عبد الله محمد [بن حميدة] (5) ابن عيّاد الى الدولة الفرنساوية ، فوجد سلطانها خلعه قومه ، لانه رام بأخذ الجزائر أن يكون ملكـه مطلقا قهريّا (6) ، وغفل عن كونه في فرانسا ، ولسان الحال يقول له : « لا تطمع في كـل ما تسمع » . ولما لاحت بوارق ضميره ، نادت الناس باقتلاعه من سريره ، وأقاموا من توسّموا فيه حبَّ الحرِّيّة ، وهي بعمران الاوطـان حَرِيّة . وحادثة خلعه أوضح بيانها الفاضل الالمعي الشيـخ رفـاعة الطهطاوي في رحلتـه « تخليص الابريز » ، وقد أبـدع في تقريرها ، وبه تعلم ما طبـع عليه هذا الجنس من اباءة الضيم والحرية ، [وسبحان الذي خصّ من شاء بما شاء ، وهو اللطيف الخبير] (7) .

[ثم ان الدولة الثانية] أوقفت (8) بعض أمور بَانَ لها ضررها في العاجل ولا تضرُّ بعموم المتجر . ورجع ابن عيّاد مـكـرَّما في بريك قرصان (9) فرنسيس .

ومن أسباب هذه الشروط أنه لما ترتّب العشر على زيتون الساحل في سنـة خمس وثلاثين كما تقدم ، وازداد بذلك في دخل الدولة [وان اقتضى نقصانا من جهة أخرى] (10) ، اقتضى النظر أن جعل الباي وكـلاء لشراء الزيت بالساحل على وجه السَّلَم ، يدفعون ثمنه

---

(1) اى يعاملون .
(2) الكولونيل . (3) Mathieu de Lesseps
(4) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(5) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(6) فى ع و ق : « رام الاستبـداد على ديـوان مشـورته » .
(7) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(8) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت ف ع وق ، وفى خ : فاوقفت .
(9) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « بريك حربى » والبريك نوع من المراكب (Brick)
(10) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

قبل حصوله لمن يريد البيع برضاه . ثم صار الوكلاء يغصبون الناس على أخذ السَّلَم ، وتارة يكون أكثر مما يحصل من زيتونهم ، فتجد آخذ السّلم ، بعد أن يدفع ما تحصّل عنده ، يشتري الزيت بسعر الحاضر ، ويدفعه للوكيل ، تكملة لما عليه . كما ان الذي في ذمّته السّلم اذا فضل عنده شيء من الزيت يشتريه وكيل الدولة بالسعر الواقع في الحال ، والسعر الواقع مآله الى ما يظهر للوكيل ، اذ لا يشتري الزيت غيره الا للقوت ونحوه ، [شأن توالد المظالم] (1) ، والدولة هي التي تبيعه للتجار الذين يخرجونه من المملكة ، ولا تأخذ منهم شيئا على اخراجه ، بل تدمجه في الثمن ، لان الجميع للدولة . وأصاب أهلَ الساحل بذلك ضيق في مكاسبهم ، بل كادت أن تطير من أيديهم ويلتصقوا بالتراب ، بعد أن كان لهم شيء من الثروة . وحصل للتجار توقف في متاجرهم لانفراد البائع ، وهذا مخالف للحكمة العقلية الشرعية ، فما ربِحَ والٍ اتّجر في رعيته ، وكيمياء الملوك العمارة ، ولا تصلح بهم التجارة . وأثّل الوكلاء من ذلك الاموال الجزيلة بغير كلفة ولا مشقة ، وان امتحنوا في أخذها منهم .

وهذا الزيت كان يباع للتجار على يد أبي الثناء محمود الجلّولي ، ويكتب اسمه في أوامر الشراء ، ونشأت بذلك مضرة للدولة . وذلك لما أنه وجد الدخل من هذه الجهة ، تساهل في الصرف الامير والوزير ، وكثرت مذاهب الترف والحضارة ، على مقتضى حال ذلك الوقت . والتعمق في ذلك من غير نظر في الموازنة بين الدخل والخرج ، يقتضي ضيق الحال لا محالة ، اذ ليس للسرف حدٌّ يقف عنده . ولذلك صار الوزير يبيع الزيت بأبخس ثمن ، لانه هو الراغب في البيع ، والمشتري يظهر عدم الحاجة ، حتى اتفق أن باع الوزير للتجار أكثر مما يفي به زيتون الساحل ، كما اتفق أن الزيتون المباع زيته لم يثمر في ذلك العام . فطلب التجار زيتهم ، والاوامر التي بأيديهم حالّة ، لم يذكر أن الزيت فيها من الصابة ، كما ظهر للجلّولي ، لانهم امتنعوا من الشراء بهذا الشرط . وتوقفت الدولة ، [وطلب التجار زيتهم أو ثمنه باعتبار الحال ، وأساؤوا في التقاضي ، ولصاحب الحقّ مقال] (2) ، واشتد الحال ، وضاق ذرع الباي من ذلك ، ورجع بالملام على وزيره أبي عبد الله حسين خوجة ، وتكالبت عليه النقّاد ، وانطلقت على سيرته ألسن الحساد ، وهو في الحقيقة عبد مأمور مقاد مأسور ، لكن عادة ملوك الاطلاق تبيح هذه الامور .

---

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

فأجمع الرأي على تأخيره وتقديم الوزير شاكير صاحب الطابع لهذا الامر المهم ، فامتنع من القبول ، فأُلزم لذلك ، فاشترط أن ينفذ رأيه في دخل المال وخرجه ، وفي رجال الجباية ، والاقتصادَ في المصرف بقدر الامكان ، وغيرَ ذلك مما كان سبب حتفه . وقبل الباي شروطه والتزم بها ، وفوّض له ، وذلك سنة خمس وأربعين . فشمّر عن القدم والساعد ، وساعده البخت المساعد ، واحتسب على الباي حتى في نفقة داره . وطلب أكبر أولاده تبديل سرجه ليركب به يوم خروج الباي لحمّام الانف ، وكان هذا اليوم من أيام مشاهد الزينة ، فقال له : « يا سيدي ان سرجك هذا يكفي » ، ولما شاحّه ، قال له : « ان أباك مدين للتجار ، والزينة هي النظافة من وسخ الدين » . ولم يزل يبالغ في تنقيص المصاريف ، مقتصرا على الضروري الذي لا بدّ منه . وضرب على أيدي الناس في أموال الدولة بما أوغر صدورهم .

ولما رأى أبو النخبة مصطفى باي هذا الحال ، وهو يعلم أنه لا بدّ منه ، قصر يده على التصرف في الحال ، وقد كانت يده قبل ذلك قريبة من يد أخيه ، إيثارا لرضى شقيقه .

واستعان الوزير في ذلك بأعيان من رجال الدولة كأبي الثناء محمود الجلولي ، وأبي عبد الله محمد بن عيّاد ، وأبي الربيع سليمان بن الحاج . وبعث أبا محمد حسونة المورالي ، والمقرب جوزاب راف الى قنصل الدولة الفرنساوية ، لان أكثر هذا الزيت لتجار الفرنسيس . وكان القنصل يومئذ ماتيو دي لسّبس ، من عقلاء الرجال وأفراد السياسة ، شهد مع نبليون الاول حروبا ، حنّكته التجارب ، وله في فصل هذه النازلة أثر جميل صالح للجانبين ، فوقع الاتفاق على أن الوزير شاكير يشتري هذا الزيت من أربابه بثمن لا اجحاف فيه على البائع ولا كبير ضرر على المشتري . ووقع الاتفاق عليه ، ويدفع لهم ثلث المال حالاً والبقية على أجلين . وانبرم هذا الاتفاق ، وتنفس الخناق . وأقبل الوزير شاكير على جمع المال ، فأخذ من مال خاصّة الباي مبلغا ، وتبرّع أبو عبد الله محمد بن عيّاد بنحو المائتي ألف (1) ريال ، وتابعه أبو الثناء محمود الجلّولي وأبو الربيع سليمان بن الحاج . ويقال على لسان الحسدة ان كثيرا من هذا الزيت لمحمد بن عيّاد وابنه عبد الرحمان ، بأسماء تجّار ، والله أعلم .

---

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « نحو الثلاثمائة الف » .

وفي أثر ذلك توجه الوزير شاكير الى سوسة والمنستير والمهدية وصفاقس ، وجمع منها ومن عربان تلك الجهة أموالا بغير غصب ظاهر ، وفي البلاد يومئذ بقية ثروة ، وكنت ممن سافر معه في هذه الوجهة . وتم خلاص هذا المال في إبّانه على أحسن حال ، وكانت للوزير بهذه الخدمة يد تشكر ونصح يذكر ، لولا أنه شاب ذلك بمرارة غطّت الحسن ، وأنبتت الاحن . وكان مبلغ هذا المال الذي توقفت فيه الدولة التونسية [وبلدان الساحل] (1) نحو الخمسة ملايين ريالات تونس ، مفصّلة في زمام بخطٍّ أبي وبخطّي ، لا يزال موجودا .

وفي خلال المدة السابقة اقترض الوزير حسين خوجة أموالا من تجار يستحلّون الفائدة ، ورهن في ذلك نفائس ما عنده من المصوغ المرصّع ، رام أن يوزع ذلك المال في أرباب الزيت ، تسكينا لهم ، قبل كشف الغطاء ، وأمل من الوزير شاكير صاحب الطابع أن يفكّ ذلك الرهن بدفع المال ، فامتنع محتجّا بأن المال انما اقترضه حسين خوجة لخاصّة نفسه لا للدولة ، بدليل أنه لم يدفعه للغرماء . وبقي المصوغ بيد مرتهنه الى أن فني في فائدته .

ثم ان قوّاد الساحل من آل الجلّولي وابن عيّاد وغيرهم ، امتدت أيديهم في أموال الرعايا امتداد المالك في ملكه ، والوزير شاكير صاحب الطابع يغضي لهم عن ذلك ، وربما أعانهم نظرا لما دفعوه من المال اعانة للدولة في قضية الزيت ، ولانه شارطهم في ولاية الخطط بضعف ما كان ، لان إبطال دخل السّلم ومشترى الزيت أجحف بالجباية ، وامتداد أيدي العمال اضطرّ الرعايا من أهل الساحل الى بيع الزيت على وجه السلم ، وباعوا من ذلك مبلغا عظيما لتجار الفرنسيس وغيرهم ، وكتبوا رسوم ذلك على جموعهم ، بمعنى أن كل بلدة من بلدان الساحل قدمت جماعة من أعيانها وتحمّلوا بذلك على جميعهم ، والحاضر يدفع على الغائب ، والموسر يدفع على المعسر . وقبض القوّاد ثمن الزيت في دور القوّاد . ومن التجار من باع لافراد الناس الا أن عقدة البيع وقعت بدار القايد ، بحيث إن البائع يقبض الثمن أمام العدول ، حتى يشهدوا عليه بالمعاينة ، فاذا غاب عن عيان العدول ، تلقّته زبانية القايد فأخذوا منه ما قبضه . وعناية الوزير لم تزل تلحظهم .

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

وتوقّف أهل الساحل في دفع الزيت عند حلول أجله ، لان المبلغ كثير ، فرفع التجار شكايتهم الى الباي على يد قناصلهم ، وجنس الفرنسيس أكثرهم زيتا . فجاء قنصلهم ، الرجل المشهور بالعقل والسياسة ، ماتيو دي لسّبس ، واجتمع بالباي في بيته بالصّرايا ، وتكلّم معه كلاما نفيسا محصّله : « ان هذه المملكة دار أبيك وأجدادك ، ولبيتكم فيها أساس راسخ يزيد على المائة سنة ، ولاهلها محبة في آلكم ، وتراها أخذت القهقرى في طريق الاملاق والخراب ، ووبال ذلك عائد عليك لا محالة . فاذا افتقرت مملكتك ، جاء الفقر لك بالضرورة ، لان دخلك منهم ، فاذا عدموا عدم الدخل . والسبب في ذلك هو أنك فوّضت في أمر المال لوزيرك ، وهو فوّض للعمّال [الذين لا يرون الا مصلحة أنفسهم] (1) ، يأخذ منهم في مشارطة العمل ضعف ما كان ، ويخلّي بينهم وبين الرعايا ، بل يعينهم ولايسمع منهم شكاية [وجميع حركاته سريّة ، وهذا دليل أنها غير مستحسنة ، لان الحَسَن مطلوب اشهاره بالطبع ، بخلاف القبيح] (2) . وان هذا الزيت الذي اشتراه التجار لا يشك أحد في أن القوّاد أخذوا ثمنه ، فهم يطلبون الآن أموالهم من القوّاد لا محالة . ونقف الآن عند هذا الحدّ ، ووراء أموال الفرنسيس شروطهم وحماية دولتهم . وحملني على هذا الكلام ، الذي ربما يظهر أن بعضه فضول، محبتي لك ، ومحبتي لخير بلادك التي أعجبني حسنها ، وطاعة أهلها لاميرهم ، وامتزاجهم بالواردين عليهم . ونقول هذا الكلام لوزيرك بأشدّ من هذا » .

فشكره الباي على نصحه ، ووعده الجواب . وهو أول قنصل تكلم مع الباي بالنصح فيما ليس له أن يتكلم فيه . وعظم ذلك على الباي في نفسه ، وان لم يجد جوابا ، وللحق صولة لا تدفع .

وكان الوزير وقتئذ بسوسة ، فقال الباي للعبد الفقير : « قيّد ما سمعته من القنصل [وكان يتكلم بالعربية] (3) ، واركب الآن من باردو الى سوسة ، وبلّغ الموطن للوزير وما شاهدته من الحال ، وائتني بالجواب عاجلا » ، فركبت من فوري وأصبحت بسوسة ، فأخبرت الوزير بمقال القنصل ، وقلت له ان الناس يتكلمون في ذلك . فاستفهمني ، فقلت له : « يقولون لولا اعانتك للقواد ما قدروا على أقل من هذا ، واعانتك لا تكون

(1) ما بين القوسن ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(3) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

الا بجُعل (1) » ، ففكّر في ذلك وقال : « ان كلام القنصل متّجه ، وسأكاتب مولانا بما نراه » ، فاستأذنته في الرجوع بكرة ، فأمر أن يفتح لي الباب قبل وقته ، وودّعته . ولما عسعس الليل ركب مختفيا في نحو ثلاثة من الفرسان ، وسبقني الى باردو ، وتكلم مع الباي بأنه يفصل النازلة على وجه لا ضرر فيه ، واعترف للباي بغلطه . ولما وصلت باردو ، بلغني سرًّا وصول الوزير . ولما قابلت الباي ، سألني عن الجواب ، فدنوت منه وقلت له : « ان صاحبك بدارك » .

ثم رجع الوزير مختفيا ، ففتح نظره وراء تصرُّف العمّال ، ورأى الامر الفظيع ، والظلم الذي يمسك الغيث ، وان الساحل شاحت (2) ثروته ، وبدت عورته . فضرب على أيدي القيّاد (3) ، وكبح شكائمهم ، وخلّص التجار [على وجه جميل . وهذا أيضا من أسباب النقصان في عمران هذه الايالة وثروتها] (4) . ويقال على ألسنة الحسّاد إن هذا السّلم أيضا كثير منه بأموال القواد ، تستّروا فيه بأسماء التجار ، وربك أعلم .

وأقبل الوزير شاكير على أهل الساحل (5) بالعناية والاعانة ، فسلّفهم الاموال على وجه القرض تارة ، والقراض أخرى . وعاد حالهم في نحو العامين الى أحسن حال ، ووافاهم الخصب حتى ان عامّتهم يؤرخون ذلك بصابة شاكير . وأباح لهم ما كان ممنوعا ، وهو الشكاية من تعدّي العامل ، المسمى في ذلك الوقت بالفساد ، ويعاقب صاحبه بالسجن وغرم المال . بل بلغ الامر الى غاية لا تعقل ، وهو أن أحد عمّال سوسة بعث شاكيا من فساد رجل بعملها ، وصدر الامر بازعاجه الى باردو ، وتقييد خطية (6) عليه ، وكَتْبِ أمرٍ للقايد يستخلصها منه والرجل في داره ، وكان ذلك بالمحكمة ، فأتاني باش حانبة بحجّة الفساد ، لنكتب مضمونها في الزمام ، مع مقدار الخطية على العادة ، فتصفحت الحجّة فاذا هي شهادة نَقْلٍ عن أفراد ، الله أعلم بوجودهم ، يشهدون بأن هذا الرجل هَمّ أن يشتكي بالقايد لسيّدنا ، فتوقفت وعرضتها على رئيس الكتاب وقلت

(1) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « برشوة » .

(2) شاح : جف ، يبس ..

(3) قايد : قائد ج قياد وقواد : عامل ج عمال .

(4) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

(5) « على اهل الساحل » ساقطة من خ ، مثبت فى ع و ق .

(6) خطية : غرامة مالية .

له : « كيف أكتب أن الهمّ بالشكاية لسيّدنا ذنب يقتضي العقوبة بالمال ؟ » ، فقال لي منكرا : « اكتب مضمون الحجّة فهمتها أو لم تفهمها » ، فكتبتها كما أمرني ، وهي في زمام المحكمة بخطي الى الآن ، والله يعفو عن السيّئات . وأزعج ذلك الرجل المسكين من داره على حين غفلة الى ظلمة السجن ، ولم يتسرح حتى دفع العدد وخدمته للقايد ، وهو زيادة عشرة للقايد ، الى غير ذلك مما يزيل العمران ، ويحث على الخروج من الاوطان .

ولم يزل الوزير يداوي جراح الساحل . وشكَرَه بعض المدّاحين على صنيعه ، فقال له : « ان مضرة الساحل على يدي ، ويلزمني دواء ما جرح بسببي » . وزال ما كان يعتقده من أمانة العمّال . وتتبع أحوالهم تتبّع الناقد البصير .

وفي خامس جمادى الثانية من السنة 1246 (الاحد 21 نوفمبر 1830 م.) ، سافر الوزير أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع الى الجزائر في فابور حربي فرنسيس ، ومعه الكاتب الفقيه أبو الربيع سليمان المحجوب ، لاسباب سياسية ، منها أن الفرنسيس لما استولى على الجزائر ملك ثغورها البحرية وبقيت قسنطينة واعرابها قائمة ، وانضاف لهم أعراب تلك الجهة . وقام بأمرهم الحاج أحمد باي قسنطينة ، مشاغبا للفرنسيس ، يشنّ الغارات على أطراف الثغور ، والفرنسيس يتغافل عنه ويتربّص به الدوائر . وظهر (1) للباي حقن دماء أولئك المسلمين ، فكاتب علماء البلاد وأعيانها بما محصّله : « ان الجزائر لمّا حلّ بها ما حلّ ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، أصبحتم فوضى ، وعرضة لكل ذي حدّ أمضى ، لا تأمنون نزاعا ، ولا تستطيعون دفاعا . وبقاؤكم على هذه الحالة يفضي الى تشتيت الكلمة ، واستئصال أمة مسلمة . وان الجيش الفرنساوي لا قِبَل لكم به ولا طاقة . فالواجب أن تنضمّوا الينا وتتركوا القتال ، لانه إلقاء باليد الى التهلكة في هذه الحال ، والمؤمنون كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا ، الى آخر المكتوب ، وكان من انشاء العبد الفقير .

فأجابه الحاج أحمد باي بما حاصله أنّه قادر على افتكاك الجزائر من غير استعانة . ودلّ كتابه على غلظ واعجاب ، وعقل قاصر (2) بحجاب .

---

(1) ظهر له : رأى ، اراد ، عزم .

(2) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « وعقل مغطى بحجاب » .

ووقع في عربان تونس شيء من مقدمات الهرج ، فبعث الباي هذا الوزير الى أمير الجيش الفرنساوي ، وهو يومئذ المرشال كلوزيل ، يكلمه في هؤلاء العربان وسفك دمائهم ، اذ لا حاجة له بهم ، انما حاجته أخذ الثار من صاحب الجزائر وقد وقع . واضطرام نار الحرب بوطن الجزائر ربّما يطير شرره الى الوطن التونسي ، الى غير ذلك مما اقتضته المصلحة في ذلك الوقت . فطلب منه أمير الجيش ، المرشال كلوزيل ، أن يقبل الباي وهران ، على ضريبة معينة من المال ، يدفعها باي تونس منجّمة لاعوام معيّنة ، وعند تمامها يقع التجديد أو حلّ العقدة ، بشرط أن يوجّه لها الباي أحدا من أعيان بيته ، [على شروط مقيّدة] (1) . فاغتنم الباي هذه الفرصة في وهران ، حقنا لدماء المسلمين ، وحفظا لوطنه من هرج الفساد ، وطمعا في فائدة ، لو تمّت له أسبابها ، مع اياسه من قسنطينة :

وأتعب الناس ذو حال تُرَقّعها يدُ التجمّل والاقتار يخرقُها (2)

فجمع الباي أخاه ووزراءه وأعيان دولته ، وكان بحمّام الانف ، وكلّمهم في ذلك ، فأجابوا على لسان واحد بأن لا حاجة لنا بوهران ، لبعدها عن وطننا ومباينة طباع عربانها لطباع عرباننا ، الى غير ذلك . وممن شدّد النكير ، وكاد أن يصرّح بالتكفير ، الوزير أبو الربيع سليمان كاهية . وللباي غرض في ذلك ، وساعده الوزير أبو عبد الله محمد كاهية . وكان الوزير شاكير صاحب الطابع غائبا بالساحل ، والمكاتيب تتردد بينه وبين الباي في ذلك ، ولم يُستفد منه ميل الى رأي الباي ولا معارضة صريحة ، فظهر للباي أن يوجّه اليها ابن اخيه ، أبا العباس أحمد باي ، لانه أكبر الابناء في البيت ، مع نجابته المعروفة ، فكلّم أخاه في ذلك ، فقال له : « أنا أطوع أمرك ، وسائر الابناء بنوك ، وأنا أكبرهم ، فان رأيت أن توجهني بَدَلَه ويبقى هو بين يديك ، فاني حاضر » ، فصعب عليه فراق أخيه ، وقال له : « تكلّم مع الابن » ، فقال له : « الابن ابنك وغدا نرسله اليك ، فمُره بما شئت » .

ومن الغد أتى أحمد باي فكلّمه عمّه ، فأطرق ثم قال : « هذا أمر يجب علي امتثاله أو أتكلّم ؟ » فقال له : « تكلّم » ، فقال : « اذن لك لا يكون الا بثلاثين الفا من العسكر بما يلزمهم ، وعدد من آلاف الآلاف ريالات ، لان ثغر وهران بيد

---

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(2) البيت ساقط من خ ، فثبت في ع و ق .

المستولي عليها الآن ، وسائر أعرابها قائمة على ساق ، وهم يعلمون ان ولايتي فيها انما هي لفائدة من يحاربونه ، حتى تتم طاعتها ، وتنقاد جماعتها . ولذلك كانت الولاية مؤقتة ، ولا يُظَنّ حصول هذا المراد الا بشوكة عسكرية ، وقوة مالية ، للترهيب والترغيب » ، فبُهت الباي وقال له : « لا تحب السفر ؟ » ، فقال له : « ان أمرتني ان أتوجه لاموت ، فانني أتوجه الآن طاعة لامرك » .

وقد ظن أحمد باي أن مراد عمّه ابعاده ليصفو الجوّ له ولابنائه ، وظنّ بعض الناس ذلك ، والسرائر يعلمها الله .

[وأما مطلب أحمد باي فانّه واجب متعيّن ، اذ لا بدّ للولاية من المال والرجال ، ولم يشطّط في الطلب لان الحال لا يقتضي أقلّ من هذا المقدار] (1) .

وأتى الوزير شاكير من مغيبه ، ووقع الاختيار على ارسال خير الدين آغة ، وهو ممن لا يرى هذا الرأي ، فسافر على كره ، في الفابور الفرنساوي ، ومعه الكاتب أبو محمد حسن بوكاف وأبو محمد حسونة المورالي وقليل من الحامية ، وذلك في خامس شعبان السنة 1246 (الاربعاء 19 جانفي 1831 م.) وأمدّه الباي بعد أيام بثلاثمائة من عسكر زواوة والمخازنية مع محمد شولاق ، من أعيان المماليك .

ولما وصل خير الدين انحجر في قصر الامارة في وهران ، يخلّص المكوس والضرائب على الاشياء التي تخرج في البحر على قلّتها . والاعراب تناوشه القتال ، مستحلّين دمه (2) والوزير شاكير صاحب الطابع يكاتبه بالملام على عدم ارسال المال ، خشية أن يحلّ نجم الدفع ، الى غير ذلك من الخيالات التي لا مستند لها الا التمنّي ، وهو رأس مال المفلس . ورسوله سليمان الزواوي يتردّد بين تونس ووهران برسائله [التي يجاب فيها بنقيض مقصوده] (3) .

ولما ضاق ذرع خير الدين ، كاتب الباي بأن ثلاثمائة من العسكر لا تعمل في ألوف من العربان ، وكلّما طلبت من وزيرك الامداد بالمهمّات والرجال ، يجيبني بارسال المال .

(1) هذه الفقرة ساقطة من خ ، مثبتة فى ع و ق .

(2) كذا فى خ ، وفى غ و ق : « وأهل الزوايا والاعيان وعامة المسلمين بذلك الوطن يقاتلونه ، مستحلين دمه ودم تلك الشرذمة التى معه ، لا مانع لهم من استئصال شأفته الا السور والمدفع ، شبه المحبوس » .

(3) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

ولما كانت العقدة تقتضي الفسخ اذا وقع العجز ، أذن له الباي في الرجوع ، فرجع في ربيع الثاني من سنة سبع وأربعين (سبتمبر — اكتوبر 1831 م.) ، صفر اليدين ، مثقلا بالدّين . ولم يجد أحد وجها لملام خير الدين .

وبقي الحاج أحمد باي في قسنطينة ، عائثا في دمائها وأموالها ، الى أن أخذها الفرنسيس في رجب من سنة ثلاث وخمسين 1253 (اكتوبر 1837 م.) ، وهرب خشية أن يسلّمه أهل البلاد ، وقد تواطؤوا على ذلك . وهذا أقل ثمرات الجور ، المفضي الى المحظور . سمعت من بعض علمائها في ذكر الحاج أحمد باي وعسف جوره ، وختم كلامه بقوله : « ولا زلنا في أسر هذا الظلوم الغشوم ، حتى رحمنا الله باستيلاء الفرنسيس ».

وفي هذه المدة وقع الارجاف بأن الدولة العلية العثمانية عزمت على حرب المملكة التونسية ، لسبب خروجها من الالتحام الاسلامي ، وكأنها رأته حربا شرعيا . وفشا ذلك في العامة ، وكنت [لجهلي بحال هذه المملكة] (1) ممّن يحسّن رأي الباي في شأن وهران ، ولا نراه معارضا لقواطع الشريعة . فأجمع رأي الباي ورجال دولته على ارسال العبد الفقير بمكتوب مخصوص لسر عسكر ، وهو يومئذ خسراف باشا ، ومثله لقبطان باشا ، وهو يومئذ خليل باشا ، ان وقع الكلام في نازلة وهران ، وان لم يقع نرجع بالمكاتيب التي مضمونها احالة نقل الجواب على عهدتي ، وارسال أبي النخبة مصطفى البلهوان باش حانبة بمكاتيب للدولة في طلب الاذن لعمل عسكر نظامي ، وطلب لباس التشريف ، ليكون هذا الاذن قوة للباي ، خشية الفساد مما بقي من جند الترك . واذا سئل عن أمر وهران يحيل الجواب علي . وفي الصورة الظاهرية كنت أشهد على مصروفه ، لان عناية الوزير بتدبير المال أشدّ منها في غيره .

وركبنا مركبا متجريا صغيرا ، وشقوفنا بالجابية ، لان تعمير شقف منها أكثر من كراء شقف متجري .

وسافرنا أوائل ذي الحجة من السنة 1246 (أواسط ماي 1831 م.) ، فوجدنا السلطان محمود بأسطوله في البوغاز على بلد قلبولي ، فأرسينا ، ومن الغد أرسل لنا قبطان باشا فأحسن اللقاء ، وناوله مصطفى البلهوان مكاتيبه ، فقال لنا : « ان السلطان سيرجع قريبا الى

(1) ما بين القوسين ساقط من غ ، مثبت في ع و ق .

اسلامبول ، فتوجهوا لها » . وأصحبنا بمكاتيب لخسراف باشا ولكاهيته . ووصلنا اسلامبول فبالغت الدولة في اكرام نزلنا ، على عادتها في اكرام الضيف . وجاء السلطان بعد أيام ، فأرسل لنا الوزير خسراف باشا ، بمحضر قبطان باشا ، وسألنا عن شأن وهران ، فقال له مصطفى البلهوان : « أنا رجل جندي ، رسالتي هي ما في مكاتيبي . وهذه نازلة دينية سياسية ، هذا رسولها » ، فعند ذلك ناولته المكاتيب التي بيدي ، وكان يتكلم باللغة العربية . ولما قرأها ، سألني عن سبب تأخيرها ، فقلت له : « لم تطلب مني جوابا ، ولما سألتني يجب أن نقدم حجة الاذن لي في الكلام » . وأجبته بالاسباب المقتضية على الاجمال ، وأعظمها حقن دماء المسلمين ، وان التفويض لصاحب تونس على بعدها ، يقتضي أن يسعى في توقيف ضرر حالٌ ، من غير توقف على اذن من الدولة . وبعد ذلك استدعانا بمحضر رجلين من العلماء ، وأعدت الجواب موضحا . وهو يدور على ارتكاب أخف الضررين ، والضرورات تبيح المحظورات ، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، واصل ذلك صلح الحديبية . فكتبه أحدهما ليطّلع عليه شيخ الاسلام. ثم قالوا لنا : « أحسن الباي في صنعه كله ، الا في عدم قبول طاهر باشا » ، فقلت لهم : « لو أذن له في النزول وبعثه في جمع ، لادّى ذلك الى حرب » ، فقال : « يرى الشاهد ما لا يراه الغائب » .

ولما يسّر الله قضاء الوطر ، وزال ما كان يظنُّ من الخطر ، رجعنا في جمادى الاولى سنة سبع وأربعين (اكتوبر — نوفمبر 1831 م.) ، بعد أن لبسنا هناك زيّ العسكر النظامي . وجاء معنا رسول بالشعار الملكي النظامي ، فلبسه الباي في ديوان حافل على العادة . [وأخذ الوزير اللباس من يد الرسول وهو الذي باشر وضعه على الباي ، وقد كانت العادة السابقة أن ترجمان الداي هو الذي يأخذ اللباس من يد الرسول ويضعه على الباي] . ولما وصلنا [وطالت مدتنا في البحر ذهابا وايابا] ، وجدنا خير الدين أتى من وهران [في مركب بخاري] (1) قبل وصولنا بأيام .

وفي شعبان السنة 1246 (جانفي) ، شرع الباي في ترتيب العسكر النظامي . وذلك أنه جمع شبّانا من أولاد الجند الثابتين في ديوانه ، أكثرهم طبّجية ، وضمّ لهم آخرين من أولاد البلاد ، وأسكنهم المحمدية ، وجلب لهم معلما من فرانسا لصناعة الرمي بالمدفع

(1) ما بين القوسين فى هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

والمكحلة ، على الترتيب النظامي . ثم كثر عددهم شيئا فشيئا ، وأثبت من القيروان والساحل عددا ، جعل مقرّهم سوسة ، وجعل لهم معلما . وتقدم في ترتيب هذا العسكر متأنّيا ، مراعاة للجند السابق الذين هم الحامية يومئذ ، وبيدهم حصونها في الحاضرة والبلدان ، متوقعا منهم ثورة . والعسكر لنظر وزيره شاكير ، وقدّم لمباشرتهم الامير آلاي سليم بالمحمدية ، والامير آلاي قاره محمد بسوسة ، ومرجعهما للوزير ، حتى كان ينسب هذا العسكرَ لنفسه ، وبحث بذلك عن حتفه بظلفه ، كما يأتي ان شاء الله .

وفي رمضان السنة 1246 (فيفري — مارس 1831 م.) ، وقع ترتيب المحصولات بفندق الغلّة بباب البحر وهو أول التراتيب في الحاضرة جرى على قانون في أوله ، [ورتب الباي على سائر ما يباع من الثمار ونحوها ضرائب مجحفة ، بل أخذ من بعضها الربع ، شأن الدول عند الضعف والحاجة] ، وجمع منه الوزير مالا وافرا [ربما سدّ الخلة] (1) ، ثم صار التزاما في شوال سنة أربع وخمسين (ديسمبر 1838 م. — جانفي 1839 م.) .

وفي السادس عشر من جمادى الاولى من سنة سبع وأربعين (الاحد 23 اكتوبر 1831 م.) ، توفي شيخ الاسلام الرجل الصالح أبو عبد الله محمد ابن شيخ الاسلام أبي عبد الله محمد بن حسين بيرم ، وتغيرت البلاد لوفاته ، ولم يتخلف عن جنازته الا من عاقه العجز ، وحضر الباي وبنوه وسائر رجال الدولة ، وتبركوا بحمل نعشه ، ودفن بتربة أبيه قرب داره . وتقدم ابنه شيخنا العلامة أبو عبد الله محمد لرئاسة الفتوى ، وتقدم ابنه صاحبنا الفقيه المحقق أبو عبد الله محمد لخطة الفتوى .

وفي الثاني (2) والعشرين من رمضان سنة سبع وأربعين 1247 (الجمعة 24فيفري1832م)، انعقدت شروط بين الباي وسلطان سردانيا ، [الذي هو الآن سلطان أهل ايطاليا] (3) كارلو ألبيرتو ، بواسطة قنصله المفوض له في ذلك ، الكنت فليبّو ، وهو من رجال السياسة وأعيان قومه . وبعد عقد الشروط سافر من تونس لخطة أعلى . والشروط باللسان العربي .

(1) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(2) كذا في خ و ع ، وفي ق : « الثامن والعشرين » .

(3) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

وفي الحادي (1) والعشرين من شوال سنة سبع وأربعين 1247 (السبت 24 مارس 1832 م)، توفي الداي عمر ودفن بتربته ببير الحجار ، وتقدم بعده للولاية الداي حسن الذي كان آغة باب باردو ، وامتحن في نكبة الوزير يوسف صاحب الطابع ، ثم صار كاهية آغة القصبة . وهو خيِّر وجيه أَلْحَى لم ترمق عيني في بلادنا أطول من لحيته ، أعجوبة في ذلك .

وفي يوم الاثنين ثامن (2) ربيع الثاني سنة ثمان واربعين 1248 (3 سبتمبر 1832 م) توفي هذا الداي حسن فجأة ، وقدّم الباي عوضه مصطفى داي أحد أعيان جند طرابلس الذين قدموا لتونس مع مصطفى خوجة ، وكان قبل ذلك وكيل أملاك الدولة بالحاضرة ، وكاهية آغة القصبة .

وفي رجب من السنة 1248 (نوفمبر — ديسمبر 1832 م.) وقعت وحشة بين الباي ودولة سردانيا ، سببها أن رايس شقف صغير وسق من غير المرسى شيئا ممنوعا الا بالسراح (3) ، وذلك بساحل غار الملح . فنمى الخبر الى الكاهية محمد ابن الكاهية أبي العباس أحمد ابن الوزير الكاهية محمد خوجة ، أمين الترسخانة ، فجعل عسّاسة عليه فأراد أن يلقي ذلك في البحر ، فأذن الكاهية بالطلوع الى الشقف ، فنشر الرايس صنجق دولته وترك شقفه ، وادّعى أن به أشياء ضاعت له ، مع اعترافه قبل هذه الدعوى بأنه لم يَضِع له شيء ، ووجودِ الشيء الممنوع في شقفه . والعادة الجارية أن من يُطْلِع شيئا ممنوعا ، يؤخذ ذلك الممنوع والشقف بما فيه . واستعجل القنصل بمكاتبة دولته في ذلك ، قبل اتمام المفاوضة بينه وبين الباي ، [كأنه يريد تعظيم النازلة] (4) ، فأتى منها أسطول طلب أميره أمورا أولها عقاب الكاهية على تعدّيه ، الثاني رفع صنجق السردانيز واطلاق واحد وعشرين مدفعا عليه ، الثالث غرم ما لزم الرايس من المصاريف والضرر ، الرابع مصروف الاسطول ، والا فالحرب .

وعيّن لذلك أجلا ، فجمع الباي أهل المجلس الشرعي ورجال الدولة وفاوضهم في ذلك ، وكان جانحا الى الحرب والوزير مثله . وجنح بعضهم الى السلم ، كالوزير أبي عبد الله محمد خوجة كاهية حلق الوادي ، فانه قال للباي : « يا سيدي ، ان سردانيا

(1) كذا فى خ و ع ، وفى ق : « الخامس والعشرين » .
(2) هو 7 حسب التقويم .
(3) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « الا باذن خاص بعد اداء السراح » .
(4) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

وجنوة ليستا كما كنا نعهد ، وتقدّمتا في العمران والقوة بقدر ما تأخرنا ، فلا تخاطر ببلادك والحالة هذه » ، فجمع الباي المجلس الشرعي ورجال الدولة ، وأمرني بقراءة مطالب أمير الاسطول ، تهييجا لحميّتهم ، فقال له رئيس المجلس شيخنا أبو عبد الله محمد بيرم : « ان كنت تسأل عن الحكم الشرعي ، فالتكليف بقدر الامكان ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ، وعلم ذلك مرجعه اليك والى وزيرك ، فان تحقق عندك قوتنا على المدافعة فتوكل على الله ، والا فالتربّص أولى » . وسأل الوزيرَ عن حال القوة فقال له : « ليس عندي ما يقاوم قوتهم » . وعارضه شيخنا عالم العصر ، وكأنه نسبه الى الخوف ، ظنّا منه أن سردانيا الآن هي سردانيا في الزمن السابق . واتفق الرأي على التأني وعدم المسارعة الى الحرب ، الا اذا لزمت ضرورة ، فأجاب الباي عن المطالب : « بأن الكاهية استوجب الادب ، وقد عزلناه لانه بلّغ الينا أكثر من الواقع ، واستعجل في أمر لا يفوت لو قوّى العسّة . وأما رفع الصنجق واطلاق المدافع عليه ، فاننا لم نقصد والحالة هذه ما يناقض احترام الصنجق ، ولذلك نشهر هذا القصد ونعلنه باطلاق المدافع ، حتى يعلم الخاص والعام مرادنا . وأما خسائر صاحب الشقف ، فقد اعترف بأنه لم يَضع له شيء ، والشهادة قائمة عليه بذلك ، وقد وجدنا الشيء الممنوع في شقفه ، وبذلك يمكن لنا الاستيلاء عليه ، على عادة بلادنا المعروفة ، [وعادة الدنيا المعقولة ، وهي أن كل من أتى بلدا تمضي عليه أحكامها] (1) ، ومع ذلك لم نأخذه ، وانما أوقفناه فقط ، حتى يتم الكلام بيننا وبين القنصل في ذلك . وأما مصروف الاسطول الذي جاء لسبب هذا التعدّي ، فأيّ تعدّ وقع والحالة هذه ؟ بل التعدي من صاحب الشقف على قوانين البلاد وأحكامها . فأي داع لدولتكم في ارساله قبل أن يقع الكلام بيننا ويعلم كل منا قصد صاحبه فيرجع أحدنا الى الصواب » .

وانفصلت النازلة على هذا الوجه ، وأطلقت المدافع على الصنجق ، وعزل الكاهية .

وقبل قدوم هذا الاسطول توجه الوزير شاكير الى حلق الوادي وأحكم حصونه ، وجعل متارس أرضية بالرمل . واستخدم في ذلك يهود الحاضرة [دون غيرهم ، ولم يظهر سرّ التخصيص] (2) . ولما تمّت عمّرها بالمدافع ، واستنفر الباي الوسالتية وفرسان الاعراب وغيرهم ، واستعدّ للمدافعة ، فكفاه الله ذلك بالصلح الذي هو خير .

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

وفي رمضان من السنة 1248 (جانفي — فيفري 1833 م.) وقعت وحشة بين الباي ودولة النَّبُلْطَان، بسبب أنفار من نَابُلي مستخدمين في صرايته لتنظيفها ومناولة سكانها ما يلزم لضرورياتهم [يسمون المشاشوات أي الصغار]، غلبهم النوم في ليلة من ليالي رمضان، فلم يسمعوا علامة السَّحور، وأيقظتهم علامة الامساك، فلم يهيّئوا موائد السحور للمماليك حتى حان وقت الفجر وأمسكوا بلا سحور. فاغتاظ عليهم رئيس المماليك بالصراية، وهو أبو النخبة مصطفى باش مملوك، فأمر بضربهم. وعاثت في أرجلهم أيدي الضرب المبرح، ففزعوا الى قنصلهم بحرارة ما نالهم. فلم يسعه الا القدوم الى الباي، وانتظره في صحن البرج، ولما خرج الى المحكمة تلقّاه في الصحن وقال له: « هل بلغك ما حلّ بالانفار الخَدَمة في صرايتك من النَّبُلْطان ؟ » فقال له: « بلغني، وقد غفلوا عن واجب خدمتهم، وكل من غفل عن واجبه يلزمه الادب »، فقال له: « ليس هذا ضرب أدب، وان شئت فانظر الى أرجلهم وما حلّ فيها من الاثر ». ثم أن المقرَّب جوزاب راف قال للقنصل [اذ هو المترجم في النازلة] : « ليس هذا موضع الكلام، وانتظر سيدنا حتى يخرج من المحكمة وتلاقيه في محل مناسب لكما »، فرجع منتظرا [ولاطفه جوزاب راف] ، ولما خرج من المحكمة اجتمع به القنصل، وأعاد له خطاب التحنن وما يقتضيه الحق، لان هؤلاء لما تسرَّحوا من رق الملك، اختاروا المكث في البلاد [بمحل مربّاهم] (1) أُجَرَاءَ، وليس للمستأجِر أن يضرب أجيره، قصارى الامر فسخ الاجارة وطرده. وبالغ في حسم النازلة قبل انتشارها، والباي يقول له: « عادة بلادنا تأديب خَدَمتنا بالضرب وغيره »، فقال له: « يا سيدي، يمكن فصل هذه النازلة بتوبيخ رئيس المماليك بما تراه، وارضاء الشاكين »، فلم يُصْغِ له الباي، ورجع. فخلا الباي بوزيره شاكير وبعض رجال دولته، وفاوضهم في النازلة، فأشار بعضهم بتصويب رأي القنصل، وأن لا تَسَلُّطَ للمستأجر على أجيره بالضرب. وكدت أن أمتحن في النازلة، لولا لطف الله وصفاء باطنة هذا الباي، [لانه نظر إليّ وهو حَنِق، مع أخلاق الصائمين، وقال لي: « ما تقول ؟ » فقلت له: « يا سيدي] (2) الضرب غير مدخول عليه في الاجارة، لانه أمر مجهول، وهؤلاء أحرار »، فعظم عنده ذلك، وقال: « يقال بحضرتي لفظ حرّ ؟ »، وجعل يكررها وينقمها علي. ونادى أبي وقال له:

(1) ما بين القوسين فى الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق ، وفى خ : « لانى قلت له » .

« هذا كيف تربّى ؟ » فقال له : « نعلم أنه لا يصلح للخدمة ، وقلت لك ذلك فاستخدمته على كره منّي ، فدونك واياه » ، فقال : « يقول « هؤلاء أحرار » ، فقال له أبي : « هذا من جهله وعدم تخلقه بالسياسة » . وغلبه حلمه رحمه الله وسكن غضبه . وقال الوزير شاكير : « ان مثل رئيس المماليك لا يوبّخ ولا يلام لاجل هؤلاء الاسافل »، فقال له جوزاب راف : « ان استرضاءَهم هيّن عليّ ، فمرني بذلك » ، فقال له : « لا تفعل ذلك » . ثم ان الوزير أرسل الى القنصل ليقول : « هؤلاء الخدَمة من أراد منهم الخدْمة في الصراية فليتجلّد لكل ما يرد عليه ، على العادة ، ومن لم يرد ذلك فهو مطرود » ، فقال له القنصل : « قد تركوا الخدمة قبل طردكم ، وهم الآن يطلبون حقهم ممن تعدّى عليهم وأوجع أبدانهم بالضرب الشديد ، ولم يتعمدوا ذنبا ، والنوم ضروري للحيّ » .

وكاتب القنصل دولته فأتى منها أسطول به البرنجبي الكولير كراشلو ، فطلب عقاب المتعدي على هؤلاء بالضرب ، ونَشْرَ راية دولة نابلي ، وإظهار احترامها باطلاق واحد وعشرين مدفعا ، حتى يظهر للعيان أن احترام الدولة لم يَمَسَسْه شيء ، والاعتذار عن هذا الخطأ بالكتابة ، وما لزم الدولة من مصروف الاسطول .

وترددت الرسل بين الباي والبرنجبي ، وآل الامر الى أن الدولة غير مضطرة لارسال مراكبها والحالة هذه ، ورئيس المماليك وقع توبيخه ، ومنع من الخروج شيئا من الزمن ، لما صدر منه من الخطأ ، وتعظيم الراية بالمدافع اعتراف بالخطأ . وكاتب الباي البرنجبي بمكتوب محبة واحترام ، في الثاني من ذي الحجة 1248 (الاحد 22 افريل 1833 م.) .

ووقع لبعض هؤلاء الخدَمة ندم ، وبقي قليل منهم في الخدمة . واضطر أهل الصراية الى من يخدمهم ، فقال بعض عقلاء المماليك : « نحن في هذا الموضع عسة على ذات الملك ، يخدم صغيرنا كبيرنا » . ولم تكن يومئذ عسة عسكرية على الملك . وقال آخرون : « نحن خاصة الملك ، وصغيرنا له اعتبار ، لا يخدم الكبيرَ الا برضاه ، لا بالغصب ، ولا بد من خدَمة مأجورين للصراية » . ولما بلغ الباي هذا الكلام ، جنح اليه ضرورة ، لان المملوك اذا لم يرد الخدمة ويطلبُ حريته ، تحميه قنصلاتو الانقليز أو الفرنسيس ، حبَّ الباي أم كره . فعند ذلك آجر الباي أناسا من أبناء المملكة الذين لا مهرب لهم منها الا اليها وقتئذ ، واستخدمهم بالصراية [عوض المشاشوات من النصارى] (1) ،

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

يُشَجُّ أحدهم فلا يرثي له أحد ، ولا يؤمل الا غَيرةَ الواحد الاحد . وكانوا أول الامر يُستخدمون برضاهم ، طمعا في التقدم للخطط ، الذي لا سبب له في الملك المطلق الا محبة الملوك ، وان لم يحصّلوا الا الاماني ، ثم انقلب الامر الى استخدامهم كرها .

وفي الخامس عشر من جمادى الاولى سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف 1248 (الاربعاء 10 اكتوبر 1832 م.) توفي عالم الامة ودستور المالكية ، أبو الفداء الشيخ اسماعيل التميمي رئيس الفتوى ، وحضر جنازته الباي وأبناؤه ورجال دولته ، وحَمل نعشه ، وصلى عليه الشيخ الامام أبو عبد الله محمد الشريف بجامع الزيتونة ، أمام باب البهور . وتقدم لرئاسة الفتوى تلميذه شيخنا عالم العصر ، وتقيُّ المصر ، ومن تعز مناقبه عن الحصر ، أبو اسحاق ابراهيم الرياحي ، وكاد أن لا يقبل الولاية ، وذلك أن الباي استقدمه على لسان ثقته المقرب أبي عبد الله محمد ابن الوزير العربي زرُّوق . ولما وصل قام له الباي وأجلسه حذوه ، وقال له : « ان سيدي حمودة باشا اختارك لخطة القضاء فهربت منه ، وأنا أرجو أن لا تمتنع الآن من رئاسة الفتوى ولا تهرب مني » ، فقال له : « الاحسن أن تتركني للتدريس لانه أنفع للمسلمين ، وتقدم لهذه الخطة من حصل له التمرُّن فيها من أهل المجلس » . فأومأ اليّ الباي أن أعارضه ، فقلت له : « يا سيدي ، ان الامر تعيّن عليك ، وصار واجبا شرعيا في حقك ، وحاشاك أن تترك واجبا » ، فقال لي : « أتشهد بذلك ؟ » فقلت : « نعم ، أشهد به » فقال : « ومن يشهد معك ؟ » فقلت له : « تلميذك الشيخ محمد الاصرم ، كاهية باش كاتب » ، وكان جالسا أمام الباي ، فقال : « أشهد بذلك وأدين الله به » . وقال الحاضرون : « جميع الناس يشهدون بذلك » ، فقال للباي : « أقبِلت شهادة هؤلاء ؟ » فقال له : « نعم ، وأنا معهم » ، فقال : « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » . وقبل الولاية وأُلبس حلّتها بحضرة الباي .

ولما خرج قال له محمد زرُّوق : « هذا الوزير شاكير صاحب الطابع جالس في بيته ، وهي في طريق مرورنا ، فلا بأس أن تدخل اليه » ، وحسّنت له ذلك ، ففعل . ولما دخل قام له الوزير ، وأكبر مقدمه ، وأجلسه في موضعه ، وجلس بين يديه متأدبا ، وهنّأه وعامله معاملة لم تُعهد منه مع عالم ولا وليّ . وباسطه في الخطاب ثم قال له : « يا سيدى ، أيسوغ لي أن أخلّص من الناس عشرين ، يعني الخمس في الزكاة ، عند

ضيق الحال ؟ » ، فالتفت اليّ مبتسما وقال لي : « هذه مسألة عز الدين بن عبد السلام » (1) ، وقال للوزير : « نعم ، وتخلص أكثر من ذلك ، بشروطه التي منها الحساب لمعرفة الدخل والخرج وطرح ما لا يلزم شرعا من المصاريف ، فانه من مال مَن صَرَفَه ، واليمين » ، فقال له : « وكيف اليمين ؟ » ، فقال : « يحلف الامير في الجامع ، مستقبل القبلة قائما ، بالله الذي لا اله الا هو ما خان ولا بدّل ولا غيّر ، فعند ذلك يسوغ لك أن تأخذ من الناس ما تدفع به عنهم الضرر المحقّق ، غير مقيّد بمقدار معين » . ثم خرج وشايعه الوزير وبالغ في إجلاله ، ولم ينفعل من مقالته ، لانه لا يرى السرف في المصرف ولا الاجحاف بالرعية . وقال لي : « اذكر هذا الكلام لسيدنا ، لسرّ له في ذلك » .

وفي سنة تسع وأربعين ومائتين وألف 1249 (1833/34 م.) ، وقعت محنة أهل القيروان بالخَطِيَّة (2) .

وذلك أن هذه المدينة الصحابية المؤسسة على التقوى ، كانت مأوى لابي عبد الله حسين باي بن علي ، وقامت بدعوته ، وتجلدت للحصر خمس سنين ، وذاقت لباس الجوع والخوف ، وتهدم سورها ، وطمست معالم أبنيتها ، واستولى السيف والشنق على أعيانها ، ونالهم في دولة الباشا علي باي بن محمد المذلة والهوان ، وقتل النفس وأخذ المال والجلاء من الوطن ، ما تحدثت به الركبان وسار مسير الشمس ، حتى منّ الله عليهم بولاية أبي عبد الله محمد باي ، ابن صاحبهم حسين بن علي ، فأقام سورها وأظهر نورها وأصلح أمورها ، وأجراها على ما اعتادته من الاحترام . وجرى آل بيته في هذا السَّنن ، واكتسب أهلها احتراما أعانهم على ما يسدّ الرمق من الثروة ، بالنسبة الى حالها ووضعها . لان الصحابة رضي الله عنهم ، راعَوْا في اختطاطها مصلحة إبلهم التي هي أقوى عُدَدهم يومئذ ، ولذلك لم تنفق فيها أسواق المتاجر لبعدها عن البحر وعن الانهار المنبتة للاشجار ، وهي الى الآن أقرب للسذاجة من الحضارة ، ولذلك كانت أقل ثروة من بلدان افريقية .

ولما احتاجت الدولة الى الاعانة في الزيت الذي بيع للتجار كما تقدم ، وتوجه الوزير شاكير صاحب الطابع الى الساحل ، أمّل من أهل القيروان إعانة . فداخل عاملها سرًّا ،

(1) انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ج 5 ص 83 (القاهرة ط 1)
(2) الخطية : الغرامة المالية .

وهو يومئذ عثمان ابن الحاج عمر المرابط ، فداخل أعيانها سرًّا واستفاد منهم أن أهل القيروان حسبهم الاعانة بالدعاء والفاتحة ، إدلاءً بمحبتهم وعظيم منزلتهم (1) ، الا أن العامل أساء في التبليغ ، لما له في ذلك من المصلحة . فتوغّر عليهم صدر الوزير ، وتحققوا ذلك .

واتفق أن أنفارا من مساكن لاذوا بحرم أبي زمعة البلوي ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث الوزير من سوسة في إخراجهم من الحرم ، فقام رجل حائك من عامتها اسمه سعد اللوز ، ونادى : « يا أهل القيروان ، هكذا يهتك حرم السيد الصاحب وحرم القيروان ؟ » ، فلبّاه جمع من غوغاء الرّعاع ، وانضاف اليهم آخرون ، واجتمعت العامة ، وعجزت الخاصة عن ردّهم ، وافتكّوا الهاربين قهرا . ثم حملوا السلاح وأتوا أعيانها يشيرون الى الواحد منهم بالسلاح ويقولون له : « ترضى هتك حرم السيد الصاحب ؟ » ، ولا بدّ أن يقول لا ، فاذا قالها قالوا له : « أنت معنا حينئذ » ، فيقول لهم ، وهو ينظر الى السلاح الموجه نحوه ، : « نعم » . ثم يأتون الآخر ، وهكذا . وبُوس السباع بأيدي الضباع .

واختفى الموجّهون من الوزير لاخراج الهاربين ، خوفا على أنفسهم من القتل ، وركبوا أدهم الليل الى سوسة ، وأخبروا الوزير بما رأوه من ضجيج العامة ، فغضب وكاتب الباي وهوّل له الامر بأن القيروان عصت وجاهرت بالبغي ، ولا بدّ من تلافي هذا الامر قبل سَرَيانه ، فوجّه الباي كاهية وجق الصبايحية بتونس صالح بن بلقاسم ، وكان من أعيان الدولة ، في عقد من الخيل ، وأمره أن يأتي سوسة أولا ليأخذ رأي الوزير في وجهته ، فأتاه وأوصاه وتحقق منه ان سائر أهل البلاد على اتفاق واحد .

ولما قارب القيروان بعث عينا لاستكشاف الخبر ، فتحقق أن البلاد على عادتها ، وأهلها في أهبة إكرام نزله ، فسار ، ولما وصل ضواحيها تلقاه جمع من أهلها بصناجق الاولياء ، فدخلها وتمكن على من أثار الهرج من العامّة ، وطلب من مجلسها الشرعي وأبناء زواياها وأعيانها أن يسيروا الى الباي ، فساروا معه على أمن وخجل من فعل العامّة . ولما دخلوا المحكمة ، يَقْدُمهم الفاضل العالم رئيس الفتوى أبو عبد الله محمد ابن الشيخ بكار صدّام ، عذلهم الباي وبالغ في لومهم ، فقالوا له : « ان أهل القيروان يرون أن زلّتهم عند أولاد حسين بن علي مغفورة » ، الى غير ذلك مما يسكّن الغضب ، فأمر

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « ادلاء بسالف خدمتهم وتشيعهم » ويقصد : ادلالا .

بضرب الرؤوس من العامّة خمسمائة (1) ، وكانوا نيفا وتسعين رجلا . ودام الضرب فيهم من الضحى الى العصر ، الا أنه ضرب هداية وتأديب لا ضرب قتل بتعذيب ، وذلك أنه لما أمر بضربهم قام من المحكمة وأمر أضه باشي المماليك ، الرجل الخيّر محمد الطبرقي ، بالتخفيف والرفق ، [وقال له : « اضرب ضرب تربية لا ضرب انتقام » . وكان ذلك علنا] (2) . وسجنهم بالكرّاكة ، وقال لاعيان البلاد : « لا بدّ من [خطية، يعني] (3) عقوبة مالية ، على كافة أهل القيروان » . والظن أن يخلّص شيئا ويترك شيئا ، اذ المقصود التربية . وأمرهم بالمسير الى سوسة لملاقاة الوزير ، ظنا منه أن ذلك يسكّن غضبه . فتوجهوا اليه ، ولما وصلوا بابها منعهم العسّاس من الدخول وأوقفهم زمنا طويلا ، ثم أذن لهم فدخلوا دخول أسرى حرب . ولاقى الوزير مقدّمهم وعاملهم بعنف وشدّة ، وقال : « الواجب في مثلك أن يقطع رأسه » ، وان صار يعظّمه بعد ذلك ، ثم عرّفهم بمقدار المال الذي قيّده الباي عليهم ، وهو خمسمائة ألف ريال ، وأنه قادم على الاثر لخلاصه ، ولا يحاشي أحدا . وأمرهم بالانصراف فانصرفوا .

وبعد ذلك ركب الوزير بمن معه الى القيروان ودخلها ، لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم . وقيّد سائر سكان البلاد ليوزع الخطية على قدر أموالهم لا على قدر ذنوبهم ، [لم يستثن من ذلك أحدا من الاشراف وأبناء الاولياء] (4) . ثم ثاب اليه فكره فحاشى أهل المجلس الشرعي .

يقال بالقيروان ، والله أعلم ، أن القايد يوسف بيشي اليهودي مباشر قبض الاموال في بيت خزنه دار ، قال له : « انا نرى في كتبنا أن إزالة احترام العلماء مؤذن بزوال القوة والتسلط ولم يُستَثْنَ غيرهُم » .

كما يحكي بها أن معلم صبيان نابه من الخطية خمسمائة ريال ، فأتاه مستعطفا ، فقال له : « بلغني أن على باب دارك شبّاكا ، ومن له دار هكذا يقدر على هذا العدد » ، فقال له : « لا أملك دارا ، ومسكني بالاجارة في دار بوديدح ، وهذا عقد الاجارة ، وان

---

(1) « خمسمائة » ساقطة من غ ، مثبتة في ع و ق .
(2) الزيادة في ع و ق .
(3) الزيادة في ع و ق .
(4) الزيادة في ع و ق .

ثبت لي ملك بالقيروان فهو لك ولو جاوز ثمنه هذا المقدار » ، فلم يلتفت له ، فشرع المسكين في بيع ثيابه وألواح مكتبه ، آيسا الا من رحمة ربه ، لان القوم في زلزلة ساعة ، سكارى وما هم بسكارى . وكل من تقاعد عن الدفع يعيّن له المخازنية ينزلون داره ويسيئون جواره .

وخلّص منهم خدمته على أصل الخطيّة ، بحيث لم يقف على عددها عند حدٍّ ، بل زاد النصف فيما يقال .

ورحل بعد أن خلّص أكثر ذلك ، وأناب في خلاص النزر الباقي . وباع أهل القيروان في ذلك نفائس أمتعتهم وأملاكهم بأبخس الاثمان ، وأصبحوا لا ظهر فيركب ولا لبن فيحلب ، وأرهقتهم الديون .

وآسف أهلَ المملكة ما حلّ بمدينة الصحابة ومدفن شعرات المصطفى صلوات الله عليه ، وأبناء الاشراف والصحابة والتابعين ، ونشأت فيهم غيرة دينية كما يغار المؤمن لحرم الله ورسوله ، وانتظروا إغارة الله .

ومن ذلك ابتدأ أمر هذا الباي في التراجع ، ووقع الكلام فيه ، وهو ذريعة للتحزب والحرب عند ذوي النفوس الزكية الابية .

ولما بلغ الوزيرَ ذلك داوى الجرح بمكاتبة الباي بأن هذا المال يدفع في ثمن المراكب الحربية التي تعيّن لانشائها بمرسيلية أبو محمد حسونة المورالي (1) ، لتحمي الثغور الاسلامية .

وقبل تمام هذه الشقوف ابتدأ مرض الباي ، ووقع في نيته قرب منيته ، فازداد حزنه ، وأقبل على قراءة دلائل الخيرات ، ولازم الصّمت .

وفي أوائل شعبان السنة 1249 (أواسط ديسمبر 1833 م.) ، احتفل الباي لعرس الوزير شاكير صاحب الطابع ، واستدعى أعيان البلاد على اختلاف أنواعهم لها (2) .

---

(1) بهامش ق توجد هذه الزيادة بخط مغاير : « فى جمادى الاولى سنة 1249 ، توجه السيد حسونة المورالى ورديان باشا ، الى مرسيليا لانشاء فرقاطة وكرويطتين كان المصروف عليها ريالات (2.036.622) ، ورجع فى صفر سنة 1251 ، واخذ عند سفره احسانا قدره ريالات 3000 ، وعند ايابه ثلاثة آلاف ايضا دون مرتبه الشهرى ، وقدره خمسون ريالا . وكان تفصيل المصروف يدفع على يد جوزابين باش قزق . وفى التاريخ قدم مع المذكور اعلاه مهندس فرنساوى لاختبار حال البوغاز ، واخذ احسانا قدره ريالات 2000 » .

(2) بياض فى خ و ع و ق .

موكب مشهود ، وأسكنه بداره أمام بيته . وبعده أوْلَمَ لابنه أبي عبد الله محمد باي على زوجه الثانية ، ابنة شيخنا أبي عبد الله محمد بيرم ، بأقلّ من الاول .

وفي شوال من السنة 1249 (فيفري — مارس 1834 م.) ، احتيج الى أعمدة لشدّ شقف كان يصنع بالترسخانة ، فظهر للوزير أن ذلك يكون من السرول (1) النابت بسواني (2) مرناق ، اذ لا حاجة به الا لتحسين المنظر ، فأمر بقلعه وهو مملوك لاربابه في أرضهم ، وأخذه بلا ثمن . وجُذب هذا المركب للبحر بعد موت الباي .

وفي الثاني والعشرين من صفر سنة خمسين ومائتين وألف 1250 (الاثنين 30 جوان 1834م)، توجه أبو النجاة سليم ، أمير آلاي العسكر النظامي بقشلة الحاضرة ، في شقف حربي الى طرابلس . وسببه ما وقع في بيت قرمانلي من قيام الاخوين على عمّهما أبي المحاسن يوسف باشا قرمانلي ، واستولوا على المِنْشِيَّة ، وانحجر عمهم في المدينة محصورا ، فاستنجد البايَ بمكتوب محصّله : « ان اقامة بيتنا كان على يد بيتكم ، ولكم علينا منّة وفضل ، والآن تداعى ذلك البناء ، فالمطلوب من فضلكم تلافيه قبل أن يخرّ ، بما يظهر لكم من الاعانة » . وجمع الباي رجال دولته لذلك ، فاشار عليه أبو الربيع سليمان كاهية ، وأبو عبد الله محمد كاهية وغيرهما ، بأن هذا الامر يجب الاعتناء به قبل أن يتفاقم الحال ، ويلزَم الدولةَ العليةَ العثمانيةَ اطفاءُ نار الفتنة في الاسلام ، وربما يسري الفساد من طرابلس الى الاعراض بسهولة . وعارضهم الوزير شاكير صاحب الطابع بأن دولتنا والحالة هذه في ضيق ، ولا نضايق أنفسنا ليتّسع غيرنا ، الى غير ذلك ، حتى قال بعض حسّاده من أكْفَائه : « انه لا يتأتى له السفر بنفسه ، لخدمته المانعة له ، ويخشى إن سافر غيره ربما يكون له بذلك شفوف (3) ووجاهة » ، وربك أعلم بما تكنُّ صدورهم وما يعلنون . وتمّ رأيه ، وغضّ الباي الطرف [عن هذا المطلب] (4) . ثم ان حصر المدينة اقتضى أن كل ما يرد اليها من صغار المراكب تأخذه جماعة المنشية . فأخذوا مركبا للجرابة (5) بما فيه ، فرفعوا شكايتهم للباي ، فوجّه الامير

(1) السرول : شجر السرو (دوزى) .
(2) سانية ج سوان : حديقة — بستان (دوزى) .
(3) الشفوف : التفوق (دوزى) .
(4) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(5) الجرابة : سكان جزيرة جربة ، مفرده جربى .

آلاي سليم الى الباشا بطرابلس ، لانه لا يعرف حاكما بطرابلس وعملها غيرّه ، وان عجز يتوجه الى أبناء أخيه بالمنشية ، فان ردّوا ما أخذوه والا آذنهم بحرب . فتوجه وأجابه يوسف باشا بالعجز وأنه ينتظر الاعانة من تونس ، فتوجه الى المنشية وطلب من أبناء أخيه ردّ ما أخذوه ، وأن الباي بتونس لا يعرف الا صاحب مدينة طرابلس ، ولا يعرف الثوار ، وله أن يعين الباشا على الثائرين ، فامتثلوا وردّوا ما أخذوه ، والتزموا أن لا يتعرضوا لشقوف تونس . ورجع السفير بمطلب الباي ، وتردد [الكاتب] (1) ديوان أفندي من طرف قبطان باشا بين طرابلس واسلامبول وتونس ، لحسم موادّ الفساد بطرابلس .

وفي جمادى الثانية من السنة 1250 (اكتوبر 1834 م.) ، ورد للباي مكتوب من أولاد قرمانلي وكافّة أهل المنشية ، شاكين من علي باي بن يوسف باشا قرمانلي ، لان أباه خلع نفسه وقدّمه للولاية ، وهم لا يحبونه وانما يحبون أبناء أخيه الذين معهم بالمنشية ، وطلبوا من الباي إنهاء حالهم الى الدولة العلية العثمانية ، وان الفتنة أبادت قواهم وشتّتت شملهم ، فاقتضى نظر الباي أن وجّهني بالمكتوب الى أهل المجلس الشرعي ، بعد أخذ نسخة منه . فاجتمعوا بدار شيخ الفتوى أبي عبد الله محمد بن محمد بن محمد بيرم ، وقابلوا النسخة علَيَّ بأصلها ، وصحّحوا (2) بخطوطهم ، وكتبوا ما بلغهم بالتواتر عن حال طرابلس من الفتنة . وكان ذلك في الحادي عشر من رجب السنة 1250 (الخميس 13 نوفمبر 1834 م.) . وبعث المكاتيب الى الدولة العلية مع ديوان أفندي .

وكان الوزير يؤمل من ذلك أن الدولة العثمانية تضيف طرابلس الى مملكة تونس .

ودامت الفتن في طرابلس نحو العامين ، حتى منّ الله عليها بالفرج بعد الشدة ، واستوفت دولة آل قرمانلي ما قُدِّر لها من المدة . وسيأتي مزيد بيان لذلك .

ومن مآثر هذا الباي تجديد برج المنستير ، وقشلة العسكر النظامي بالمركاض البديعة الشكل ، وكانت مصلىًّ للاستسقاء على عهد أبي زكرياء الحفصي ، سنة سبع وعشرين وستمائة ، وبناءات حمام الانف وأتمها سنة 1244 ، أربع وأربعين (1828/29م.) ومعصرة القصبة لعصر تفل الزيتون الذي كان يطرح لوقد النار ، وأبنية ضخمة بباردو ،

(1) « ساقطة » من غ ، مثبتة في ع و ق .

(2) صحح : امضى ، وقع .

ودار البارود بالقصبة ، ومنع الناس من صنعه بحيث لا يشترى الا من المحل الذي عيّنه لبيعه ، اتقاءً لضرره .

وله اعتقاد في الولي سيدي عبّاد الزيات الكائن ضريحه قرب سيدي عبد الرحمان المناطقي ، بنى عليه قبّة وزاوية تمّت في ربيع الانور سنة 1248 ، ثمان وأربعين (أوت 1832 م.) ، وكان يأتي لزيارته .

وهذا الولي هو أبو هلال عبّاد بن مخلوف التميمي الزيات ، المتوفّى خامس ربيع الاول سنة 650 ، خمسين وستمائة (1252 م.) ، على عهد السلطان أبي عبد الله محمد المستنصر ابن أبي زكرياء الحفصي .

والقنطرة العظمى على وادي مجردة ، بطريق بنزرت ، أشرف على اكمالها ، وأتمّها ابنه . وأبنية بمقام السيدة المنّوبيّة . وزاوية سيدي البشير ، خارج باب الجزيرة ، ومسجدها وغير ذلك . وضايقه الاجل عن إتمام برج المنّوبية .

حال هذا الباي

كان رحمه الله نيّر السعد ، سليم الصدر ، يغلب على طبعه الجدُّ ، والمؤمن غرٌّ كريم ، من الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيّئا ، مؤثرا للطريقة الجادة لا يتلوّن بلون الوقت ، متين الدين ، محافظا على الصلوات في أوقاتها والاذكار ، ونيّة المؤمن خير من عمله ، يميل الى الخير بطبعه ، آية الله في الوفاء والحنان والشفقة ، اذا نظر الى مصاب بكى ، قنوعا بما أعطاه الله ، غير متشوف الى ما ليس في وسعه ، بعيدا عن الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، ليّن العريكة ، حليما صبورا ، نازعا الى أخلاق التوكل والتسليم الى الله ، تؤثّر فيه الموعظة ، معظما للأولياء والعلماء ، غافلا عن عيوب الناس ، يشدّد النكير اذا ذكر أحد في مجلسه بعيب ، ويقول لو اشتغلنا بعيوب أنفسنا لم نجد وقتا لذكر عيوب غيرنا ، قوي البدن مع شجاعة مشهورة ، لو تعلّم شيئا من العلم ، مع ما في طبعه من أخلاق الكمال ، ما جاراه أحد من آله . يحب الخير والعافية والهناء للمسلمين . اقتاد بطبعه محبّات القلوب من عامة المملكة وخاصّتها ، ينسبون السيئة لوزيره والحسنة له ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ولم تزل المملكة في أيامه ،مع ما طرقها من النقص ، باسمة الثغور ، تجرّ ذيول العافية والسرور ، الى أن طرقه المرض في شعبان السنة 1250 (ديسمبر 1834 م.) وهو بحمّام الانف ، بذات الجنب ، مع ما كان عنده من مرض حمّى الدّق الموروث من جدّه . وتأثّم من الفطر في رمضان ، والاطباء ينكرون عليه ويقولون لرجال دولته ان سيدكم قاتل نفسه لانه يرى أن قوة البنية مانعة من الفطر ، وما درى أن الصوم مثير للحمّى المهلكة ، ودين الله يسر ، الى أن أفتاه أهل العلم بوجوب الفطر ، وأن صومه والحالة هذه كفطر الصحيح ، [حرام واعراض عن رخصة الله] (1) .

ورجع الى باردو ، ثم ظهرت فيه مخايل عافية ، وفرحت البلاد وتزيّنت واهتزت وَرَبَتْ ، وبشكر الله أعربت . ورام منع ذلك فقال له وزراؤه : « لا تقطع سرورا على أهل بلدك » ، فقال : « جزاهم الله خيرا ، لكنّني أعلم أني أموت بهذا المرض » .

وكنت أسلّيه في مرضه بما يناسب حال المريض ، وإنْ حَالَ الجريضُ دون القريض .

وبعث الى مشاهد الصالحين بالقيروان بالصدقات والطّيب والصناجق وغير ذلك ، وسرّح المسجونين من أهلها ، وان كانت كرامة الخوف دائرة ، وكرامة العدل متكاثرة .

نظر الي يوما وبكى وقال : « لا يغرنّكم اني أمشي على قدميّ ، فاني أرى أني أموت من حيث لا تشعرون » . وكان كذلك . فلازم الفراش أياما قليلة ، وتدخل له الاعيان من رجال دولته كل صباح فيخبر عن حال ليلته ، الى أن دخلنا عليه صبيحة يوم الاربعاء الثالث والعشرين (2) من محرم سنة 1251 ، احدى وخمسين (20 ماي 1835م) فوجدناه متكئا يحادث أخاه ، وأخبر عن حاله وسأل عن أشياء ، وخرجنا وخرج أخوه الى داره ، وجلسنا في سقيفته ، وصهره ووزيره شاكير صاحب الطابع معه ، فلم يَرُعْنا الا باكية نعيه ، فقدم أخوه فوجد نفسه المطمئنة ، راحت ان شاء الله رَوْحَ الجَنّة ، رحمه الله .

ودفن من الغد حذو أبيه بالتربة .

وفي يوم وفاته طلبت الناس أخاه للبيعة .

(1) الزيادة من ق .

(2) هو 22 حسب التقويم .

الباب الخامس

في دولة

الباشا أبي النخبة مصطفى باي

ابن محمود باي بن محمد باي بن حسين باي بن علي

مولد هذا الباي في شوّال من السنة الاولى بعد المائتين وألف (جويلية — أوت 1787 م) وأمه بنت علي باي المتقدم ذكرها .

بويع البيعة الخاصة ضحى يوم الاربعاء الثالث والعشرين (1) من محرم ، فاتح شهور سنة احدى وخمسين ومائتين وألف 1251 (20 ماي 1835 م.) ، بصحن البرج على الكرسي المعدّ لذلك .

وأول من بايعه الوزير أبو الربيع سليمان كاهية ، ثم الوزير شاكير صاحب الطابع ، ثم ابن أخيه ، وغيرهم من رجال الدولة .

ولما تمّت البيعة قال للحاضرين : « ان هذا الملك لم نأخذه بحرب ، وانما اقتضى نظركم تقديمي ، وأحسب نفسي نائبا عن أخي ، وخدمتكم له خدمة لمجموع دارنا ، فهي محسوبة عندي . وكل من له أمل يستحقّه من أخي فعلي وفاؤه . وليس في قلبي حقد على أحد ، ولا أقصد بضُرّ الا من قصدني بمضرة ، فاني أدفعها بما استطعت » . ثم اختنقته الغصة وسالت دموعه وزهق بالبكاء ، ورأيت بعيني في ذلك المشهد معنى حنان الاخوة . وقال : « والله ان ملك الدنيا عندي لا يوازي فراق أخي » .

ومن الغد بويع البيعة العامة [من العلماء والجند وقادة العسكر وأعيان الحاضرة] (2) على العادة ، وأقر الوزراء ورجال الدولة على مراتبهم وأعمالهم ، وفسح لهم في آمالهم ، بحيث لم تفقد الدولة الا شخص أخيه .

وأتته وفود البيعة من البلدان والعربان .

وقدّم ابنه أبا العباس أحمد باي للسفر بالمحالّ ، فسافر صيفا وشتاء .

ثم قدم ابن أخيه أبا عبد الله محمد باي ، جبرا لخاطره . وبالغ في الحنوّ على أولاد أخيه بحيث يزورهم كل يوم ويتفقدهم فردا فردا ، وهو الذي رقّى أكبر أولاد أخيه من حال الاطفال الى حال الرجال ، وأحضره على صغره في مجالس المشورة والرأي .

اتفق أن الوزير شاكير صاحب الطابع أتاه ليكلمه في أمر ، فقال لابن أخيه وقد كان واقفا بين يديه : « سامحني يا سيدي ، أريد أن أكلم سيدنا » ، فقال له

(1) هو 22 كما تقدم .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

الباي : « إن سامح هو فانـي لا أسامح في حقـي منه ، وأي سرٍّ نخفيه على ابن أخـي الذي هو الآن أعزُّ علي من ولد صلبـي ؟ وبأي شـيء يتربّى اذا لم يحضر لمشاهدة أحـوالي ؟ » ، فخجـل الـوزير .

وفي شهر ولايته قدم القبطان أبو محمد حسونة المورالي من مرسيلية بالشقوف التـي أُمـر بانشائها من مال القيروان ، [وتذكـر الباي بقدومه أخاه ، وتجددت أحزانه] (1) ، ومعه مكـتوب من وزير الدولة الفرنساوية مضمونه أن الدولة أسقطت القمرق على اخراج آلات الشقوف المذكـورة ، اعظاما لجناب الباي ، فأجاب بالشكـر على ذلك . وبَـلِيَتْ هذه الشقوف في قليـل من الـزمن .

وفي طبـع هذا الباي حبُّ التصرف المقيّد بقانون شرعـي أو عقلي ، وذلك أنه افتتح أمره باعادة المجلس الشرعي بحضرته يوم الاحد على العادة السابقة . وله فطنة يشارك بها أهل العلم ، ويفهم تطبيق الحـكـم الشرعـي على النازلة .

وقدّم لخطة القضاء بالمذهب الحنفـي شيخنا العلاّمة المحقّق أبا عبد الله محمد ، ابن العلامة [المفتـي] (2) أبـي العباس أحمـد بن الخوجـة . وقـدّم لخطة الفتوى الفقيـه أبا الحسن علي الدرويش .

وفي السابـع عشر من أشرف الربيعين من السنة 1251 (3) (الاثنين 13 جـويليـة 1835 م.) ، بعث الوزير شاكـير صاحب الطابـع الى الدولة العلية العثمانية لطلب الفرمان والتشريف السلطانـي على العادة ، ومعه أبو النخبة مصطفى آغة ، ونور الله باش خـوجة المحكمة ، وأبو العباس أحمد آغة وغيرهم ، وذلك على عهد السلطان محمود خان . ولما وصل وجد طاهر باشا الذي قدم الى تونس ومنـع من النزول الى البر باشارته ، هو قبطان باشا ومن أعظم الوزراء ، فقابله بجفوة ناشئة عمّا يجد عليه ، وتعلل عليه باشتراط أمور لا اذن له في شيء منها ، فامتنع من القبول اذ لم يـكـن بيده ما يقتضـي التفويض ،

---

(1) ما بـين القوسـين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

(2) ما بـين القوسـين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

(3) فى هامش ق ، وبخط مغـاير ما نصه : « وفى هاتـه المـدة ، بنيت قبة الهـواء بالعبدلية (المرسى) على يـد مسيو ماتيو دولسبس ، وطلب ابنه جول عن ذلك ريـالات 3700 ، وصولـح بالفـين بمقتضى مكتوب مؤرخ فى 7 يولية 1835 (الثلاثاء 11 ربيع الاول 1251) وتوصيل فى 15 منه .

وغاية ما عنده أنه يبلّغ الهدية ويطلب الفضل فيما جرت به العادة من اظهار العناية السلطانية ، فقال له طاهر باشا : « ان الولاية موقوفة على ذلك » ، فقال له شاكير : « ان مصطفى باي تركته بتونس قاعدا مقعد أخيه ، وفي أعناق المسلمين بيعته ، وقلوب المملكة ملتفّة عليه ، فان أردتم وصل حبل المسلمين فأَجْرُونا على عادتنا ، والا فافعلوا ما بدا لكم » . وبعد ذلك أجيب لمطلبه على العادة المألوفة والحالة المعروفة . وفي مدة اقامته باسلامبول وقع منه للفقيه (1) نور الله خوجة ما اقتضى أنه سلم في خطته ولم يرجع .

ثم قدم شاكير بالعناية العثمانية ، فوصل حلق الوادي صباح الثالث من شعبان السنة 1251 (الثلاثاء 24 نوفمبر 1835 م.) ، وأتاه الباي وهو بالكرنيتنة ، ولمّا تمّ زمنها خرج لتلقّيه أعيان الدولة ووجوه الجند .

وأتى بنيشان وسيف للباي ، وتفضلت الدولة عليه بنيشان أمير آلاي ، ونيشان قايمقام لرفيقه أبي النخبة مصطفى آغة .

ولبس الباي النيشان في موكب حافل على العادة ، [حضره الداي وأهل المجلس الشرعي وأعيان العسكر والبلاد] (2) ، وذلك يوم الاحد الثالث والعشرين (3) من شعبان (13 ديسمبر 1835 م.) .

وجاءت معه جماعة استوجبوا النفي لجرائم ، فطلب منه قبطان باشا حملهم الى تونس في مركب عثماني ، وبعد أيام قليلة طلبوا التسريح ، فاستراحوا واستريح منهم .

ولما قدم الوزير شاكير أتى برسالة على لسانه من الدولة العلية أمر بتبليغها للباي ، ومضمونها توظيف شيء من المال على مملكة تونس في كل سنة . فبلّغ الرسالة وجمع الباي ابنه وابن أخيه وشيخ الدولة أبا الربيع سليمان كاهية ووزيره أبا النخبة مصطفى صاحب الطابع وغيرهم ، وكنت ممن شهد ذلك ، وقال للوزير شاكير : « أَعِد على الجماعة رسالتك » ، فأعادها ، غير جانح لموافقة ولا مخالفة ، فقال له سليمان كاهية : « ما ظهر لسيادتك ؟ » ، فقال له : « الرأي عندي الموافقة ، لتقوية التحام المسلمين ، وندفع

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : للكاتب .
(2) الزيادة عن ع و ق .
(3) هو 22 حسب التقويم .

للدولة في كل عام مالا يضرنا [وهو أخفُّ من هذه الهدايا] (1) » . وكان حريصا على التحام المسلمين ، لم يحجب بصيرته حجاب الاعجاب عن حقيقة قدره ، فتقدم اليه ابنه وقال له : « لا يكون هذا ولا ترضى به المملكة ، وان سمحت نفسك بذلك فلا تتسبب لوهن في آل بيتك » ، فوافقه جميع من حضر ، فعند ذلك قال للجماعة : « اني عرضت ما لاح في فكري ، وحيث توقعتم الضرر فلا أكون بحول الله سببا في مضرة ». وكاتب الدولة متلطفا معتذرا بأن المملكة فقيرة ، تستمطر فضل الدولة العلية عند الحاجة ، وأكثر أهل المملكة عربان لا تسمح نفوسهم بذلك ، الى غير ذلك . وكان المكتوب باللغة التركية . وهذا أول ما وقع في هذا المطلب من الكلام .

وفي هذه الايام ورد عليه مكتوب الشريف مولانا عبد الرحمان ابن مولانا هشام ابن مولانا محمد سلطان المغرب ، في غرض التعزية والهناء ، ونصّه :

« المقام الذي قلّدته السياسة عِقْدَها ، وأعطته السعادة عهدها ، وخفقت عليه ألوية النصر والتمكين ، والجلال الذي زاحم الكواكب بالمناكب ، وحمى بالقواضي القواضب ، حوزة الاسلام والمسلمين ، مقام محبنا الصدر الرئيس الشهير ، والفرد الذي عزَّ له النظير ، ومن اذا رفعت راية لمجد تلقاها باليمين ، مَن رفع رايات السباق ، على أعلام الآفاق ، فأصبح كل سَرِيٍّ لاعلامها مونس ، أبو المكارم السيد مصطفى باشا باي اقليم تونس ، وباسط العدل والتأمين ، وَصَلَ اللهُ علاء قدره ، وخص بالسعود كامل بدره ، وأمدَّه باسمه القوي المعين . أما بعد سلام تام ، شامل عام ، ينتظم في جيد الايام سلكا ، ويفوح شذاه على الدوام مسكا ، وتحية تود الدَّراري الزُّهر أن تكونَها ، تعمُّ حركة الجسوم وسكونها ، فانه وافى حضرتنا الشريفة كتابكم بخبر المصاب الذي عظم على النفوس موقِعُه ، وأبكى القلوب موجِعُه ، وهو وفاة أخيكم الصفيِّ ، وصنو مجدكم الوفي ، السيد حسين باشا باي ، جدَّد الله عليه سحائب رُحْمَاه ، وجعل الجنان مأواه ، وجعلكم منه علم هدى يهتدي به الاعلام ، ويشدُّ بولايتكم عضد الاسلام . فياله من حادث كدَّر الشِّرب ، وروَّع السِّرب ، لولا ما تدارك الله به من خلافتكم ، وجدد من رفعتكم وإنافَتِكم . وياله من فقيد شكت فقده العلياء ، وبكته الخاصة والدَّهماء . فانا لله وانا اليه راجعون ، تسليما لما قدَّر وقضى ، ومقابلة لمراد الله بالرضى ،

(1) الزيادة عن ع و ق .

فقد رزئنا منه صفيّا وفيّا ، وخليلا برّا حفيا ، ومحبّا كبيرا ، ومعينا على الخير وظهيرا ، فلئن سبقتنا في العزاء اليه ، فما سبقتنا في التفجّع عليه ، ولئن فزت ببرور اخائه ، فما زاحمتنا في ولائه ، وان أغمد القبر منه حدّ صارم ، فقد أحياه ما غرس من المكارم ، فما أعظمه رزءا أذلّ مصون الدموع ، وأكنّ الاشجان في منحنى الضلوع ، لكن لم يَتّسِعْ معه الا التسليم ، لما قضاه الحكيم العليم ، ومثلكم ثبّت الله فؤادكم ، وخفّف ما آدكم ، يستمسك بحبل الله الاقوى ، ويسلك في احتساب الاجر باحتمال الصبر مسلك أهل التقوى ، ويتلقّى الحوادث بجُنّة الرضاء ، ويلبس جلباب السكون تحت مجاري القضاء ، ويرفع راية التفويض أيّةً سلك ، ويعلم أن لله ما أخذ وله ما ترك ، ويتيقّن أن هذه الدار ، محل الاقذاء والاكدار ، اقبالها غرور ، وزهرتها زور ، ووصالها هجر ، ووفاؤها غدر ، تسحر بزبرجها وتغرّ ، وتفجع بما به تسرّ ، فنعيمها بوس ، وبشرها عبوس ، وصحيحها للسّقام ، وحيّها للحمام ، ومن شاء متجلّدا ، فلينظر هل رأى حيّا مخلّدا . وفيكم ، حفظكم الله ، من أخيكم الذي سلف ، بقية خير وخلف . فقد قام الهناء بكم ، مقام العزاء لكم ، وقاوم الحزنَ لفقده ، سرورُ ما قرّرتم من ولاية عهده ، وإصفاقُ الخاص والعام على بيعتكم من بعده . فلعمري لقد أعطوا القوس باريّها ، وأنزلوا الدار بانيّها . فلئن غاب نيّر فقد طلع نيّر ذو ائتلاق ، وان صار الى الله حسين فأخوه مصطفى والحمد لله باق . ملك تردّد في عنصر فضل مبين ، وخاتم انتقل من يمين الى يمين . فلكم الهناء بطالع ملك جديد ، والبشرى بطلوع فجر سعيد . فلئن ساهمتمونا في التعزية ، فما فاتنا السرور بالتهنئة ، اذ المحبة قاضية بمساهمتكم فيما ساء وسرّ ، أحلى وأمرّ ، ومحبتنا في روض المودة راسخة الاعراق ، وآية صفائنا في فَلَك الوفاء دائمة ولاشراق ، والعهد لا يزال بحول الله جديدا ، ولا يزيده القدم الا تأكيدا ، وكيف لا وقد عقدته الاوائل عقدا محكما ، وألبسته الرعاية بُرداً مُعْلَما . والله سبحانه يديم سعودكم ، ويحرس وجودكم ، ويعينكم على ما قلّدكم ، ويعرّفكم من نصره وتأييده أضعاف ما عوّدكم . وعلى عليّ مقامكم سلام أبهى من قمر التمام ، وأذكى من مسك الختام . في 21 ربيع الثاني سنة 1251 » (الاحد 16 أوت 1835 م.) .

وبأعلى المكتوب طابع ختمه الشريف .

ولما قرأت هذا المكتوب بين يديه ، تذكّر مأتم أخيه وبكى .

وفي هذه السنة تمّت قشلة المركاض ، وكان بناؤها على يد الاجل الوجيه أبي عبد الله محمد بن علي قاسم . وكتب بعض الشعراء تاريخها باسمه ، فأنكره وقال : « معاذ الله أن أنسب لنفسي حسنة غيري » ، فأبدل باسم أخيه ، وان الاتمام وسكنى العسكر بها أيام الموجود ، كما هو على بابها . وحضر يوم دخول العسكر لها وكان أول داخل ، ودار بيوتها وهنّأ العسكر بمنزلهم .

وفي هذه السنة اشتد الحرب الاهلي في طرابلس ، وذلك أن أبا المحاسن يوسف باشا قرمانلي لما انتقلت دولته من طور الشبيبة الى طور الشيبة ، استهان بأهل المملكة ، واغترّ بظاهر الطاعة المُمْرَضة من أهلها ، وحمّلهم بمقتضى ما كان له من اطلاق التصرف من مصاريف شهواته وألوان لذّاته أكثرَ من طاقتهم ، حتى آل الامر الى فاقته وفاقتهم ، فباع من شقوفها الحربية ، وسكّ من مدافعها النحاس فلوسا ، وأرخى عنان التصرف لاصهاره وأقاربه ، الى غير ذلك مما نقم من أعماله ، وأدّى الى زواله .

يحكى أن صهره ونصيحه مصطفى قرجي ، صاحب الجامع بطرابلس ، قال له يوما : « يا سيدي ، ان سيرتك قاضية بالانحلال » (1) ، فنظر الى شيبته وقال له : « قد طاب زرعك يا مصطفى » ، اشارة الى الفتك به ، فقال له : « والله أرضى أن تقتلني وتستقيم » .

وهكذا شأن الدول في ابتداء انقراضها ، بمزمن أمراضها . وقالت الحكماء : يستدلُّ على ادبار الملك بخمسة أمور ، أحدها أن يستكفي الملك بالاحداث ومن لا خبرة له بالعواقب ، الثاني أن يقصد أهل مودّته بالاذى ، الثالث أن ينقص خراجه عن قدر مؤونة ملكه ، الرابع أن يكون تقريبه وتبعيده للهوى لا للرأي ، الخامس استهانته بنصائح العقلاء وآراء ذوي الحنكة . [وقد توفرت هذه الامور كلها] (2) . وقالوا : « أربعة ترتفع الرحمة عنهم اذا نزل بهم المكروه ، من كَذَبَ طبيبَه فيما يصف له من دائه ، ومن تعاطى مالا يستقلُّ بأعبائه ، ومن بذل ماله في لذّاته ، ومن أقدم على ما حذر من آفاته » .

ولما أمتلأ كيله ، وطما بالسوء سيله ، ثار عليه أهل المنشيّة ، لائذين بطاعة ابن أخيه أبي عبد الله محمد قرمانلي ، وحجروه في المدينة وأطالوا حصره ، فخلع نفسه ، وسلم

(1) في ع و ق : « تفاقم الامر ، وسيرتك هذه موصلة الى الهلاك لا محالة » .

(2) الزيادة عن ع و ق .

الامر لاصغر بنيه أبي الحسن علي باي ، كما تقدم في خبر مكتوبهم لابي عبد الله الباي حسين باشا ، فازدادت بذلك نفرتهم ، والتفّت عُصبتهم ، وقويت شوكتهم ، وانعدم الامان ، واختلّ العمران ، فلزم الدولة العلية ، والحالة هذه ، اطفاء نار الفتنة .

وأتى الوزير طاهر باشا في الاسطول العثماني الى طرابلس لاصلاح الامور ، فاقتلع علي باي من روض منبته الى اسلامبول . ووجه له الباي من تونس صهره وثقته أبا النخبة مصطفى آغة بهدية ، تعظيما لمقدمه . وكان ذلك أواخر شعبان (1) السنة 1251 (ديسمبر 1835 م.) ، ورجع في ذي الحجة (مارس — افريل 1836 م.) .

وطلب الوزير طاهر باشا الاعانة بالمراكب والخيل فوجّه له الباي الوزير شاكير صاحب الطابع في ثلاثة مراكب حربية — فرقاطة وكرويطة وبريك . وتوجه معه أبو النخبة مصطفى آغة ، وأبو النجاة سليم أمير آلاي ، ومعه تسعة مراكب متجرية (2) مشحونة بثلاثمائة من الخيل . وكان سفرهم يوم الجمعة السادس عشر (3) من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف (29 جويلية 1836 م.) .

وقاتل الوزير طاهر باشا أهل البغي والفساد الى أن كان بطرابلس ما كان ، ورأت عواقب اطلاق العنان ، وكما يدين الفتى يدان .

وانقرضت بيت آل قرمانلي وتفرقوا أيدي سبا . والله يؤتي الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء ، وهو على كل شيء قدير .

وهذه ثمرة ضعف الالتحام ، والتحاسد بين ذوي الارحام ، والتصرف بالشهوات ، وغض الطرف عن الغوائل والآفات ، واستعمال الشدّة في مواضع المداراة .

وفي خلال هذه المدة وقع الارجاف بتونس أن قبطان باشا يريد القدوم بأسطوله الى تونس ليلحقها بطرابلس .

وأتى في خلال ذلك الاسطول الفرنساوي وأرسى بحلق الوادي ، لما بلغه أن الاسطول العثماني يريد أن ينزل عساكره بتونس ويتوجه في البر الى الجزائر ويستنفر العربان ،

---

(1) كذا في غ ، وفي ع و ق : « اواخر شوال » .

(2) كذا في غ ، وفي ع و ق : « مراكب بالكراء » .

(3) هو 14 حسب التقويم .

فجمع هذا الباي رجال دولته وكلمهم في الارجاف الواقع بتونس ، وكان ممن يخشى الله في عباده ، وقال لهم : « قد بلغني أن قبطان باشا قادم بأسطوله الينا ، ولم ندر سبب قدومه . فان كان لحربنا فلا أرضى أن تسفك لاجلي دماء المسلمين ، ولا أحبُّ ملكا بسفك الدماء ، راضيا بحكم الله » . فقال له شيخ الدولة وكبير وزرائها أبو الربيع سليمان كاهية : « ان هذا الامر ليس بيدك ، والمملكة انما بايعتك لتحفظ حقوقها وعوائدها القديمة ، ولم تبايعك لخصوصية في ذاتك ، فان تأثّمت فقدِّم غيرك من بيتك ممن لا يتأثم بدفع التعدي ، لاننا والحالة هذه في عافية وأمن ، راضين بأميرنا ، وأي ذنب لنا يبيح الحرب في الاسلام ؟ » ، ثم التفت الى الجماعة وقال لهم : « ما تقولون ؟ » ، فأجمعوا على رأيه .

وقال له ابنه أبو العباس أحمد باي : « ان سلّمت ربما يؤول الامر الى حرب أهلي ، كما وقع بطرابلس ، والعربان لا يتحملون بطباعهم سطوة التّرك ، فلا محيص من سفك الدم » .

فعارضهم بأن التسبب في فُرقة الاسلام وَعيدُه شديد ، واستنطقني بذكر الوعيد ، فقلت له : « ان المتسبب في الفرقة هو من يحارب أمة تقرُّ لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة ، راضية بأميرها الناشئ بين أظهرهم ، ورضى الامة هو الاصل الديني في الامارة » .

وقال له ابنه : « نحذِّركم من خروج هذا الخبر ، فلو بلغ جفاة الاعراب كان سببا في هرج وحيرة » .

ولما رأى تصميم القوم سكت ، فقال له وزيره الغائص (1) على دقائق السياسة أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع : « انك لا تسمع من القوم وممّن وراءهم الا ما سمعته الآن ، والواجب والحالة هذه استعمال السياسة مع الدولة العلية حتى لا يكون سبيل للحرب في اليوم وما بعده ، ويبعد في حق الدولة وعظمة مقامها أن تقدم على سفك دماء المسلمين بغير سبب ظاهر شرعي تعتمده ، غير أن أسطول الفرنسيس في مثل هذا الوقت بمرسانا ربما يكون سببا في قول قائل ان الشقوف أتت بطلب منا ، ولا بدَّ من دفع هذا الوهم بمكتوب الى القنصل ، وهذا المكتوب ان لم ينفع فلا يضرُّ » ، فاستصوب الجماعة

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « القابض » .

رأيه ، فكاتب الباي القنصل بما لفظه : « أما بعد فان جناب الدولة الفرنساوية وجّهت أجفانها الى مرسى عمالتنا على مقتضى المحبة والمودة ، وقابلناهم باكرام لان شقوفنا في مراسي الفرنسيس كأنها في مراسي عمالتنا ، فكذلك شقوف الفرنسيس عندنا . وأمّا اقامة الاجفان في هذا الوقت بحلق الوادي ، ودونالمة (1) مولانا السلطان بقربنا ، وفيها السيد قبطان باشا ، ربما تنتج لنا مضرة في الحال أو في المستقبل من جهة الدولة العثمانية أدام الله وجودها ، لانها ربما تظن في جنابنا (2) ظنا يضرُّ بنا . ومعلوم أننا تحت طاعة مولانا السلطان في أمره ونهيه ، وباسمه نخطب في جوامعنا وعلى سكّتنا ، فلا يخطر ببالنا أننا نعصيه أو نخالف أمره أو نعارضه بشيء . فالمراد أن تعرّف الاميرال بهذه المضرة التي نتوقعها . والاعتماد على كمال عقلكم في حسن التبليغ . وشقوف الفرنسيس مهما تمرُّ بنا أو تأتي الى مرسانا فمرحبا بها ونقبلها بالاكرام على مقتضى قوانين المحبة . ولا زائد الا الخير والعافية . وكتب في 11 جمادى الثانية سنة 1252 (الجمعة 23 سبتمبر 1836 م.).

وأجاب القنصل بما نص تعريبه : « انه بلغنا ووصلنا المكتوب الذي تشرفنا به من عند السيادة ، وأعلمنا به الاميرال (3) لالند (4) ، وعلمنا جميع ما تضمّنه ، وجوابنا عليه هو ما سنذكره ، وهو أن جنابكم العليّ بريء وأجنبيّ وخارج من الاتفاق الذي اقتضاه نظر الدولة الفرنساوية في ارسال هذه الدونالمة الى سواحل تونس . وأنتم لا يمكن لكم أن تمنعوا دولة الفرنسيس من ذلك ، وهو ارسال شقوفها الى سواحل تونس . ولاجل ذلك لا يتوجه عليكم لوم ولا عتاب من جناب الدولة العثمانية ، لانه لا وجه لذلك . وجناب الدولة الفرنساوية تعلم تحقيق حالتكم مع الدولة العثمانية ، وحاشا جناب دولتنا أن ترضى بما يوجب لكم غيارا مع دولتكم ، وانما مراد الامبراطور أن تبقى جناب دولتكم مع الدولة العثمانية على العهد القديم السابق ، من غير تبديل ولا تغيير . ولكن الدولة العثمانية لا يمكن لها أن تخترع أمرا جديدا تضرُّ به مصلحة الفرنسيس في الناحية التي تحت يده في الابركة (5) . ولاجل أن يمنع ما عسى أن يقع من المضرة ، أرسل الامبراطور دونالمة

---

(1) دونالمة : من التركية دونانمه بمعنى اسطول (دوزى) .
(2) كذا فى خ و ع ، وفى ق : « جانبنا » .
(3) فى ع و ق : « الامرال » ، وفى خ : « الارمرال » .
(4) فى خ ، و ع و ق : « للندنّ » ، والمراد (L'Amiral Lalande)
(5) كذا فى خ و ع ، وفى ق كانت كذلك ثم غيرت الى « الافركة » ، وكتب فوقها : « يعنى افريقيا » .

الى تونس يمنع بها قدوم قبطان باشا لاجل التصرف بما هو مأمور به . والاميرال لمّا بلغه أن قبطان باشا أتى الى طرابلس ، وأعلم بأن مراده الاتيان الى تونس ، في ذلك الحين أرسل الاميرال جفنا من الاجفان التي تحت حكمه هنا ليعلم قبطان باشا بأن حبيب السلطان الصافي وهو سلطان الفرنسيس لا يمكن له أن يتحمّل هذا التعدي بوجه من الوجوه في المملكة التي تحت يده في الابركة ، لان قدوم دونالمة المسلمين الى تونس يتقوى بها قلب باي قسنطينة الذي عندنا معه في التاريخ مكالمة ، وربّما حرب بيننا . فلأجل ذلك نعلم قبطان باشا أنه لا يقدم ، ويرجع الى المحل الذي جاء منه . فان صمّم وعزم على القدوم ، فان الاميرال واجب عليه أن يصدّه ويمنعه بالمدافعة القهرية بالقوة . ا هـ . هذا لفظ معرِّبه الذي لا يحسن التراكيب العربية . ولما بلغ هذا الجواب للباي بعثه الى قبطان باشا بطرابلس .

وهذا القنصل اسمه شويل ، وكان شيخا حنكته التجارب ، عاقلا منصفا . وهو أول من امتنع من تقبيل يد الباي ، وذلك أنه لما قدم من دولته ، جلس الباي بالمحكمة لتلقّيه ، [وهيأ له كرسيا] (1) على العادة . ولما دخل كشف رأسه ، وخضع [بالانحناء](2) وقال للباي : « هذه تحيتي لسلطاني » ، فأغضى له الباي ، ولم يعط يده لغيره من القناصل بعدها . وقال : « تحية المسلمين السلام » . وطوى في النازلة بساط الكلام ، ولكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال ، وللعقول تضرب الامثال .

⁂

واستمرّ الوزير شاكير يتصرف في الوزارة ، واستعان بالوزير أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع ، وكان أطوع له من بنانه . ثم بدا له أن يتوجه بعياله لسكنى المحمدية وساءت ظنونه من نجابة أبي العبّاس أحمد باي ، ابن صاحب الترجمة . واستبدّ بالتصرف في الساحل والاعراض والسواسي والمثاليث ، بمقتضى ولاية عملية مخصوصة . ومدّ يده في متجر الزيت ، وكاد أن يستبدّ به كما كان . فقام التجّار على ساق ، ورفعوا أمرهم الى الباي على يد قنصلهم . واستقرّ الحال أن الدولة لا تتّجر ، أما غير الدولة

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

من أتباعها فهم مثل عامة الناس . وفي الحقيقة ان متجر هذا الوزير سببه اعانة أهل الساحل ، والتخفيف عنهم من الربا [الذي لا حدّ له] (1) ، وبيع الدّين بالدّين ، وغير ذلك مما يمحق المكاسب في شرعنا . وبائعها وان حصلت له فائدة فهي غير مقصودة .

وفي الرابع من ربيع الانور سنة 1252 ، اثنتين وخمسين (الاحد 19 جويلية 1836 م.) ، أبطل الباي وظيفة المزوار (2) ، وكان أصله النهي عن المنكر ، فآل الى الاعانة عليه . ودخله ينيف على العشرين ألف ريال في السنة . وكتبت ذلك بخطي في زمام المحكمة . وطرد متولي هذه الخطة الرذيلة ، وتقدم الكلام في شأنها . عامله الله بفضله وجزيل احسانه .

وفي السنة 1252 (1836/37 م.) ، أشار الوزير شاكير باثبات طابور في عسكر النظام من السودان المعتوقين ، واستحسن الباي هذا الرأي . وفي الحين أمر الوزير الامير آلاي سليم بتنزيل (3) ألف رجل من السودان المعتوقين . ولم يأذنه بكيفية أخذهم ، ولا بكونه في اليوم . فاخترع الأمير آلاي كيفية أنتجها فكره ، وهو أنه أتى قشلة الحاضرة وجمع العسكر وأمرهم بالدوران خلال البلاد وضواحيها ، وأن يأتوه بكلّ أسود اللون من حرٍّ ومملوك ووارقلي وحمرونـي وفزّانـي ، وأتوا ببعض الحوانب والبوّابة ، حتى أتوا بسائس مراكيب الباي . وكل من يؤتى به يوقفه الامير آلاي بالقشلة ، حتى المخازنية الذين يعرفهم قال لهم اذا سرحتكم الآن يرجعونكم . وتوجهوا الى منّوبة وغيرها ، وأتوا بساتين الباي وغيره ، وأخذوا المماليك والخدمة منها . ووقعت في البلاد هيعة غلقت بسببها كثير من الحوانيت ، حتى تمكّنوا بأنفار سمر (4) خدمة بدار قنصل الفرنسيس ، فأرسل القنصل الى الباي في الحين ، يستكشف خبر ذنبهم ، لانهم أُخذوا خارج داره . وتواردت عليه الشكايات في الحين من أرباب المماليك بباردو وأرباب البساتين فوجم ، لانه كان يظن أنه يتوقف امضاء اذنه على كيفية معقولة يعلمها قبل وقوعها . هذا ، ورسول القنصل بباب دار البآي في باردو ، فلم يسعه الا ارسال وزيره مصطفى صاحب

---

(1) ما بين القوسين ساقط من غ ، مثبت فى ع و ق .

(2) مزاور : بوليس الآداب ، من البربرية « أمزوار » بمعنى شيخ ، مقدم ، رئيس (دوزى) .

(3) تنزيل : تجنيد .

(4) فى غ : « سمر » وفى ع و ق : « وارقلية » .

الطابع في الحين الى القشلة ، لان الوزير شاكير بالمحمدية ، وأمره بتسريح من بها من السودان .

وحملني الوزير معه ، فأتى القشلة فوجد الامير آلاي على كرسي أمامها ، شامخ الانف كأنه استولى عنوة على مدينة مات في حربها أكثر جيشه ، والقشلة مملوءة بالسودان [على الارض كأنهم أسرى حرب] (1) ، والعساكر لم تزل قادمةً بهم ، جماعة بعد جماعة كالسوائم ، فقال للامير آلاي بلطف : « ما هذا الصنع ؟ » فقال له : « لا يتأتّى الجمع بغير هذه الكيفية ، ولما يجتمع من بالحاضرة من السودان ، يأتي تمييز المملوك من المعتوق » ، فقال له : « هل أحضرت لهذا العدد العشاء ؟ » فأعرض عن جوابه . وأمر بتسريح جميعهم ، وخرجوا كالحمر المستنفرة ، وغص بهم الباب .

ثم قال لعرفائهم وقوّادهم : « ان سيدنا يطلب منكم ألف وصيف (2) من المعاتيق، يصلحون للخدمة العسكرية ، فأحْصُوا عدد المعتوقين بأسمائهم واعرِضوه على حضرة سيدنا » . ورجع الى باردو وقت الغروب . وبقي الاميرَ آلاي يصوِّب غلطته ويستحسن عجلتـــه .

ومن الغد جاء الوزير شاكير من المحمدية ، وقال : « لم نأذن الامير آلاي بهذه الكيفية ، ولا أمرته بأن يكون جمعهم في يوم » . وتحدث الناس بها أياما .

وبعد ذلك ظهر للباي أن جلب العسكر على هذه الكيفية ينافيه العقل ، وان المناسب احصاء من في المملكة من الصغار القادرين على حمل السلاح ، ويطرح منهم من له مانع ، ويؤخذ القدر المحتاج اليه من الباقي بالقرعة (3) ، كما هو الشأن المعقول في بلدان الدنيا التي لا تسلّم المشيئةَ المطلقةَ الا للواحد الحكيم الخبير سبحانه .

وبدأ بالحاضرة ، فأمر مشايخ المدينة والربضين باحصاء سائر من في الحاضرة من الشبّان بأسمائهم في دفاتر ويعرضونها عليه . فجمعوا مشايخ الحومات (4) ، وشرع كلُّ واحد يقيّد من في حومته . وكان ذلك اثر هيعة السودان ، فهاج بعض ضعفاء العقول

---

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

(2) وصيف ج وصفان : زنجى ، عبد أسود ، مؤنثه وصيفة او خادم ج خدم .

(3) « بالقرعة » ساقطة من خ ، مثبتة فى ع و ق .

(4) حومة ج حومات : حارة ، حي .

[من الارباض] (1) وقالوا ان أهل الحاضرة لا يؤخذ منهم العسكر ، وأبناء الترك هم العسكر لثبوتهم في ديوان المرتّب ، وأي حاجة لكثرة العسكر الذي يزداد بهم مصرفنا ويقلُّ بهم دخلنا ، لان من يثبت في العسكر تتعطل عن البلاد منفعته ويثقل عليها نفقته ، ونحن مسلمون وكل مسلم عسكري عند الحاجة . وهذا الزّي لم يأمر الله به ولا تتوقف عليه المدافعة ، الى غير ذلك من الاقوال .

واجتمع كثير [من هؤلاء] بمقام الولي سيدي محرز بن خلف رضي الله عنه ، وشربوا من حوضه وتعاهدوا على نصر بعضهم (2) ، وشرعوا في تكثير عددهم . وكل من يوافقهم يأتون به الى مقام سيدي محرز فيشرب من بوقال مملوء بماء حوضه [وتسمّوا « جماعة البوقال »] . ثم أتَوْا ديار أهلِ المجلس الشرعي وقالوا لهم : « أنتم الامناء على ديننا وأيمتُنا في صلاتنا ، [ولكم أولاد مثلنا في هذه الحاضرة ، يجوز عليهم ما يجوز على أولادنا] ، نطلب منكم خطاب الباي على لساننا ، بأنه لا طاقة لنا على اعطاء أولادنا ، تمضي أعمارهم في السعي ، وهم ، بموضع واحد كدوابّ المطاحن [لا يؤمّلون غير ذلك ، وهم اعانتنا على المعيشة] ، كما لا نتحمّل عادة لم تجر على أوائلنا [من أوائلك ، وعسكر تونس ترك وزواوة] » . والباي في خلال ذلك يسمع (3) ، ويأتي الحاضرة ويدور بها ، فاذا مرّ بطائفة من هؤلاء يضجّون بالدعاء له بالنصر ويقولون : « أجْرِنا على عادتنا مع أسلافك » . وهو يتبسم ويدعو لهم بالهداية . (4)

ولما كثر هذا اللّغَط بعث لهم مع شيخنا القاضي أبي عبد الله محمد البحري بن عبد الستّار ، وكان مقربا عنده وسافر معه قاضيا بالمحلّة ، فبعث لافراد منهم ليتكلم معهم ويوضح لهم المقصد ، فأتوه وقالوا له : « من أراد الكلام معنا فليأت الى الجامع الاعظم ، جامع الزيتونة » ، فهمّ الباي بالمشي للجامع ، وثبّطه الوزير سليمان كاهية بأن ذلك غير مناسب ، وربما يتجرأ بذلك السفهاء على المنصب ، والمناسب أن تأذن الداي بسجن الرؤوس منهم ، ومنعِ اجتماع أمثالهم بموضع واحد . واذا سجن افراد منهم

---

(1) ما بين القوسين ساقط من غ ، مثبت في ع و ق .

(2) كذا في غ و ع و ق ، وهو تركيب عامي ، والمراد : نصر بعضهم البعض .

(3) في غ : « يسمع » ، وفي ع و ق : « يتجاهل » .

(4) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من غ ، مثبت في ع و ق .

انحلّ ربطهم ، فقال الوزير شاكير صاحب الطابع بمحضر رجال الدولة ، وكان بشهادة الله شديدا على أهل الحاضرة ، كأنه ينسبه الى جبن : « ان هذا أمر عظيم لم يُعهد مثله في هذه البلاد ، وفيه من الجسارة ما لا يخفى ، فأعطني اربعمائة من العسكر أكون بهم في دار القصبة ، ونخلّص من كافة أهل الحاضرة اضعاف ما خلصته من أهل القيروان ، سواء في ذلك المسيء لإساءته والساكت لعدم نهيه » ، فارتاع لسماع هذه المقالة [وتغير لونه] (1) ونَبَا عنها سمعه وطبعه ، وكان قويّ المحبة في أهل الحاضرة ، وقال : « أموت قبل ان يصدر هذا مني او يُتَحدّث به عني ، أعمد إلى أهل بلادي ونأخذ أموالهم مع انه يمكن التأديب بدون ذلك ؟ » . وأمرني في الحين بمكتوب للشيخ البحري القاضي يستقدمه في الحين ، واجتمع به في داره فقال له : « أخبر أهل البلاد بأنني عفوت عن هؤلاء وصفحت عن سوء أدبهم ، مع أنني لم أعرفهم » . وبعث الى مشايخ البلاد بترك التقييد وتمزيق الازمّة ، فقال له القاضي : « أحق الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة ، وأحق الناس بالجزاء اقدرهم على المثوبة » ، ودعا له ورجع الى الحاضرة . وبعث الى رؤوس هذه الجهالة وبلّغ لهم الرسالة ، فسكن منهم القلب وزال الوجل ، لكن خلفه الندم والخجل ، حتى تمنّوا حضور الاجل .

وبعد أيام أتى الحاضرة وتمشى في خلالها ، كأن لم يقع شيء من جهّالها ، والناس بالدعاء له يجأرون ، وفي بحر حنانه يسبحون ، ومن حبّه يتضلّعون . مَنْقَبَة صدع بها غريبة في الزمن ، لا تسام بمال ولا ثمن . وكان حاله في النازلة كما قال القائل في وصف معاوية بن أبي سفيان ، أول الملوك في الاسلام :

ونُغْضِبُه لِنَنْظُرَ حَالَتَيْهِ فَيُولِي جَهْلَنَا حِلْمًا وَلِينَا
نَمِيلُ عَلَى جَوَانِبِهِ كَأَنَّا نَمِيلُ إذَا نَمِيلُ عَلَى أبِينَا

وما أومأ له الوزير به من الخوف ينافيه الحال وشاهد العِيَان ، لانه سافر بالمحلّة الى جبل باجة ، كما تقدم في خبر علي بن مصطفى ، واقتحم أوعاره ، وساقه الى جادّة الطاعة قهرا ، وظهر من صبره وثباته ما تحدث به أهل الجبل وغيرهم .

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

وفي شعبان من السنة 1252 (نوفمبر — ديسمبر 1836 م.) ختم شيخ الشيوخ العلامة أبو اسحاق ابراهيم الرياحي تفسير القاضي البيضاوي بجامع صاحب الطابع ، وأبدع ما شاء ، رضي الله عنه ، في ذلك الختم . وحضر الباي في الدرس يوم الختم ، ومعه وزراؤه وخاصته ، وجلس حذو الشيخ كآحاد الطلبة .

وفي رمضان من السنة 1252 (ديسمبر 1836 — جانفي 1837 م.) ، وقع من بعض أهل مالطة القاطنين بتونس هرج كاد أن يفضي الى سفك دماء ، لولا لطف الله ، فكاتب الباي قنصل الانقليز بنفي المالطية من الايالة ، فأتاه القنصل ، وهو سارطوماس ريذ (1) وكانت فيه شدة عسكرية ، بعين المكتوب ، وقال له : « ان النفي عقوبة ، والعقوبة لا تحق الا لمن جنى او قويت عليه التهمة . وكيف يسوغ نفي البريء مع المجرم ، الا اذا اردت حربا مع برطانيا » ، فاسترجع منه المكتوب للتأمل في النازلة ، وآل الامر بعد المكالمة الى أن ارباب الصنائع والحرف لا يُتَعَرَّض لهم الا اذا صدر منهم ذنب وتعدٍّ ، ومن لا صناعة له تتسرّى له التهمة ، اذا طَلَبَ حكمُ المملكة إخراجَه فلا مانع . وان كان اهل مالطة الآن كأهل البلاد ، بسياسة القنصل في التاريخ وهو ريشارد هود (2) ، لانه من افراد الرجال في محبة الحق .

وفي هذه السنة 1252 (1836/37 م.) ، تاقت روح الباي الى أداء فريضة الحج وزيارة المصطفى الشفيع صلوات الله عليه ، وتعذر عليه ذلك ورأى نفسه غير مستطيع . وفي المذهب الحنفي جواز النيابة في ذلك ، ويحصل الثواب لفاعله . فعند ذلك أناب عالمَ العصر وتقيَّ هذا المصر ، شيخنا ابا اسحاق ابراهيم الرياحي ، وقام بسائر ضروريات سفره ذهابا وايابا من ماله الخاص (3) ، وتحرّى في ذلك . وأركبه الفرقاطة الحسينية ، وأمرني أن أكتب على لسانه مكتوبا يحمله الشيخ معه ويلقيه بالروضة النبوية المشرّفة ،

---

(1) Sir Thomas Reade

(2) Richard Wood

(3) بهامش ق وبخط مغاير بوجد هذا التعليق : « قوله وقام بسائر لوازمه ذهابا وايابا من ماله الخاص به وتحرى الحلال الى آخر ما تكرر ذكره في هذا المعنى ، بلا مستند . على أن مصاريف هؤلاء الامراء كلها جليلها وحقيرها خارجة من خزينة الدولة ، حتى انك تجد بها حتى تفاصيل نفقات المطبخة كل يوم ، وتجد مصاريف الانكحة من الصداق وتفاصيل التشوير الى ما يعطى للحنانة بتفصيل كراتسه ، والعشاقة ، والمبشرة ، وما أشبه ذلك . وفي هذه الوجهة أعطى للشيخ عشرة آلاف ريال من خزينة الدولة مع احسانات أخرى لداره . ثم وجد مقيدا بدفتر مصاريف الدولة عدد 823 ريالات 10.000 لتجهيز سيدى ابراهيم الرياحي لسفره للحج في محرم 1253 ، وريالات 14.000 » ثمن دار له ، في شعبان 1254 » .

ونصه : « الى حضرة عين الرحمة ، وشفيع الامة ، امام ملائكة السماء ، وآدمُ بين الطين والماء ، صاحب اللواء المنشور ، في يوم النُّشور ، والمؤتمَن على سرّ الكتاب المسطور ، ومُخرِج الناس من الظلمات الى النور ، نكتة العالم وفائدة الاكوان ، والمتقدم بفضل السابقة وإن تأخر بالزمان ، وحجة الله المؤيَّدة بالبرهان ، وخاتم النبيين وناسخ الاديان ، المحرز من شأن الكمال وكمال الشان ، ما لا يأخذه التقدير ولا يحصره الحسبان ، صاحب المعجزات الثابتة بالمشاهدة والحسّ ، لدى الجنّ والإنس ، من جماد يتكلّم ، وجذع لفراقه يتألم ، وقمر له ينشقّ ، وشجر يشهد ان ما جاء به هو الحقّ ، وهلمّ جرًّا مما تواتر ذكره ، وفاح على الاعصار نشره ، المخصوص بمناقب الكمال وكمال المناقب ، المسمّى بالحاشر العاقب ، امام المسلمين ، وملاذ الخلق أجمعين ، أبو القاسم ، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، رسول الله الى كافّة الخلق ، وغمَامُ الرحمة الصادقُ البَرق ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه النجومِ الزُّهْرِ ، صلاة تتأرج عن شذا الزّهر ، وتتردد بين السرّ والجهر ، وتستغرق ساعات اليوم وأيام الشهر ، وتدوم بدوام الدّهر . من عبدِ طاعتِه ، وعتيق شفاعته ، لاثِم تُربِه ، ومؤمِّلِ قُربه ، ورَهينِ حبّه ، المتوسِّل به الى رضى ربّه ، مصطفى بن محمود بن محمد بن حسين بن علي ، جعلهم الله من أهل شفاعتك ، ولا حرمهم أجر محبتك وطاعتك ، القائم بمصالح أمتك في قطر تونس بجهد الاستطاعة ، والباذل وسعه في حفظ ملّتك من الإضاعة ، وهذه الحال ، هي العائقة عن شَدّ الرِّحال . كتبته يا رسول الله ، وقد اصفرّ من الخجل وجهُ يَرَاعي ، وعقم ميلاد إنشائي واختراعي ، عن قلب بالبعد قريح ، وجفن بالبكاء جريح ، وتأوُّهٍ عن تبريح ، كلّما هبَّ من أرضك نسيم ريح ، وانكسارٍ ليس له الا جبرُك ، واغترابٍ لا يؤنسه الا قربك . وما أسعدَ من أفاض من حرم الله الى حرمك ، وأصبح بعد أداء فريضة الله ضيفَ كرمك ، وعفّر الخدّ في معاهدك ومعاهد أسرّتك ، وتردد بين داريْ بعثتك وهجْرتك ، وقد عاقني يا رسول الله عن زيارة حضرتك ، ما تراه من خدمتي في مصالح جمٍّ من أمّتك ، وان كانت هذه المعذِرَةُ غير مرعية ، وان لم يكن لي عمل مرضِيٌّ فلي نيةٌ ، وعبدك بهذا القطر في طائفة من أمتك وطّنوا على الصبر نفوسهم ، وجعلوا التوكّلَ على الله والتوسُّل بجاهك لبُوسهم ، ورفعوا الى الاستنصار بك رؤوسهم ، ينتقلون في هذا الزمان من شدة الى أخرى ، ويرومون وهم الفئة القليلة دفاعَ مثل جموع

قيصر وكسرى ، وأنت ترى يا رسول الله قلادةَ الاسلام بانَ انتثارُها ، والملّة كادت ان تُهتَك أستارُها ، إلا أن الاسلام بهذه الجهة المستمسكة بحبل الله وحبلك ، المهتدية ما استطاعت بأدلة سُبُلِك ، سالم من افتراق ، ودم يُراق . وكتابي هذا يطير من الشوق اليك بجناحٍ خافق ، ويَسْعَد من نيّتي برفيق موافق ، يؤدي عن عبدك أفضلَ الصلوات ، وأكملَ التسليمات ، ويقول يا غياث الامة ، وغمام الرحمة ، ارحم غربتي وانقطاعي ، وتغمَّد بطَوْلك قِصَر باعي ، وقابل بالقبول نيابتي ، وعجّل بالرضى إجابتي . وهذا عالم امتك في هذا المصر ، وشيخ اهل العصر ، الشيخ ابراهيم الرياحي أنبَتْهُ يَحج البيت عنّي ، ويحمل لروضتك هذا المكتوب منّي ، وأنت قلت الاعمالُ بالنيات ، والله المطّلع على الخفيّات . ووافق سفره إثر ختمه لتفسير كلام الله معجزتك ، وكان يومه مشهودَ الجمعِ من أمّتك ، ورَجَوْنا أن كنتَ حاضرا معنا في ذلك المكان ، وان لم يشاهدْ جمالَك العيان ، وبعثنا معه حقوق اهل الحرمين المرعية ، من تونس المحمية ، ورسول الله خبير ، باسباب التأخير .

اللهم يا من جعلتَه اول الأنبياء بالمعنى وآخرَهم بالصورة ، وجعلتني من أمّته المجبولة على حبّه المفطورة ، وشوّقتني الى معاهده المبرورة ، ووكّلت لساني بالصلاة عليه ، وقلبي بالحنين اليه ، فلاتقطع عنه أسبابي ، ولا تَحرِمني في حبّه أجرَ ثوابي ، وتَدارَكْني بشفاعته يوم اخذ كتابي .

هذه يا رسول الله وسيلة مَن بعدت دارُه ، وشطّ مزارُه ، ولم يُجعَل بيده اختيارُه ، فان لم تكن للقبول أهلاً فأنت للاغضاء أهل ، وان كانت ناقصة فجنابك للقاصدين سهل . فلا تَنْسَني وأهلَ وطني من أمّتك ، المتمسكين بشريعتك وسنّتك ، فنحن بهذه الجهة وديعة تحت أقفالك ، نعوذ بوجه ربك من اغفالك ، ونستنشق من ريح عنايتك نفحة ، ونترقب من محيّا قبولك لمحة ، ندافع بجاهك ما لا نطيق ، ونعالج بعنايتك سقيمَ أمرنا فيُفيق . فأجِرْنا ممن نَاوَأنا أو طغى علينا وبغى ، ولا تُنله فينا ما ابتغى . ولا تفردنا ولا تُهمِلنا ، وناد ربّك فينا ربّنا لا تُحمّلنا . وطوائف أمتك حيث كانوا عنايتُك تكفيهم ، والله يقول لك وقوله الحق : « وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم » . والصلاة والسلام عليك وعلى ضجيعيك وصديقيك وحبيبيك ، ورفيقك خليفتك في أمتك ، وفاروقك المستخلف بعده على اهل ملّتك ، وعلى صهرك ذي النورين المخصوص ببرك وتِجِلّتك ،

وابن عمك ، وباب مدينة علمك ، سيفك المسلول وبدر سماء أهلّتك . من تونس حاطها الله بعنايتك ووقاها ، وحفظ بها كلمة الاسلام وأبقاها . في اواخر شعبان 1252 ».

وسافرت الفرقاطة بالشيخ والحجاج وامانة الحرمين ثاني رمضان السنة (الاحد 11 ديسمبر 1836 م.) ، وانتظرته الفرقاطة بالاسكندرية حتى رجع بها في الثالث عشر من رجب سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف (الجمعة 13 اكتوبر 1837 م.) ، بعد وفاة منوبه بثلاثة أيام .

وكان سفر الشيخ إثر وحشة وقعت بينه وبين تلميذه القاضي شيخنا أبي عبد الله محمد البحري بن عبد الستار .

وذلك أنهما اختلفا في يتيم تزوجت أمّه فانتقل الحق في حضانته الى جدّته من الامّ . وقضى به القاضي بناءً على المشهور في المذهب ، وطلب عمّه ان يكون الابن في حضانته ، والتزم بالنفقة عليه من ماله الى ان يبلغ الاشُدّ ويأخذ إرثه من أبيه [كاملا] (1) ، فقضى له بذلك الشيخ ابراهيم ، أعتمادا على غير المشهور ونظرا لمصلحة اليتيم .

[وحاصل الخلاف : هل المعتبر في الحضانة مصلحة اليتيم ، أو صرفها الى اقاربه من جهة الام تعبّدي ؟ وهل الحضانة حق للحاضن ، وهو المشهور ، أو حق للمحضون أو حق لهما ؟ خلاف في ذلك بين العلماء] (2) .

فانتصر هذا لرأيه وهذا لرأيه ، ووقع بينهما اختلاف في المجلس ، آل الامر فيه الى أن القاضي أتى بكتب تحملها الاعوان وجعلوها بين يديه ، وطلب من الباي أن يأمر احد الكُتّاب بقراءة محلّ الحاجة من كل كتاب ، فغضب شيخنا سيدي ابراهيم وقال لتلميذه المذكور في المجلس : « قصّر يا قليل الحياء » ، وانفصل الموطن ، فسلّم الشيخ ابراهيم في الخطة فلم يقبل الباي تسليمه ، وألزمه القيام بخطّته ، فكتب ما نصّه : « المنّة لله الذي اصطفى لنصر الدين وإعزاز الملك سيّدنا مصطفى ، ووصل به رحم الشريعة بعد القطيعة والجفا ، فها هو في رفع قواعدها كالساعي بين المروة والصفا ،

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(2) هذه الفقرة ساقطة من خ ، مثبتة في ع و ق .

لا زالت موارد اعدائه في كدر وموارده في صفا ، آمين . أما بعد تقبيل يد القدر العليّ ، بشفاه الإجلال الصفيّ ، والحب الوفيّ ، فان معظّم قدركم لم يطلب الإقالة إلاّ لمّا عيل صبري ، وضاق ذرعا أمري ، فاني منذ توليتُها وأنا حزين الفؤاد ، رهين الندم والانكاد ، ومن يقوم بحقّ الله وحق العباد ؟ حتى وهن العظم منّي ، واشتدّ ضعف الكبر في سنّي . وهذا القدر من الاعتذار كاف ، في تفضلكم عليّ بالاسعاف . كيف وقد انضمّ الى ذلك ما لا صبر لاحد عليه ، وهو مواجهتنا على رؤوس الاشهاد ، باساءة الادب في ذلك الناد ، ممن كنا نلقمه ثدي التعليم ، ويرعانا بعين الاجلال والتعظيم . ثم انه لم يقنع بسنان لسانه ، حتى شرع الينا رُمْحَ بَنَانه . فهل بعد هذا التعدّي من إذلال ، وماذا بعد الحق الا الضلال . فاذا تفضل علينا سيدنا دامت معاليه ، وسعدت أيامه ولياليه ، برفع اليد عن رضًى منه ، فقد اطّلع في شأننا على الكنه ، ومنّ علي بالإعتاق ، بعد شدة الوثاق ، وان رضي بالاخرى وأنا لها كاره ، فرضاه جنة الدنيا وحُفّت الجنة بالمكاره . والدعاء لكم ببلوغ المرام ، ختام الكلام .

فأجابه الباي بأن هذا الامر متعيّن عليك شرعا ، والمعارضة في العلم ليست من سوء الادب ، وإلاّ سُدّ باب المشورة . والاجدر بمثلك ومثله ان تكون قلوبكم متعاضدة ، وأنفاسكم على الخير متواردة . وقد رضيتُ لك ما سمّيتَه جنّة الدنيا ، وان حُفّت بالمكاره، فاقبلها وأنت لها كاره ، لا سيما وأنت في عدة سفر لبيت الله وحرم رسوله . فادع الله للجميع بالهداية ، والسلام .

وكان الباي منتصرا للشيخ البحري . [واكبر قولَ الشيخ لتلميذه بمحضره في المجلس يا قليل الحياء] (1) .

ولما وصل الشيخ الى الحرم النبوي انشد عند باب السلام :

إليك رسول الله جئت من البعد	أبثّك ما في القلب من شدة الوقد
بغي وطغي مستكبر متشبّث	بوَهْم يقود الناسَ (2) للخطإ المرْدي
وصار رقيبا مبغضا متجسّسا	يقصر طول الليل بالردّ والنقد
وعبدك ، يا خير الربية ، غافل	ظننتُ به خيرا لما مرّ من ودّ

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، ثبتت في ع و ق .
(2) كذا في ع و ق ، وفي خ : « يقود النفس » .

ترفّع للدنيا بِخَفْضِيَ جاهِدا (1) مُعانا بجهّال عَرِيِّين عن رُشْد
وبالغ في خَفْضِي إلى أن غدا على رؤوس الورى يُتْلَى جِهارا بلا جَحْد
ولم يَرْعَ أياما يرانيَ شَيْخَه ومرشدَه الهادي ومنعمَه المُهْدي
ولا خاف لوما في القطيعة لا ولا عقابا من المولى على ناكث العهد
فهذا ، رسولَ الله ، إجمالُ مكْره وتفصيله يا سيدي ليس في جُهْدي
ألا يا رسول الله هذا تذلّلي اليك، فخُذْ بالثار يا منتهَى قصدي
الا يا رسول الله ضيفك سائل فهل ضيفُ أهلِ الجود يُكرم بالطرد
ألا يا رسولَ الله بَرِّدْ جوانحي بدائرة تسعى إليه بلا بُعْد
عليك صلاة الله يا منتهى الرجا وأزكى سلام دونه فَوْحة النّدّ
وآلك والاصحاب طُرًّا وتابع وبَعْدُ فَذا ذُلّي لِجَدْواك يَسْتَجْدي

نسأل الله ان يجمعهما في صعيد واحد ويقول لهم تَحالَلُوا مظالم كانت بينكم ، ويغفر لهما وهو الغفور الرحيم . وما ضرّ الشيخ البحري لو راجع شيخَه بلطف ، أو سأله عن مستنده كما كان يسأله ، او نقل له ما في تلك الكتب ، أو بعث بها اليه ؟ وأي داعٍ الى كُتُب بأيدي صفٍّ من الاعوان في ذلك المشهد الا تبريد شيخه أو نسبته الى المكابرة ؟ والحال أن شيخه لم يخالف إجماعا ، ولا قاطعا من النصوص ، ولا قياسا جليا ، بل القياس الجليُّ في النظر لليتيم هو حفظ ماله حتى يبلغ الاشُدّ . ولا معرّة تلحقه اذا أنفق عليه عمُّه ، فعمُّ الرجل صِنْوُ أبيه ، وللعمِّ حقٌّ في الحَضَانة بعد غيره لانه من العَصَبة . ومصلحة اليتيم في حفظ ماله توافق فتوى الشيخ . والاصل في الاحكام الشرعية ان تكون معقولة المعنى ، والنازلة مناط اجتهاد . وما ضرّ الشيخ ، رضي الله عنه ، لو صبر وغفر وكان أجره على الله ؟ رحمهما الله .

وتوفي الشيخ البحري بعد قدوم الشيخ ابراهيم بنحو ثمانية أشهر .

وفي السنة 1252 (1836/37 م.) تم إحياء جامع الطراز بمحجِ دريبة الداي . وذلك ان الباي مرّ به يوما فرآه معطّلا مغلق الباب [وقد مدّ الخراب له يديه ، وظنّه دارا] (2) ،

(1) في ع و ق : « جاهلا » .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

فسأل عنه فقيل له ان الناس يستغنون بجامع حمودة باشا عن الصلاة فيه ، فأحياه ورتب فيه مُجوِّدا يتلو كلّ يوم حزبا من القرآن العظيم ، وإماما يقيم به الخمس ويروي شيئا من صحيح البخاري ، وهو الفقيه أبو عبد الله محمد بن مصطفى البارودي ، وحضر له يوم الختم في رمضان .

. وفي الثامن والعشرين من محرم سنة 1253 ، ثلاث وخمسين (الخميس 4 ماي 1837 م.) ، خرج الوزير شاكير صاحب الطابع بمحلة من عسكر النظام والمخازنية وبعض المزارقية الى جبل ماطر وبجاوة وسببها ان الشيخ الحسين ، من اولاد الشيخ عبد الرحمان اقوطال صاحب الزاوية الشهيرة في بجاوة ، كانت له مع الدولة خلطة ، والْتَحَم بأبي الحسن علاّلة بن قاجي محمد ، صهر حسين باي وربيبه ، وحصل بتلك الخلطة جاها زائدا على امثاله من ابناء الزوايا . ولما استبدّ بالوزارة شاكير صاحب الطابع ، وتقلّص ظلُّ الاحترام عن سائر الرجال ، ولم يجد ما كان يألفه ، أنف من الركون الى الوزير ، فمقته وصار يتتبع مساوئه ، وهو يُدلُّ بنسبه وقربه ، وكان من الفرسان المشهورة . وآل الامر الى ان لاذ بقومه وأهل الجبل (1) ، فاعصوصبوا عليه ، وشنّوا على الهناشر الغارات ، وأخافوا السبل حتى لزم دفع الضرر . فسافر الوزير بهذه المحلة ، ومعه الامير آلاي سليم ، والامير آلاي قارة محمد ، والآغة محمد شولاق . وتطوع ابو عبد الله محمد خزنه دار مملوك الوزير بالخروج معه ، ملقيا بنفسه الى الموت لـمّا ناله من عسف الوزير الذي سببه الغيرة ، فقاتلهم وخضد شوكتهم وأباح ساحتهم . وضُرِب في هذه الواقعة محمد خزنه دار وانكسرت رجله . ويقال ان محمد شولاق ضربه باغراء من الوزير ، وربّك أعلم .

وأتى الوزير برؤوس الفتنة عند انجلاء غيهب الحرب ، ومثّل بأبدانهم من الضرب المبرّح ، وعبث بأجسادهم قارة محمد عَبَثَ الصبيان بالحيوان من قطع الآذان وتأليم الابدان وغير ذلك مما لا يبيحه شرع ولا عقل ، بعد القدرة ، وأغرمهم ألف رأس من البقر . ورجع الوزير بالمحلة أوائل ربيع الثاني من السنة (أوائل جويلية 1837 م) ، وألزم أهل المملكة شراء ذلك البقر .

---

(1) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « اهل جبل ماطر » .

وفي الشهر توجه الباي الى بستان جدّه بمنّوبة المعروف بقبّة النحاس ، بعد أن أحكمه وزخرفه وزاد فيه أبنية . وأناب ابنَه أبا العباس أحمد باي بباردو يباشر الاحوال (1) ويستأمره في المهمّات . وحمل معه ابن أخيه ورجال دولته الى بساتين منّوبة ، وهو (2) البرج الكبير المسمّى بسانية السراية .

وفي آخر هذا الشهر توفي الوزير الكاتب ابو الثناء محمود الاصرم ، وقدم الباي لرئاسة الكتّاب عوضه ابنَ أخيه وكاهيتَه أبا عبد الله محمد بن محمد الاصرم ، وقدّم عوضه كاهية أبا الربيع الفقيه الكاتب سليمان المحجوب .

الخبر عن
مقتل الوزير شاكير صاحب الطابع

لما تاه هذا الوزير بما أتيح له من الانفراد بالرئاسة ، معرضا عما يلزمها من السياسة ، واستبد بالعسكر ، لا سيما عسكر الساحل ، وقد سافر بهم ومازج كبراءهم ، أنف لذلك احمد باي وقال لابيه : « قد سافرتُ بمحاتي الشتاء والصيف كما أمرتني ، وأنت الآن عازم على تقديم ابن عمّي للسفر ، وفاءً بوعدك ، فأيّ خدمة أباشرها أنا ؟ لا جائز ان اكون معك كما كان عمّي مع جدّي ، لانّك بحمد الله مضطلع بأمرك معافى في بدنك ، ولا جائز أن تسلّم لي ، ولا اقبل ذلك ، ولا أرضى لنفسي هذه الاحدوثة . فان رأيت ان تقدمني على العسكر ، تجدني سميعا مطيعا » ، فصادف من الباي أذنا واعية . سمعتُ ذلك من احمد باي رحمه الله ، لانه ثقل عليه إدلالُ (3) الوزير وتحكّمه فيما يتعلق بالمال ، مستندا الى ما التزم به سيّدُه الاول ، وقد زال السبب ومات الملتزم . ولم يكن استيلاء الوزير في امور العسكر بولاية مخصوصة ، وانما توصل الى ذلك من جهة المصرف .

ففي اوائل جمادى الاولى من السنة 1253 (أوائل اوت 1837 م.) ، جلس الباي صباحا بالصرايا (4) ، وأتى ابنه احمد باي لتقبيل يده على العادة ، ووقف في موقفه ، فقال

---

(1) في ع و ق : « يباشر الحكم » .
(2) في ع و ق : « وأنزلهم بالبرج الكبير » .
(3) في خ و ع و ق : « ادلاء » .
(4) وردت في النسخ المختلفة ، وفي النسخة الواحدة : صرايا وسرايا وصراية وسراية .

له أبوه : « يا احمد ، قد أوليتك النظر في امور العسكـر النظامـي ، بحيث لا أقبـل مطالبهم العسكـرية الا على يدك ، وأنت المسؤول عن سائر أمورهم » ، فتوقف (1) ابنـُه سياسةً مع الوزير ، فانتهره وقال له : « تقدَّم وقبِّـل يدي مثل اهل الخطط ، فانـي لا أسلـّم لك في رتبتـي ما دمت حيا مستطيعا » ، فتقدم وقبـّل يده . وأمرنـي ان اكـتب عهد الولاية ، ولم تحضرنـي الآن نسخته . وقال للجماعة : « هذه الخطة لم يـكـن لها وجود في السابق حتى يقال انـي نقلتها من يد صاحبها المخصوص بها ليد ابنـي » ، فأجابوه على البديهة بالاستحسان ، لما فيه من سدّ باب الغيرة المثيرة للفتنة بين الاقارب . وقال للوزير : « هذا أخوك ، ولك معرفة بأحوال العسكـر ، فأعِـنْه وأشِـرْ عليه بما يُستَحسَن من الفعل »، فظن الوزير ان الامر لم يزل بيده ، وان الاسم لاحمد باي والمسمّى له ، وما درى ان الصمصامة أعطيت لساعدها .

فخرج احمد باي لعلوِّه ومعه الوزير ، فطلب منه زمام اسماء العسكـر ، واذن بقدوم عسكـر سوسة . وتوجه في اليوم الى قشلة المركـاض ، ولبس زيَّ العسكـر ، وأتى بعسّة من العسكـر لمحلّه ببـاردو على التنـاوب . إلا أن الـوزيـر لم ييـأس كـلَّ الإيـاس من الدخول (2) في العسكـر ، وكـان في ذلك كـالباحث عن حَتْفه بظلفه .

وفي يوم الخميس التاسع عشر من الشهر ، سافر أبو عبد الله محمد باي بمحلة الصيف بجند الترك والمخازنية ، واحتفل عمّه لسفره بما لم يَحتفل لابنه ، وأمر بـاش حانبه عبد الوهاب أن يسافـر معه . وسافـر معه إسماعيـل مملوك الوزير شاكـير بخطة صاحب الطابـع ، والآغة محمد شولاق ، وأركـب الوزراء والاعيان لمشايعته .

وشرع احمد باي في ترتيب احوال العسكـر ، وباشرهم بنفسه ، لا يغيب عن القشلة. وأمر ممـاليكـه وأهل صرايتـه بتعلـّم الحـركـات النظامية ، يخرجـون لذلك غـالب ايـام الاسبوع ، وامتزج بهم أي امتزاج .

وفي إثر ولايته توفي الامير آلاي سليم ، وحضر احمد باي جنازته ، واختار للولاية عوضه القائمقام سليم فأولاه الباي ، وهو الآن أمير أمراء ورئيس الضبطة .

---

(1) توقف : تردد .

(2) الدخول : التداخل (عامية تونسية) .

وامـا قاره محمد فقد تجنف (1) عن احمـد باي ، بما لاح من حالـه ، وانحـاز الى الـوزيـر شاكـيـر . وحفظـت عنـه كـلمـات نقمـت عليـه ، وكـان لا يبـالي بمـا يقول .

ولم يزل أحمد باي معتنيا بأحوال العسكـر ، حتى دانت له قلوبهم وأشرِبوا حبّه . وتحدث الناس بتقدمه ، وتقربت له الاعيان والعقلاء ، وانضاف اليه ابو الثناء محمود بـن محمد بن عَيّاد وغيره ، لما في طباع الناس من الانحياز الى المقـرَّب ، ولا اقرب من الولد لوالده . وكـل من يتقرب الى احمد باي يتنـكـر له الوزير ، مع توغّر الصدور عليـه لثقـل وطـأتـه .

وفي هذه الايام طولب محمود بن عَـيّاد بدين عليه لبعض تجار الفرنسيس ، ولـه ولابيه دَيْن قِـبَـل الدولة ، فقال احمد باي لابيه : « ان هذا الرجل من أعيان الدولة ، ولا وفاء له بما عليه من الدّين ، فان كـان له حق قِـبَـل الدولة فلا وجه لفضيحته ، ومالُـه قِـبَلنا » ، فقال له الوزير مصطفى صاحب الطابـع : « لا بدّ من الـكـلام مع الوزير شاكير في ذلك » . ولما اتى من المحمدية وعلم الخبر ، تعلّل بأن ما طلبه ابن عَيّاد انما هو ثمن اشياء أتى بها هدية ، فأجاب ابن عَيّاد بأن : « الهدية ما نأتـي به من تلقـاء نفسي ، أما الاشياء التـي نؤمر بشرائها بمـكـاتيب الوزير ، أو دراهم نؤمر بدفعها وحججها بيدي ، فهـي خارجة عن سنن الهدايا » .

ولما بلغ الوزير هذا الجواب اغتاظ وقال : « ندفع سائر ما على ابن عياد من الديون، وسلّموه ليدي » ، فقال له الباي : « أي عقل وأي شرع يسوّغ ذلك ؟ » وأمر بدفع المال واخذ الحجج منه ، وكـان اكـثر من ثلاثمائة ألف ريال ، فاشتد حنق الوزير على الدولة ، وقال لمصطفى صاحب الطابـع جهـارا [بعنـف على رؤوس الحاضريـن] : « أنا أجمـع المال [ليـكون خزنـة البلاد] ، وانتم تبدّدونـه [في اغراضكـم واغراض اولادكـم] (2) ، واذا احتجتم ترجعون على مالي » .

---

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « تجنب » ، ولعل المراد جانفه اى انفصل عنه على بغض .

(2) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

وأطلق لسانه ، فتحمل مصطفى صاحب الطابع جفوته ، ولاطفه حتى سكّن غضبه ، ثم [خـلا به وأحضرني] (1) وقـال له : «كمـالك لا يقتضي صدور هذه المقـالات منك بمرآى من الناس ، وفيهم من يحسدك فيزيد عليها ويبلّغها على وجه السعاية بك . وهؤلاء السادة لهم علينا حقوق ، وأياديهم في أعناقنا ، لانهم اشترونا صغارا ، وتربينا في نعمتهم ، وقدّموا الى مصاهرتهم وعظائم خدمتهم ، حتى صرنا كـجزء منهم ، لا يَمُنُّ أحد منّا عليهم بخدمة . ولولا حرمتهم ما نلنا حُظْوة ، ولا نقلنا في التقدم خُطْوة . وفي اعيان البلاد من الكـتّاب والمخازنية من يقوم مقامنا وزيادة . ولو أن القائد يوسف اليهودي القـابض أعْطِـي نصف حرمتك ، لفعل ما لا يخطر ببالنا ، أحْرَى غيره ، وان الكـفّ لا يقوم مقام العنق . وإن ابن عيّاد تعلّق بابن الباي وله حق في الظاهر ، مع ميل الباي الى إرضاء ابنه » ، فقال له الوزير : « لولا غفلتُك وتفريطُك ما تعلق ابن عيّاد بابن الباي ، ولاي سبب يتعلق به ؟ » ، فقال له مصطفى صاحب الطابع : « بأي وجه نُحَجِّر على الناس مُداخلَة أولاد الامراء ؟ وبأي وجه نحجّر على ابناء الملوك قبول خدّام آبائهم ، وهم في سنّ الرجولية ؟ والالحاح في امثال هذه الامور يؤدي الى رفع جلباب الحياء » ، الى غير ذلك مما هذا معناه واكـثر منه .

وقصد الوزير مصطفى صاحب الطابع ان يكـون ذلك بحضوري كـالإيداع . وانفصل الموطن على غير طائل . وخرج الوزير الى المحمدية حَنِقا . وقبض ابن عيّاد دراهمه ، وامرنـي الوزير مصطفى صاحب الطابع برسمها في صفحة المصروف بـزمـام الصرايا ، وكـان يومئذ بيدي . ويقال ان ابن عيّاد أهدى الى احمد باي نصف هذا المال .

ولما وقع من هذا الوزير ما وقع من كـثرة الادلال والشدة ، توقع الشر وحاول النجاة ، فبعث الى اعيان العسكـر بسوسة وأتوه سرا ، وتعاهد معهم اذا أتاهم يقومون بحمايته وانـه يقدم إليهم بأبي عبد الله محَمد باي ابن حسين باي ، وقدّر انه يطاوعه في ذلك وهو من أشد الناس تجنّفا عنه . وحسّن له هذا الرأي الامير آلاي قاره محمد ، وصوّر له نتيجة هذا القياس العقيم . ومن تعاظم على الزمان أهانه . وبقـي يفـكّر منتظرا قدوم محَمد باي بالمحلة . واستشار في ذلك الشيـخ العالم السالك ، شيخنا ابا عبد الله محمد بن ملـوكـة ،

---

(1) ما بـين القوسـين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

فوعظه ونهاه ومحضه النصيحة ، لو صادفت قريحة ، وقال له : « من سلّ سيف بغي قتل به ، ومن أضرم نار فتنة احترق بها » ، الى غير ذلك مما سبق القدر بعدم سماعه . فصمّم على رأيه ، فتأثم الشيخ ابن ملوكة من كتمان هذا الامر ، وفيه سفك لدماء المسلمين وشحناء بين أقارب ، فأسرّ بالخبر لاحمد باي ، وأتى بعضُ من عاهدهم من العسكر الى اميرهم المحبّب لهم احمد باي ، وأخبره بهذا السرّ الذي كتمانه خيانة .

وقويت القرائن يعضد بعضُها بعضا ، فبعث الباي الى الوزير أبي الربيع سليمان كاهية ، والى أبي محمد خير الدين كاهية ، واجتمع بهما في قصر منوبة ، وقصّ عليهما الخبر وسنده [وما حفّته من القرائن الحالية] ، فلم يستبعدا ذلك ، وأشارا عليه بدفع الضرر عنه وعن المسلمين [وان لا يتوانى في مثل هذا الامر] (1) فأوصى البايُ ابنَه ان يعتقله اذا قدم لباردو ، ويطيّر له بالخبر .

ولما كان يوم الاثنين الحادي عشر (2) من جمادى الثانية من السنة 1253 (11 سبتمبر 1837 م.) ، بكّر الوزير شاكير من المحمدية الى الباي بمنّوبة ، ووقف بين يديه على العادة ، وقال له سرًّا : « لا يخفى سيادتكم ان الناس تبغضني لنصحي في خدمتكم [ووقوفي في مصلحتكم] (3) ، لا سيما ابن عياد . وأخشى ان يبلّغوا عنّي ما أنا بريء منه » ، فقال له الباي : « دَعْ هذا الوسواس من فكرك ، فأنت بمنزلة ابني أحمد » ، ثم وقف قليلا ، واستأذنه في التوجه الى باردو لملاقاة أحمد باي ، فأذن له ، فأتى باردو وطلع الى الصرايا ، وعيون احمد باي ترقُبه .

ولما تحقق وصولَه ، بعث في الحين الى والده بمنّوبة مع خديمه المقرّب تونين بوقو(4)، وأمر ابا الربيع سليمان باش آغة ان يجلس بسقيفة باب باردو ومعه عسّة الباب ، يمنع الخارج منه كائنا مَن كان ، ولا يمنع الداخل . وانما فعل ذلك خشية أن يطير الخبر الى المحلّة (5) على غير وجهه .

---

(1) ما بين القوسين فى هذه الفقرة ساقط من خ ، منبت فى ع و ق .

(2) هو 10 حسب التقويم .

(3) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

(4) Antonio Bogo — Ganiage p. 118

(5) فى خ : « الى المحلة » ، وفى ع و ق : « الى المملكة » .

واتى الصرايا فوجد شاكير في انتظاره . ولما قابله قال له : « ان سيدنا أمر بأن تكون في صرايتي حتى يقدم الآن » ، فارتعد وكاد ان يسقط ، فاكتنفه ابو العباس احمد امير لواء الخيالة ، وابو المسرة فرحات القايمقام ، وأوصلوه من الممشى الى بيت (1) أعِدَّت له ، ولم تقع له فضيحة ولا هتك ستر . ووقفت عسّة عسكرية أمام باب البيت .

ولما وصل الخبر الى الباي بمنوبة ، ركب مسرعا وأمر ان لا يتخلف عنه أحد . ولما دخل باردو عدل الى صراية ابنه ، وانتظر مَن وراءه من الناس ، وكل من يصل الى البطحاء يقال له (2) ان الباي في صراية ابنه ، فيدخل فيجد الباي جالسا واجما ، وابنه قائم عند رأسه (3) .

ولما تمَّ اجتماع الناس قال لهم : « هل لحقكم ضرر منّي او نقمتم علي أمرا منذ وَلِيتُ أمركم ؟ » فقالوا : « لا ، بل أحسنت الينا ولم تغيّر (3) أحدا منّا » ، فقال لهم : « أترْضَوْنَ ان شاكير صاحب الطابع يخضب هذه الشيبة بدمي ، ويوقد فتنة في داري وبين أبنائي ؟ » .

وقص عليهم الخبر ، فتكلم كل واحد بمقدار مَوْجِدَتِه على الوزير ، وتفنّنوا في تقرير حاله . ثم قال لهم : « انه هنا مسجون » ، فقالوا له : « الامر اليك ، ونطلب منك قطع مادة الفساد عن بلادنا » ، فعند ذلك أمر ابنَه احمد باي بخنقه ، فخرج وأمر بذلك .

ولما دخل عليه الاضه باشي محمد الطبرقي والمماليك واقعدوه بمصرعه ، لم يزدد روعه ، وأمرهم بدهن الحبل بالصابون ليغوص في رقبته ويموت بسرعة . ثم استأذنه ابنه في قارة محمد ، فقال له : « هو أحقر من ان يُقتَل ، انزعْ عنه ثياب العسكر واسجنه حتى يتهيأ شقف للسفر فيُنفَى فيه » . وأمره بالاحتفاظ على كسبه ليحمله معه . ثم وجّهه الى برج حلق الوادي فسجن به الى ان جمع كسبه وسافر منفيا . وخدم في العسكر

(1) بيت : غرفة ، حجرة (استعمال تونسى) .
(2) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « يقول له بينباشى العسة » .
(3) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « قائم بين يديه » .
(4) غيره : أساء اليه ، آذاه (عامية تونسية) .

باسلامبول امير آلاي ، ومات قتيلا بديوان عسكري [في مصر] (1) لخيانة ثبتت عليه ، على ما بلغ متوترا .

ثم أمرني الباي ان اكتب لابن أخيه بخبر الواقعة ، وهو بالمحلة في باجة ، وأمره بارسال محمد شولاق واسماعيل صاحب الطابع ، وان يجعل محمد علي آغة بالمحلّة . وكتب بذلك أيضا الى عبد الوهاب باش حانبة ، وطيّر بالمكاتيب ابا النخبة مصطفى البلهوان باش حانبة الترك ، وأبا محمد بهرام ، وخرجا في الحين .

وبعد ذلك سرّح الناس للخروج من باردو . ثم قال : « احملوا جثة هذا الانسان الى داري بتونس فيخرج منها نعشه » ، فقال له بعض الحاضرين : « ان هذا الرجل وزيركم وصهركم ، ولا ننسى ما وقع بالامس في جثة ابي المحاسن يوسف صاحب الطابع ، وهو مَن هو ، وهذا الرجل مبغض الى الناس » ، فقال له : « جزاك الله خيرا ، ذكّرتني » . ثم أمر بعض أعيان المماليك ان يتوجه به في تابوت وكرّيطة الى الدار ومعه الحوانب ، فتوقف . ثم أمر الكاتب الفقيه ابا عبد الله محمد بوخريص ان يتوجّه به ، فأوصله الى دار الباي [بالحاضرة قبل الزوال] ، وبقي بالدار والمخازنية معه . [وبعث الى شيخ المدينة باحضار ما يلزم لدفنه] ومن الغد خرجت جنازته [صباحا] بما يناسب مقامه على عادة البلاد . ودفن بزاوية السيّدة بركة ، بربَض باب الجزيرة ، وكان هذا الباي بناها للولي المجذوب السيد حسن ولد مسكة ، بطلب منه (2) .

وفي اليوم أمر الباي ابن أخيه ابا عبد الله محمد الصادق باي ملك هذا العصر أن يتوجّه الى المحمديّة ، ويأتي بأخته وابنها وأتباعها الى دار أبيها بباردو .

وفي اليوم ، اثر قتل الوزير ، أولى الباي ابا محمد صالح زيد كاهيةً بالكاف ، وابا محمد رشيد امير آلاي بعسكر سوسة وعاملا بها ، وابا محمد حسن ساقسلي عَمَلَ المنستير ، وابا عبد الله محمد الجلولي عمل صفاقس ، وابا عبد الله محمد بن عباس عمل المثاليث . وأمرهم بسرعة التوجّه الى محلّ أعمالهم ، لحزم رآه في ذلك . ووجدنا أوامر ولايتهم مكتوبة ، موقوفة على الختم بالطبع . وخرجوا في اليوم .

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

(2) ما بين القوسين فى هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

ولما وصل مكتوب الباي لابن اخيه بالمحلة ، وسمع محمد شولاق الخبر ، حمل سلاحه وقال : « لا اتوجّه الى الموت حتى اقتل اثنين او ثلاثة » ، وكان متهورا . واذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه . فقال له الباي : « وما عسى ان تفعل وأنت رجل واحد ؟ ان لم تتوجه طوعا بعثت اليه برأسك ، لا سيما وقاره محمد لم يُقتَل » . وأجاب عمَّه من إنشاء الاكتب الاديب ابي عبد الله محمد بن محمد المنّاعي بما نصّه ، بعد صدر بليغ براعة استهلاله : « المقام الذي بِرُّه واجب مفترض ، والبِدارُ الى طاعته لا يقدّم عليه غرض الخ ... اما بعد تقبيل ايديكم التي أحسِنٌ الى تقبيلها ، وأداء ما يرضي الله من واجبات برّكم وتكميلها ، فقد اتصل بنا جوابكم (1) الكريم الوفادة ، السافر عن السعادة ، صحبة ولدنا مصطفى البلهوان باش حانبه ، وابننا بهرام . فاستفدنا منه أولا سلامة ذاتكم التي هي غاية أمانينا ، ومن أهمٍّ مقاصدنا ودواعينا . فقابلنا نعم الله بشكره وحمده ، وسألناه لكم مزيد رِفْده . وما عرّفتنا فيه عن شاكير الناشيء في نعمتكم ، المتغذي بلبان حُرمتكم ، حتى قوي بجاهكم بعد أن لم يكن ، بأنه (2) مُنطَوٍ لكم على ضغائن وإحَن . فحدثته نفسه الخبيثة كفران النعمة ، وظهرت عليه أمارات الغدر وهتك الحرمة . فبادرتَ إلى حسم الداء قبل استحكامه ، وحلّه دون انبرامه . فلله المنّة ومزيد الشكر حيث مكّنكم من ناصيته ، جزاءً لمعصيته . فأنا أول مؤازر لكم على محو آثار شرّه وتعفية ساحته لو بدا لي منه ما ثبت لديكم وظهر للعين ، بعد أن سبرته بميزان عقلك الرزين . وما أمرتنا أيّدكم الله بأن نوجّه اليكم محمد شولاق واسماعيل صحبة حاملَي الجواب المذكورَين ، فلما اتصل بهم الامر المطاع ، بادروا بالامتثال والاتّباع ، وطلبوا منّا ان نسترهم من فضيحة التعيين (3) ، ويتوجّهون لحضرتكم بأنفسهم طائعين ، وللحكم منكم منقادين راضين . فأسعفناهم بطِلْبتهم لمّا ظهرت منهم مخايل الصدق ، وكتبنا جوابا بأيديهم للسيادة . وقد اقمنا ابننا محمد علي مُقام محمد شولاق كما أمرتم بذلك . والله يصل لكم عوائد الإنعام ، وعزة لا تؤذن بانصرام ، ويجمعنا بكم في اسعد الايام ، ويعيننا على القيام بما لكم من الحقوق العظام . وكتب في 12 جمادى الثانية سنة 1253 (الاربعاء 13 سبتمبر 1253 م.) .

---

(1) جواب : خطاب ، رسالة .

(2) كذا في خ و ع ، وفي ق : « أنه » .

(3) التعيين : الاحضار الى المحاكمة بواسطة عون المحكمة .

ولما قدم محمد شولاق أتى الى الصرايا ، وعدل اسماعيل لدار القنصل ، فبعث الباي الى القنصل بما محصّله : « ان هذا الرجل غير مطلوب في رزقه (1) ولا في دمه ، وانما المراد ايقافه حتى يجمع كسبه ويسافر » ، فأمره القنصل بالخروج ، فخرج الى برج حلق الوادي الى أن جمع كسبه . وسافر بعد ان طلب منه الباي طلاق بنت أخيه ، وهي في عصمة عقده . فطلّقها قبل البناء بها ، وسافر لاسلامبول . [وخرج منها منفيا] (2) ، وساءت حاله ، فرجع الى تونس على أسوأ حال الى ان توفي بها .

واما محمد شولاق فصدر له الإذن بأن يكون عند الوزير أبي الربيع سليمان كاهية في بستانه بالمرسى . فمكث أياما ، وصدرت منه بوادر لا يحتملها طبع الوزير المذكور ، فنُقِل الى برج حلق الوادي بطلب من الكاهية . ولما جمع كسبه ، سافر الى الاسكندرية ومصر وتزوّج . ونَبَتَتْ به الاوطان فكاتب المشير أبا العباس احمد باي يستأذنه في القدوم فلم يأذن له . وتو في بطرابلس فجأة عن غير عقب . وأوقف الوكيلُ بها مُخلَّفَه ، لما للدولة فيه من حق الوَلاء الشرعي ، فأمره أحمد باي بدفع سائر مخلّفه لزوجته ، [ويرسل حجة في توصلها بذلك ، ففعل] (3) .

ولما قدم أبو عبد الله محمد باي من المحلة واجتمع بعمّه ، برّأ نفسه . وثبتت عند عمه براءتُه وانه لم يسمع شيئا مما دبّره شاكير وقاره محمد .

ولم يُسمَع في الملك المطلق بوزير مات بشبهة حقٍّ قبل شاكير ، بمقتضى ما قامت عليه من القرائن والشهادات وفَلَتات اللسان ، ولم ينقص الا عرض ذلك عليه وسماع جوابه . ومع ذلك لم يتتبع كسبه بالفضيحة والتقييد كامثاله ، [وان أخذ منه ما أخذ ، ولا مَسّ أحدا من اتباعه بسوء] (4) .

وبعد موته رجع الباي الى باردو من مَنُّوبة ، وابتدأه مَرَضُ موته بدُمَّل نبت في قفاه . قال بعض الاطباء سببه الانزعاج وطلوع الدم الى أعالي البدن في نازلة شاكير ، وعالجه بالشق (5) . وفي خلال مرضه يسأل وزيره أبا النخبة مصطفى صاحب الطابع :

(1) كذا في ق ، وفي خ و ع : « رقبه » .
(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(3) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(4) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .
(5) شق ، وشقان : عملية جراحية .

« هل قدم الشيخ ابراهيم من الحج ؟ » ، وتاقت نفسه لرؤيته . وابنه احمد باي يخرج كل يوم لمباشرة المظالم [في بيت الباشا] نائبا عن أبيه . وكان في مرض موته يوصيه بصلة الرحم والرفق ، وان لا يبطل المجلس الشرعي [بحضرته] ، وان لا يخصّ أحدا من قناصل الدول بصحبة ذاتية ، وانما يخالطهم بقدر الحاجة على احترام مناصبهم ودولهم . سمعنا ذلك من ابنه مرارا ، ومن وزيره أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع (1) .

وعند فجر يوم الثلاثاء عاشر رجب من السنة 1253 (10 اكتوبر 1837 م.) ، اشتد به المرض ، وشاهد طلائع المنية ، تقصده من كل ثنية ، فطلب من ابنه ووزيره ان يُحضِرا له إمامه الشيخ الفقيه الخيِّر أبا العباس احمد البارودي ، وكاتِبَه الفقيه الشريف أبا الربيع سليمان المحجوب ، فدخلا عليه .

وقال لابنه : « احفظ وصيتي واخرج في وديعة الله » ، فغنمها وخرج الى الباب ، فلاقى ابن عمه محمد باي ، فقال له : « ان عمك محتضر ، وهذا الامر إليّ بعد وفاته ، ولك بعد وفاتي » .

وحضر لهما الوزير أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع ، وطلب منهما التعاهدَ على الوفاء [ومن نكث فالله حسبه] (2) .

وخلا الباي بنفسه يذكر الله [بكلمة التوحيد] ، ويصلّي على النبي صلى الله عليه وسلّم ، وإمامُه [عند رأسه] (3) يتلو سورة ءيس .

ورفض الآمال الممدودة ، وأقبل يستكمل الانفاس المعدودة ، الى ان رجعت بفضل الله نفسُه المطمئنة الزكيّة ، الى ربها راضية مرضية . فلم يَرُعْنا إلا باكية نعيه بالدار .

وخرج الإمام والكاتب باكيَيْن ، وعزّيا ابنَه وآلَ بيته . وكل نفس ذائقة الموت وانما تُوَفَّوْن أجوركم يوم القيامة .

(1) ما بين القوسين فى هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(2) ما بين القوسين فى هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .
(3) ما بين القوسين فى هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت ع و ق .

ودُفِن من الغد حذو أبيه . وعتّق عليه ابنُه وغيرُه عددا كثيرا من الارقّاء ، وان لم يتبعوا نعشه بالقصب التي بها صُحُف العتق ، على العادة . وقال ابنه : « ان العتق لله سبحانه ، لا للمباهاة بكثرة المعتوقين » . ومنه نسخت تلك العادة ، حتى منّ الله على عبيده بالعتق العام على يد ابنه [وارث ملكه] ، كما سيأتي ان شاء الله تعالى [في بابه قريبا] (1) .

وقصر مدته اقتضى ان لا تكون له آثار مبنية ، وان كانت آثاره المعنوية اعظم من الآثار الحسيّة .

حال هذا البـاى

كان رحمه الله حليما كريما ، سليم الصدر ، حسن اللقاء ، طلق المحيّا ، فصيحَ اللسان ، يحب الرفق والتأنّي ، عارفا بنفسه ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربّه ، واقفا عند حدّه ، بعيدا عن الاعجاب ، لا تحرّكه الانباء الا بعد التبيُّن ، متثبّتا في العقوبات لا سيما الدماء ، مراقبا لله في تصرفه ، كثيرَ الادب مع الاحكام الشرعية ، بحيث لا يحكم في نوازل المعاملات الا الضروريات (2) . وهو أوّل مَن حلّف المنكرين بين يديه في المحكمة .

يصفح عن الزلّة ويتغافل عن العيوب ، جانحا للستر . آية الله في صلة الرحم والحنان وحبّ اهل المملكة لا سيما الحاضرة ، معظّما للعلماء ، ألمعيّ الفهم ، له مشاركة علمية اكتسبها بالمحاضرة ، مع جودة ذهنه . يميل الى مطالعة الكتب ، ويشتهي النظر في « سمط اللال » للشيخ قويسم ، لانه من علماء الحاضرة . عزيز النفس ، عالي الهمّة ، ما شئت من نفس طامحة للكمال ، وأخلاق اشهى من بلوغ الآمال ، وسياسة استعان بها في عظائم الاعمال ، وملك بها القلوب على التفصيل والإجمال . ولم يزل نيّر السعد ، لم يُسمَع لعظائم الفِتَن في أيامه صوتُ رَعْد ، إلى أن أتاه الوعد ، ولله الامر من قبل ومن بعد .

---

(1) ما بين القوسين فى هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت فى ع و ق .

(2) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « ... الا فى غصب الملد » (فى ق : الملك) .

فهرس الموضوعات

للمجلد الثالث من كتاب

« اتحاف أهل الزمان، بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان »

الموضوع — الصفحة

1) حمودة باشا الحسيني

2) عثمان بـــاي

3) محمود باشا بـــاي

4) حسين باشا بـــاى

5) مصطفى باشا بـاى